العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الفكر والإبداع

شهر محرم
شهر صفر
شهر ربيع الأول
شهر ربيع الثاني
شهر جمادى الأولى
شهر جمادى الآخرة

Al-Sada

Cultural Quavterly Journal For Hegira Events

Issued by the al _abbas holey shrine Department of Intellectual and Cultural Affairs Division of thought and creativity

بسم الله الرحمن الرحيم

صدق الله العلي العظيم
سورة الزلزلة: الآية/ ٧.

الإشراف العام
السيد ليث الموسوي

السلامة الفكرية
السيد عقيل عبدالحسين الياسري

رئيس التّحرير
صباح نعيم الصافي

مدير التّحرير
محمد الأسدي

هيأة التّحرير
رضوان عبد الهادي
حيدر فائق هادي
حيدر الدفاعي
محمد يوسف

المراجعة اللغوية
محمد رضا جاسم

المشاركون
الشيخ فوزي آل سيف
الشيخ محمد المحفوظ
أ.د. نجم عبدالله الموسوي
أ.م.د. رحيم مزهر جبر العتابي
أ.م.د. هناء كاظم خليفة

التصميم و الإخراج
حسين عقيل

التنفيذ الطباعي
دار الكفيل
للطباعة والنشر والتوزيع

للاشتراك

تستقبل مجلة الصدى المشاركات (البحوث والمقالات) باللغة العربية، ووفق المحاور التي تغطي أحداث السنة الهجرية وتتناول السيرة العطرة للنبي الأكرم ﷺ، وأهل بيته عليهم السلام.

ترسل المشاركات على العنوان الآتي:
العراق / كربلاء المقدسة / مجمع الكفيل الثقافي / شارع الاسكان / خلف متنزه الحسين عليه السلام الكبير

التواصل مع المجلة:

alsadda@alkafeel.net
info@alkfeel.net

رقم الايداع في دار الكتب و الوثائق العراقية
٢١٩٤ لسنة ٢٠١٦م

في البدء

بسم الله الرحمن الرحيم

من القضايا المسلَّم بها عظمة الدور الذي قام به أئمة الهدى من أهل البيت عليهم السلام في الحفاظ على الرسالة الإسلامية وصيانة الأمة والمجتمع الإسلامي من الانحراف، فقد سعى أعداء الإسلام في القضاء على الرسالة الإسلامية بطرق شتى، وعلى عدة محاور، وأمام ذلك السَّعي الدَّنيء سعى أهل البيت عليهم السلام بكل جهودهم في الحفاظ على شريعة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وإرساء قواعده في المجتمع الإسلامي، وإن كان فيه التَّضحية بأنفسهم وذراريهم.

فقد كانوا بحق نجوم هداية وعلم رشاد يُهتدى بهم في مختلف ميادين الحياة، وذلك لما حباهم الله سبحانه بمزايا وسجايا وخصال كريمة، فهم مودع أسراره، وخزَّان وحيه، والحجة على خلقه.

إن الرَّسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله عندما يتحدث عن آل البيت عليهم السلام ويعرِّفهم بأنهم (عِدل القرآن) في حديث الثقلين المشهور، ليس من باب العاطفة ولأنهم أقرباءه خاصة، بل هو بأمر الله تعالى نطق به الوحي المبين في محكم التنزيل؛ وذلك لأن الأمة بحاجة إلى من يهديها ويرشدها إلى الصراط المستقيم ويبين لها أحكام الدين ويفسر القرآن المجيد بأمانة بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله ومن يستطيع النهوض بأعباء هذه المهمة غير أهل بيته عليهم السلام الذين نزل الروح الأمين بالوحي المبين (القرآن المجيد) في بيوتهم فهم أعلم الناس بخاصِّه، وعامه، ومحكمه، ومتشابهه، وناسخه، ومنسوخه، وظاهره، وباطنه.

إنَّ حبّ أهل البيت ﷺ يتضمن أبعاداً مهمة، لها آثارها في

حياة الفرد وحياة المجتمع، إنّه تعلّق بحبل الله الممدود من السماء إلى الاَرض

بعد النبي ﷺ والذي، ذلك لأنّهم ﷺ آيات الله والدّالون عليه وفيهم تتجسّد الصفات والكمالات التي يريدها الله تعالى، فحبّهم ﷺ يضمن سلامة الطريق المؤدي إلى الاَهداف التي تريدها الرسالة الإسلامية؛ فمن يهوى أهل البيت ﷺ سوف يأخذ العلم من أهله، والدين من محله، وبذلك تكون محبتهم ﷺ عاصماً من الانحراف أمام التيارات والفرق الضالة، وبعبارة جامعة إنَّ حبهم فيه خير الدنيا والآخرة، فقد قال رسول الله محمد ﷺ :« **مَنْ رَزَقَهُ اللهُ حُبَّ الْأَئِمَّةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَقَدْ أَصَابَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَا يَشُكَّنَّ أَحَدٌ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ فَإِنَّ فِي حُبِّ أَهْلِ بَيْتِي عِشْرِينَ خَصْلَةً عَشْرٌ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا وَعَشْرٌ مِنْهَا فِي الْآخِرَةِ؛**

أَمَّا الَّتِي فِي الدُّنْيَا فَالزُّهْدُ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْعَمَلِ، وَالْوَرَعُ فِي الدِّينِ، وَالرَّغْبَةُ فِي الْعِبَادَةِ، وَالتَّوْبَةُ قَبْلَ الْمَوْتِ، وَالنَّشَاطُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ، وَالْيَأْسُ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَالْحِفْظُ لِأَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالتَّاسِعَةُ بُغْضُ الدُّنْيَا، وَالْعَاشِرَةُ السَّخَاءُ.

وَأَمَّا الَّتِي فِي الْآخِرَةِ فَلَا يُنْشَرُ لَهُ دِيوَانٌ، وَلَا يُنْصَبُ لَهُ مِيزَانٌ، وَيُعْطَى كِتابَهُ بِيَمِينِهِ، وَيُكْتَبُ لَهُ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَيَبْيَضُّ وَجْهُهُ، وَيُكْسَى مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ، وَيَشْفَعُ فِي مِائَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَيَنْظُرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ، وَيُتَوَّجُ مِنْ تِيجَانِ الْجَنَّةِ، وَالْعَاشِرَةُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ فَطُوبَى لِمُحِبِّي أَهْلِ بَيْتِي» الخصال ،ج٢، ص٥١٥.

أنّ حبّ أهل البيت ﷺ يعني حبّ مكارم الاَخلاق التي ندب إليها الله –تعالى– ورسوله الكريم ﷺ.

ومن هنا يتضح أيضاً أن إيجاب حبّهم ﷺ يعني إيجاب التمسّك بهم كقادة يمثلون إرادة الحق وسُنّة سيد المرسلين ﷺ لإقامة دعائم الدين وتهذيب النفوس؛ لتبلغ منازل الكمال التي أرادها الله –تعالى– لها.

المحتوى

شهر محرم

البُعد الثقافي لنهضة الإمام الحسين عليه السلام ١١

العباس عليه السلام بين القيادة والطَّاعة «مقاربة تحليلية»..... ٢١

دفن الإمام الحسين عليه السلام والأجساد الطَّاهرة..... ٤١

أهمية الصحيفة السَّجادية في السَّلامة النَّفسية للفرد والمجتمع..... ٤٧

شهر صفر

من معالم إنسانية الإمام الحسن عليه السلام حقن الدماء..... ٥٧

الدَّليل على استحباب زيارة الأربعين..... ٦٧

الزيارة الأربعينية مفهومها، وأبعادها..... ٧٥

سياسة الإمام الرضا عليه السلام مع طغاة عصره..... ٨١

ربيع الأول

الإمام العسكري عليه السلام وبناء المجتمع الشيعي الموازي..... ٩٧

أسس العقيدة في كلمات الإمام العسكري عليه السلام..... ١٠٥

أخلاق محمّدية..... ١١٣

الإمام المهدي عليه السلام في مرويات الإمام الصَّادق عليه السلام..... ١٢٩

ربيع الثاني

من فضائل زيارة المعصومة عليها السلام..... ١٤١

جمادى الأولى

تسبيح الزهراء عليها السلام..... ١٥٣

أسباب ظاهرة العنف في العالم العربي..... ١٦٥

جمادى الآخرة

الارتباط بالمعصوم سر الخلود..... ١٨٣

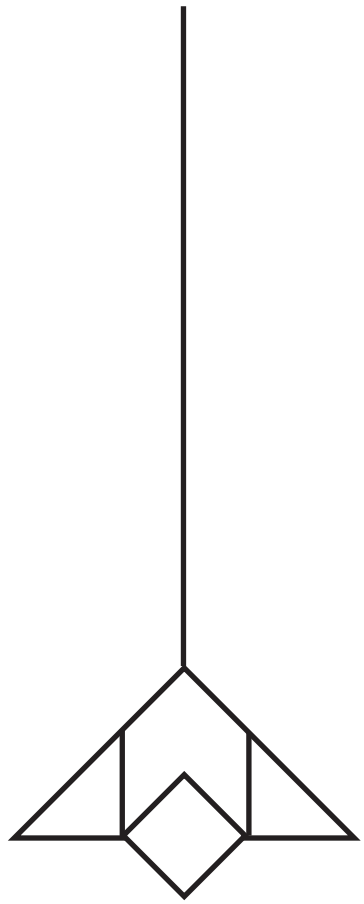

شهر محرم

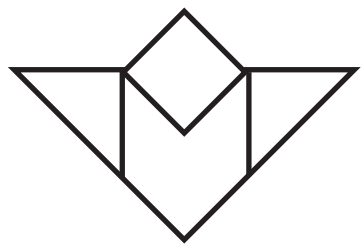

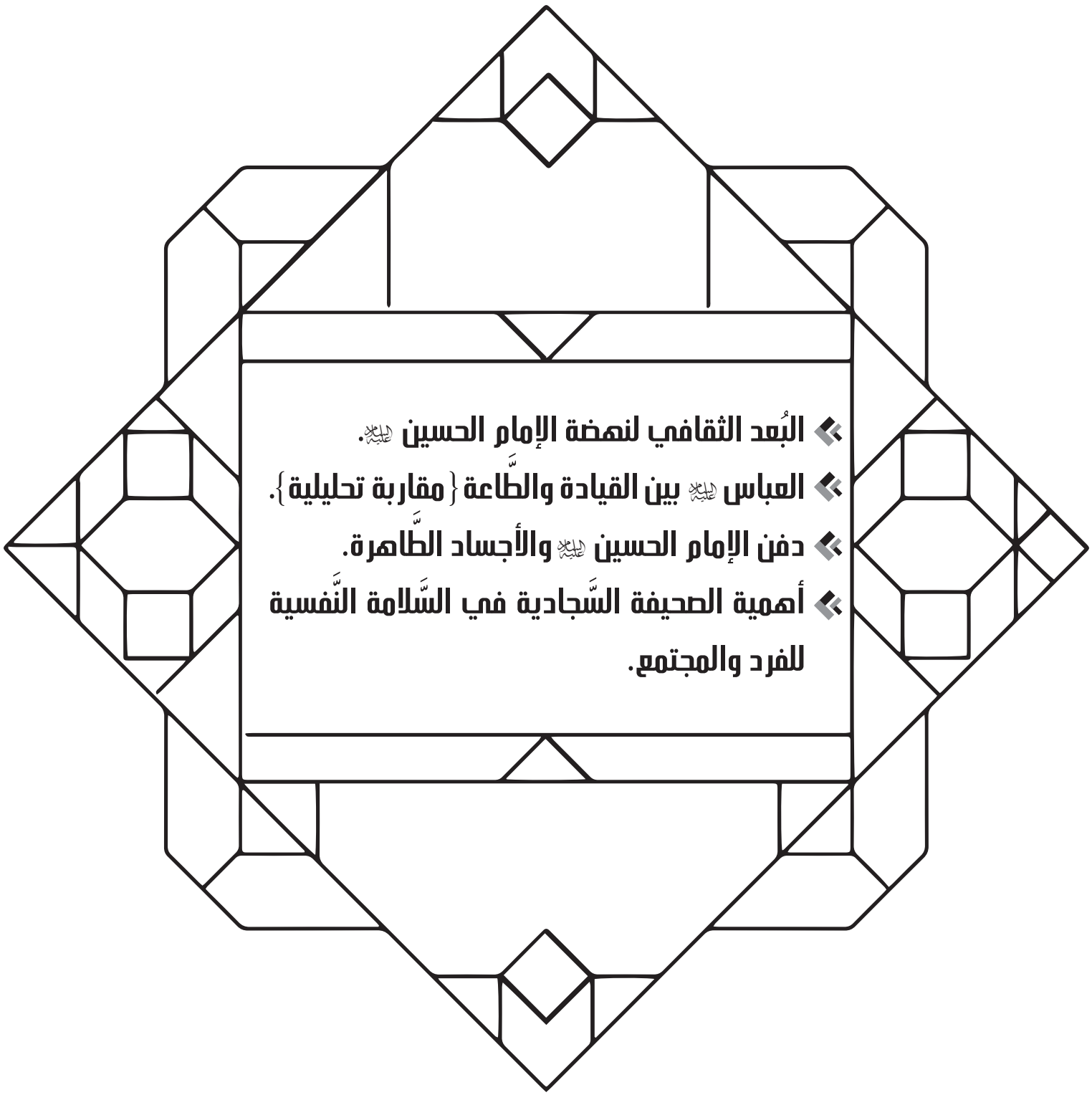
البُعد الثقافي لنهضة الإمام الحسين عليه السلام.
العباس عليه السلام بين القيادة والطَّاعة {مقاربة تحليلية}.
دفن الإمام الحسين عليه السلام والأجساد الطَّاهرة.
أهمية الصحيفة السَّجادية في السَّلامة النَّفسية للفرد والمجتمع.

البُعد الثقافي
لنهضة الإمام الحسين عليه السلام

السيد إبراهيم الموسوي

كان الإمام الحسين عليه السلام طيلة حياته يسعى لنشر العلوم والثقافة الإسلامية، ويبث مفاهيم الإسلام عن الحياة والمجتمع والأسرة والنظام العام من خلال لقائه بالناس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله، وكان الناس يجتمعون حوله في حلقات، ويستمعون إليه، ويأخذون عنه العلم في الدين والدنيا، ويسألونه فيما أشكل عليهم من أمور الحياة.

وكما قام رسول الله صلى الله عليه وآله بنشر مفاهيم الإسلام في العلاقات الاجتماعية وفي نشر روح التعاون والإخاء والمحبَّة والعفو التسامح، ونبذ العصبيّة القبلية، والأحقاد الجاهلية، ونشر السلام على الأرض، كذلك كان سبطه الحسين عليه السلام.

وقف الإمام الحسين عليه السلام بعلمه وأدبه أمام ثقافة بني أميّة التي تدعو الناس للعودة إلى الحياة الجاهلية، بما في ذلك إحياء العصبية القبلية وإثارة النعرات الطائفية والتفرقة بين العرب والموالي وبين الأنصار والمهاجرين وبين ربيعة ومُضَر وبين أهل الشام وأهل العراق، وبين مصر والحجاز، وبين بني أمية وسائر العرب.

حاول معاوية إعادة القيم الجاهلية إلى المجتمع الإسلامي، ولكن بطريقة غير مباشرة؛ من خلال تزوير أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وتفسير القرآن الكريم بما يتّفق مع ميوله ورغباته في التَّعتيم الإعلامي على الفكر الإسلامي الأصيل.

بذل معاوية جهودًا كبيرة في تضليل الرأي العام، وفي غزو الأفكار والعقول، وفي نشر التلوّث الثقافي الذي يُعد أخطر أنواع التّلوّث.

مصطلح الغزو الفكري لم يكن معروفًا ومُتداولاً في الأدبيات الاجتماعية قبل القرن الرابع عشر الهجري، ولكن ذلك لا يعني أنَّ الغزو الفكري بمعناه وأهدافه وموضوعه لم يكن موجودًا، فمنذ الأزمان السَّالفة للأمم والشعوب نجد أنَّ مفهوم الغزو الفكري كان موجودًا في القديم والحديث.

وكلمة: «الغزو» في اللغة العربية تُعطي معنى: القصد والطلب، والسير إلى قتال الأعداء، في ديارهم، وانتهائهم

وقهرهم، والتغلّب عليهم.

ومُصطلح الغزو الفكري، قُصد به: إغارة الأعداء على أمّة من الأمم، بأسلحة غير مادّيّة، وأساليب مختلفة؛ لتدمير قُواها النفسية وعزائمها ومقوّماتها الرّوحيّة وانتهاب كلّ ما تملك.

والفرق بين «الغزو الفكري» و«الغزو العسكري» أنَّ الغزو العسكري يأتي للقهر وتحقيق أهداف الأعداء دون رغبة الشعوب المقهورة، أمَّا الغزو الفكري فهو لتصفية العقول والإفهام؛ لتكون تابعة للغازي، ومستسلمة لإرادته.

إنَّ الغزو الفكري أشدّ وأفنى من الغزو العسكري؛ لأنَّ الثاني يجد مقاومة من الأمة ويُواجَه بالجهاد والتضحية والفداء دفاعًا عن الوطن أو الأرض أو المبدأ، وطلبًا للاستقلال والحرّيّة والعزّة والكرامة.

الأمة إذا هُزمت فكريًّا ينتشر فيها مرض الاستسلام للعدو، ومرض فقدان الإرادة وترضخ طواعية للغزاة، ولا تحاول أو تُفكّر بتغيير الوضع باليد أو اللسان أو القلب «وهو أضعف الإيمان».

مرض فقدان الإرادة الذي أصاب المجتمع الإسلامي زمن أبي عبد الله الحسين عليه السلام لم يكن أزمةً طارئة أو نزلة برد وتعالج بالمُسكِّنات والمُهدِّئات. بل كان نتيجة عشرات السنين من الغزو الفكري الذي وضع أساسه بنو أمية وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان الذي وضع قيودًا كثيرة على طلب العلم والمعرفة والثقافة الإسلامية وأعلن عسكرة العلم. فالثقافة خاضعة لجهاز المُخابرات الأموي الذي وَضع شبكاته في أهم الحواضر الإسلامية الكوفة والبصرة ومكّة والمدينة.

فالعلم المسموح بنشره وبثّه يتعلّق بفضائل معاوية وبني أمية حتى إذا كان وهمًا وخَطأً وضَلالاً. أما العلم الذي ينبع من الإيمان بالله-تعالى- والرسول صلى الله عليه وآله، ويدعو إلى العدل والمساواة فعليه ألف رقيب.

العلم الذي ينبع من القرآن ومن السُّنّة عليه رقابة صارمة، ومن يُغامر فيذكُر شيئاً منه فيجب أن يدفع الثَّمن إمَّا قطع راتبه، وشطب اسمه من الدِّيوان أو إرهاقه بالسَّجن والضَّرب، أو الحكم عليه بالإعدام.

كان الحديث بالعلم والخير والفضل عن آل علي يُعد جريمةً لا تُغتفر في عهد معاوية وابنه يزيد -لعنهما الله-، وكان بالكوفة أقوى جهاز للتجسّس ذهب ضحيَّته كثير من الأبرياء، وازداد جهاز التجسّس قوّة وبطشًا بالناس بعد رحيل الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام. الذي اشترط على معاوية عدم ملاحقة شيعة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وعدم مطاردتهم.

وقد ابتكر المهرّجون كثيرًا من الأحاديث المزيَّفة؛ لتضليل الرَّأي العام وتشويه الفكر الإسلامي الأصيل، ونسبوها إلى النبي صلى الله عليه وآله متناسين حديثه الشريف الذي يقول فيه: « **فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ**

النَّار»[1]. ومن الأحاديث المكذوبة إنَّ النبي ﷺ ناول معاوية سهماً ثمَّ قال له: «خُذ هذا حتى تلقاني في الجنَّة».!

هذه صورة مصغّرة من الغزو الفكري والتَّضليل الإعلامي الذي تبنَّاه معاوية من أجل التشويش على الفكر الإسلامي، وقلب مفاهيم الإسلام عن الجهاد والفداء والتَّضحية والأمر بالمعروف. وهناك صور أُخر تؤكِّد الحرب المفاهيمية التي شنَّها مُعاوية على الأمّة الإسلامية، وعلى شباب المجتمع الإسلامي من الفتيان والفتيات، ومن الرجال والنساء لكافَّة الأعمار، ولم يكتفِ بذلك لمدّة زمنية مُعيَّنة إنَّما استمر على ذلك في تلويث الفكر حتى يشب عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير.

إنَّ التَّلاعب بالكتاب والسُنَّة وإن كان مُوجَّهاً إلى الإمام علي بن أبي طالب ﷺ في ظاهر الأمر، ولكنه في الحقيقة موَجَّه إلى عقل الأمة الإسلامية وفكرها وعقيدتها، مُوجَّه إلى كيان المجتمع الإسلامي لهدم أسسهِ وقواعده. ولخلق جيل جديد مُشبع بالثقافة الجاهلية التي تُقدس القوة والمادة، ولتحويل الأمة الإسلامية من «خير أمّة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر». إلى أمّة مستسلمة للحاكم الأموي، أمّة فاقدة لإرادتها، وليعشعش الجهل في الأذهان، وينتشر المرض الاجتماعي، وينخر التلوث في الفكر، ويصبح الإنسان لا هَمَّ له إلَّا تحصيل لقمة العيش، وشاعت عبارة: «مالنا والدخول في السلاطين». وانتشر مرض فقدان الإرادة.

كان الإمام الحسين ﷺ يهدف من وراء نهضته مقاومة الانحراف الفكري والحرب النَّفسيّة، والكفاح ضدّ الجهل، وهو ما جاء في الزيارة التي نقرأها بمناسبة ذكرى أبي عبدالله الحسين ﷺ. تلك الزيارة التي تُعلّمنا وتؤكِّد لنا، بأنَّ الهدف من تلك النهضة وذلك الكفاح إنَّما كان في الواقع للقضاء على الجهل، والانحراف الفكري والتّلوّث الثقافي، وقد جاء في زيارة الأربعين: «**وبذل مهجته فيكَ ليستنقذ عبادك من الجهالة، وحيرة الضلالة**»[2].

وهنا نقطة مهمّة أودّ الإشارة إليها وهي أنَّ المقصود من الجهل ليس عدم معرفة الناس بالقراءة أو الكتابة أو أنَّ الناس كانوا أُميين، مما جعلهم لا يُميّزون بين الحق والباطل، وبين الخطأ والصّواب، وبين العدل والظّلم، وأنّهم لو كانوا أهل درس وأهل قراءة وتحصيل لم تؤثِّر فيهم دعايات الأمويين وأكاذيبهم. فالجهل في المصطلح الدّيني، إنَّما يستخدم مقابل العقل والوعي والإدراك. والمقصود به رؤية الحقيقة كما هي؛ وقد جاء في الدعاء: «**اللهم أرني الحق حقًّا فأتَّبعَهُ، والباطِلَ باطلاً فأجتَنبهُ، ولا تَجعلهُ عليَّ مُتشابهًا، فأتّبعَ هَوايَ، بغير هُدىً**

(١) كتاب سليم بن قيس الهلالي المؤلف: الهلالي، سليم بن قيس ٧٦ هـ الناشر: الهادي مكان الطبع: إيران؛ قم تاريخ الطبع: ١٤٠٥ هـ الطبعة: الأولى/ ج٢/ ٦٢٠.

(٢) بحار الأنوار / ج ٩٨ / ص ١٧٧.

منك»[1].

إنَّ قضية تزوير الحقيقة وإخفائها عند بني أمية ليست ادّعاءً وكلامًا في كلام من أجل الانتقاص من الأمويين بل هناك صور وشواهد وأدلّة كثيرة جدًّا تدل على إخفاء الحقائق عند بني أميّة وكتمان العلم ونشر الجهل وتوجيه عقول الشباب بل عقول الأطفال وهم في الكتاتيب إلى ما يريده الأمويون من الحرب النفسية والثقافة الأمويّة؛ ليظهر الحاكم على أنَّه على الحقّ وما سواه باطل يجب مقاومته، وقد استعانوا بكلِّ وسيلة لذلك؛ بالرّواية والقصّة والشّعر والنثر، وأغدقوا الأموال على كلِّ شاعر يمجّد الحكم الأموي، واستعانوا بالرّواة والمحدّثين، ومن له باع في القصّة والرّواية والأدب من أجل التّأثير على الناس في عصرهم وفي العصور التّالية، وقد تأثّر كثير بالإعلام الأموي من ذلك العهد إلى اليوم.

نهضة الإمام الحسين عليه السلام كانت قد شخّصت نوع الغفلة العامَّة للناس، كما عملت على إيقاظهم، ولقد كانت نهضة سيد الشهداء عليه السلام حدثًا خارقًا للعادة اقترن مع نظرة عميقة وواعية لمستقبل الأمّة، وإدراك قويّ ومتينٍ، وبصيرة مستنيرة بنورٍ بعيد، من قبل القيادة التي كانت في الحقيقة ترى وتعلم ما يعلمه ويراه الآخرون وهي كانت نظرة سبّاقة ونُبُوءة ثوريّة، وليس حركة سابقة لأوانها بل جرس إنذار لما هو قادم من أخطار التّسلّط الأموي، والنّقطة الجديرة بالملاحظة هنا هي أنَّ الأمويين كانوا يُخفون وراء الستار برنامجهم السلطوي البغيض وزيفهم الإعلامي وحربهم الثقافيّة، فجاء الحسين عليه السلام فكشف عنهم الغطاء ورفع الستار عما كانوا يُعدُّون له من مشروع للقضاء على الوعي الإسلامي في الأمة وجرّها إلى هاوية العُقم الفكري والفساد الأخلاقي، فالإمام الحسين عليه السلام وبثورته وكلماته وحبر دمه أظهر فساد مشروع الأمويين ونقل برنامجهم من الباطن إلى الظاهر، وأخرج الأمّة من الظّلام إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن زيف الإعلام الأموي إلى حقائق الفكر الإسلامي.

ومن مظاهر الزيف الفكري عند بني أمية عدّ صحابة الرسول صلى الله عليه وآله ممن لم يساندوهم ويؤيّدوهم أنَّهم خوارج ولا وزن لهم. مثل عبد الله بن مسعود، وأبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، ومالك الأشتر وغيرهم.

العلم عند الإمام الحسين عليه السلام يتمثَّل في بثّ الوعي الإنساني وتحقيق كرامة الإنسان من مُنطلق إلهي مع ما جاء في كتاب الله العزيز الذي عدَّ العلم قرين الإيمان والتقوى، وإنَّ مقياس الكرامة عند الله -تعالى- هو

---

(١) بحار الأنوار / ج ٩٩ / ص ٢٢.

التقوى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)[1].

كانت كلمات الإمام الحسين عليه السلام في خطبه منذ أن بدأ نهضته إلى شهادته ردًّا على سياسة تزييف الوعي الذي أدمنته النظم الأموية القديمة والمعاصرة. ذلك الوعي القائم على قلب الحقائق ومخاطبة الجماهير بشعارات مُبهمة، تتحدّث عن الخضوع والاستسلام للحاكم من أجل التغطية والتعمية على ظلمها واستبدادها بالسلطة، وإمعانها في انتهاك كرامة الإنسان عماد قوّتها ومنبع وجودها وفشلها في تلبية احتياجات الأمة الاستراتيجية والأساسية التي جاءت نتيجة تراكُمات الماضي القريب والبعيد، وعجز الأمة عن التّحرّك نحو الإصلاح، حيث كان النظام الأموي أنموذجاً واضحاً لكلِّ هذه التناقضات الاجتماعية.

دأبت الحكومة الأموية على تلويث الفكر، وتشويش الأذهان في المجتمع الإسلامي وغزو العقول والأفكار منذ الطفولة إلى سائر مراحل العمر لأبناء الأمّة الإسلامية، وهذا أخطر من الغزو العسكري الذي قام به معاوية لغزو اليمن والعراق والحجاز بقيادة بسر بن أرطأة وغيره من قادة الجيش الذين سفكوا الدماء، وقتلوا الأبرياء، وداسوا عفاف المحصنات.

لكن الأسوأ من ذلك هو تلاعب الحكومة الأموية بالثقافة الإسلامية الأصيلة، وإفراغها من محتواها وجعلها مُنسجمة مع أهدافها السياسية. في ذلك العصر كانت جميع شؤون الحكومة والحكّام مرتبطة بثقافة الإسلام، وأدركَ بنو أمية جيّدًا أنَّ تثبيت سلطانهم يستدعي استخدام أدوات الثقافة الإسلامية التي تعتمد عليها شؤون التربية والتعليم والنظام والأعراف والتقاليد الاجتماعية بين المسلمين. ومن هنا عمل بنو أميّة على وضع الأحاديث والرّوايات الكثيرة على لسان بعض الصحابة أمثال (أبي هريرة الدوسي) خاصة ضدّ الإمام علي ومدرسته الثقافية وتيّاره العلمي. وأسندوا الأحاديث المزوّرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وعملوا على نشرها في جميع الأوساط إلى أن أخرجوا كثيرًا من المسلمين عن الإسلام الحقيقي، وبالتالي أبعدوهم عن الإمام علي وأهل بيته -صلوات الله عليهم-.

وهذه الحقيقة يصعب تصوّرها وإدراكها في هذا اليوم لاختلاف ظروف الزّمان والمكان.

الجهاز الحاكم عمل على تحريف المعارف الإسلامية والصورة الحقيقية لرجال المسلمين وأبطالهم من خلال الأحاديث الموضوعة. فعلى سبيل المثال قدّمت شخصية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام على أنّه عدو لرسول الله صلى الله عليه وآله، تارك للصلاة، مثير الفتن وغير ذلك ما يصعب تصوّره وتصريفه.

---

(١) سورة الحجرات/ الاية: ١٣.

وليس من المبالغة أن يُقال: إنَّه قد تمّ تثبيت حكومة معاوية وبشكلٍ عام سلطة الأمويين في ظلِّ كمٍّ هائلٍ من الأحاديث الموضوعة التي انتشرت في جميع المدن والحواضر الإسلامية حتَّى القرى والأرياف، وحتّى عادت القيم الجاهلية إلى الحياة تحت غطاءٍ إسلاميٍّ أمويّ وفي ظلّ حماية قوانين ما أنزل الله بها من سلطان. وباستعمال القوّة والجبروت أو بإعطاءِ المال لشراء الضّمائر والذّمم. حتى كان من الصّعب إظهار الحب لأهل البيت عليهم السلام. ويقال للرجل إنَّه مشرك أو ذمّيّ أو معاهد ولا يقال إنَّه مؤمن موالٍ للرسول وأهل بيته الأطهار عليهم السلام إذ يُتّهم بالرّفض ويعاب عليه حبّه لعلي وولديه الحسن والحسين الذين هم أهل بيت رسول الله -صلوات الله عليهم-.

قوّة الفكر

إنَّ قوّة السّلاح قد تكون كبيرة مدمّرة، قادرة على فرض لغتها وهيمنتها، لكن لغة الثقافة هي الأقوى؛ لأنَّها تحفظ النّوع البشري من الفناء، ولأنَّها تصوغ وجدان الأمَّة وتُبقي الأمم حيَّة نابضة تتحدّى جبروت السّلاح، فقد تنتصر قوَّة السلاح مدَّة من الزّمن وتُفرض ثقافة القوة والجبروت على المجتمع لكن في النّهاية تنهار قوّة السّلاح أمام صرح الثقافة وسلاح العلم.

بنو أمية حاربوا العلم الإسلامي المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة، واستخدموا قوَّة السلاح من أجل فرض ثقافتهم وأفكارهم ومبادِئهم، لذلك لجأوا إلى تحريم العلم واضطهاد العقلاء والصحابة الذين تعلَّموا في مدرسة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ومدرسة أخيه وابن عمّه علي بن أبي طالب عليه السلام. وعدّوا من لم يوافقهم خارجًا عن القانون. وباسم الإسلام شوَّهوا سُمعة أهل التقوى والعلم والإيمان أمثال عمار بن ياسر، ومالك الأشتر، وأبي ذر الغفاري، وعبد الله بن مسعود، ومحمد بن أبي بكر، وعمرو بن الحمق الخزاعي وغيرهم. وقد تعرّض هؤلاء للضرب والتَّشريد والقتل. كلُّ ذلك تحت غطاء الدين والعلم. طبعًا العلم الذي يوافق مزاجهم وأدمغتهم ومصالحهم الدنيوية. والثقافة التي تروق لهم وظنَّوا أنَّهم يستطيعون أن يُطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلَّا أن يتمَّ نوره ولو كره الكافرون.

لقد ثار الإمام الحسين عليه السلام للقضاء على هذا الفكر المنحرف ونشر الفكر الإسلامي الصحيح الذي لا يلتبس فيه الحق والباطل. الفكر الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وآله.

ثقافة الإمام الحسين عليه السلام هي ثقافة الإسلام المحمّدي الأصيل. وعلم الحسين عليه السلام هو علم رسول الله صلى الله عليه وآله أخذه عن جبرائيل عن الله -تعالى-، وأنَّ الحسين عليه السلام حيٌّ في الصدور. حي في القلوب، وسيبقى حيًّا ما دامت الحياة.

الحب بين الثقافة الإسلامية والثقافة الأموية

الإسلام دين المحبة، ويدعو إلى الحب والتعاون، ونَبذ العداء والبغضاء بين أبناء الأمّة الواحدة، وأوَّل شيء حب الله وحب رسوله وأهل بيته عليهم السلام. وحُب الإنسانية جمعاء.

وهناك كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ التي تؤكِّد أنَّ من علامات المؤمن حبّ الله- تعالى- ورسوله ﷺ، ومن الوفاء لرسول الله ومن التكريم له مودّة أهل بيته عليهم السلام ومحبّتهم.

وانتشر الإسلام بما كان يبث من روح المحبّة والمودّة والتعاون لا بالقوَّة والسيف والظلم لعباد الله، وغصب حقوقهم وأموالهم وفرض الضّرائب عليهم.

إنَّ إمارة بني أمية كانت بالسيف، والتعسف والجور، وإنَّ إمامَتَنا بالرفق، والتآلف، والوقار والنقية، وحسن الاجتماع، والورع، والاجتهاد. فإذا كانت دعوتهم قائمة على الرفق والحب، وحسن المعاشرة، والمداراة فلابُدَّ أن يكون الحب أكبر غرض في دعوتهم وأكبر مقصد.

الثقافة الإسلامية تؤكِّد على حبِّ أهل بيت الرّسول ﷺ، وإظهار الفرح والسرور بفرحهم وسرورهم، وإظهار الحزن لما يسوؤهم.

أمّا الثقافة الأموية فإنَّها على العكس تظهر الشماتة والفرح إذا أصاب الرسول ﷺ رزية في عترته وذرّيّته، ويحتفلون ويفرحون إذا أصاب أهل البيت مصيبة، ويحزنون إذا انتصر الرسول ﷺ في مواقفه وإذا فرح في أهل بيته عليهم السلام. هذه هي الثقافة الأمويّة وهذا هو معاوية.

لولا ثورة الإمام الحسين عليه السلام لما بقيت شعائر الإسلام، ولم يبقَ ذكر الرسول ﷺ، ولولا جهاد الإمام الحسين عليه السلام لكان الإسلام في خبر كان، ولم يذكر رسول الله في الصلاة خمس مرّات.

الإمام الحسين عليه السلام فضح فقهاء الشيطان الذين لبسوا عباءة الإسلام، وجلسوا على موائد معاوية وامتلأت بطونهم من الحرام، فأصبحوا يرون الحق باطلاً والباطل حقًّا.

الإمام الحسين عليه السلام مَلَكَ القلوب والمشاعر والأحاسيس لا بالجيوش والعساكر والسلاح، بل ملك القلوب بالكلمة الطّيّبة، والثقافة الحيّة، والعلم الصحيح، وبالقول الحَسَن، والخطاب البليغ، والجاذبية الشخصية، والأخلاق الحسنة.

كانت قوى الطّواغيت تحارب العلم، وتمنع ذكر الحقيقة، ولكن بعد ثورة الإمام الحسين عليه السلام بدأت أصوات الاستنكار ترتفع وينادي الناس بالاحتجاج ضدّ الحكم الأموي الذي انتهكَ الحرمات، وأباح المحرّمات، واستعبد الأحرار، وسرق أقوات الشّعب وصادر الحرّيّات وفَرَضَ الأحكام العُرفيّة وسجن الأبرياء وقتل الأولياء.

بدأت الأمصار الإسلامية تحتج على الحكم الأموي بدءًا من الكوفة والبصرة والمدينة المنوّرة ومكّة المعظّمة حتى بدأ الناس يلعنون يزيد ومعاوية وآل أبي سفيان وآل زياد وآل مروان.

قيل لمعاوية: إنّ الناس قد رموا أبصارهم إلى الحسين عليه السلام. فلو قد أمرته أن يرقى المنبر ويخطب، فإنَّ فيه

حصرًا أو في لسانه كلالة.

فقال لهم معاوية: قد ظنَّنا ذلك بالحسن، فلم يزل يتحدّث حتَّى عظم في أعيُن الناس وفضحنا.

فلم يزالوا به ـ أي يلحُّون عليه ـ حتى قال للحسين: يا أبا عبد الله لو صعدتَ المنبر فخطبت. فصعد الإمام الحسين عليه السلام المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله فسمع رجلاً يقول: من هذا الذي يخطب؟

فقال الحسين عليه السلام: « نحن حزب الله الغالبون وعترة رسول الله صلى الله عليه وآله الأقربون وأهل بيته الطّيّبون وأحد الثقلين اللذين جعلنا رسول الله صلى الله عليه وآله ثاني كتاب الله تبارك وتعالى الذي فيه تفصيل كلّ شيء **(لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)** والمعول علينا في تفسيره لا يبطئنا تأويله بل نتّبع حقائقه فأطيعونا فإنَّ طاعتنا مفروضة ـ إذ كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة قال الله عز وجل **(أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ (وقال) وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلاَّ قَلِيلاً)** .

وأحذركم الإصغاء إلى هتوف الشيطان بكم فإِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ فتكونوا كأوليائه الذين قال لهم (لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ) فتلقون للسيوف ضربًا وللرماح وردًا وللعمد حطمًا وللسهام غرضًا ثم لا يقبل من نفس **(إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً)**.

قال معاوية: حسبكَ يا أبا عبد الله. قد بلَّغت.[1]

الجدال بالتي هي أحسن:

بينما ابن عبّاس يحدّث الناس، إذ قام إليه نافع بن الأزرق، فقال: يا ابن عباس! تفتي في النملة والقملة؟! صِفْ لنا إلهك الّذي تعبُده. فأطرق ابن عباس إعظامًا لله (عزّ وجل)، وكان الحسين بن علي عليهما السلام جالساً ناحية، فقال عليه السلام: «إلَيَّ يا ابن الأزرق»، فقال: لستُ إيّاك أسأل. فقال ابن العباس: يا ابن الأزرق، إنَّه من أهل بيت النّبوّة، وهم وَرَثة العلم. فأقبل نافع بن الأزرق نحو الحسين عليه السلام، فقال له الحسين عليه السلام: «يا نافع، إنَّ مَن وضع دِينَه على القياسِ لم يزَلِ الدَّهرَ في الارتماس، مائلاً عن المِنهاج، ظاعنًا في الاعوِجاج، ضالًّا عن السبيل، قائلاً غير الجميل. يا ابن الأزرق، أصفُ إلهي بما وصَفَ به نفسَه، وأُعرّفُه بما عرَّفَ به نفسَه؛ لا يُدرَكُ بالحواسِّ ولا يُقاسُ بالنّاس، فهو قريبٌ غيرُ مُلْتَصِق، وبعيدٌ غيرُ مُنتَقِص، يُوَحَّدُ ولا يُبَعّض، معروفٌ بالآياتِ، موصوفٌ بالعلامات، لا إله إلّا هو الكبيرُ المُتعال».

---

(١) الاحتجاج، ص٢٩٨ و٢٩٩؛ المناقب ٤: ٦٧..

وفي روايةٍ: فبكى ابن الأزرق وقال: يا حسين، ما أحسن كلامك! قال له الحسين ﷺ: «بلَغَني أنّك تشهدُ على أبي وعلى أخي بالكفر وعليّ!». قال ابن الأزرق: أما والله يا حسين، لئن كان ذلك، لقد كنتم منارَ الإسلام ونجومَ الأحكام. فقال له الحسين ﷺ: «إنّي سائلُك عن مسألةٍ». قال: اسأل. فسأله عن هذه الآية: **(وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ)**[1]، «يا ابن الأزرق، مَن حُفِظ في الغلامين؟». قال ابن الأزرق: أبوهما. قال الحسين ﷺ: «فأبوهما خيرٌ أم رسولُ الله (صلّى الله عليه [وآله] وسلّم)؟». قال ابن الأزرق: قد أنبأنا الله تعالى أنّكم قومٌ خصمون».[2]

في هذا الموقف نجد عند الإمام الحسين ﷺ العلم والحلم. وتجسّد في بذل العلم حتى لمن يخالفه في وجهة نظره واعتقاده، وحلمه عن إساءة الرجل حين قال: لستُ إيّاكَ أسأل. ونجد العلم مع حسن البيان، والبلاغة حيث انبهر بها الرجل وقال: «ما أحسن كلامك».

كان الإمام الحسين ﷺ يعالج المشاكل العقائدية والأخلاقية والنفسية بأسلوبه وأدبه وغزارة علمه. وكان يُجيب عن كلِّ سؤال يوجّه إليه وهو يحدّث الناس في مسجد رسول الله ﷺ إذا يجتمع إليه الناس ويلتقون حوله على شكل حلقات وهو يحنو عليهم ويتلطّف بهم ويلقي عليهم ما هم بحاجة إليه من مسائل العلم والفقه.

عندما نقرأ سيرة الإمام الحسين ﷺ ونستمع إلى كلماته وشعاراته نجد أنَّ الهدف الذي كان يصبو إليه ويسعى إلى بلوغه هو الإصلاح في أمّة جدّه، والإصلاح كلمة تحمل أكثر من معنى، فالمجتمع الذي يعاني من نقص أو انحراف في أحد جوانبه فالإصلاح هو سدّ ذلك النقص ومعالجة ذلك الانحراف.

كانت كلمات الإمام الحسين ﷺ تحمل الإصلاح لكلِّ أبعاد الحياة تشمل الإصلاح الفكري للردّ على الاستلاب الثقافي الذي فرضه الأمويون على الأمة الإسلامية بما نشروا وأذاعوا من أحاديث كاذبة مزوَّرة ومن تشجيع للحركات الفكرية المنحرفة كالقدرية والمرجئة، ومن تأويل آيات الكتاب العزيز بما يلائم أهدافهم السياسية. وتسلّطهم على مقدّرات الأمة.

وكانت كلمات الإمام الحسين ﷺ تحمل الإصلاح السياسي في مواجهة الانحراف السياسي المرتبط بشؤون الحكم والخلافة والإدارة والقضاء والسلم والحرب وغير ذلك.

كانت شعارات الإمام الحسين ﷺ تحمل الإصلاح الاجتماعي في مواجهة الانحراف الذي أصبح طابع

---

(١) سورة الكهف: ٧٢.

(٢) تاريخ ابن عساكر، ترجمة الإمام الحسين ﷺ: ص١٥٧.

الحياة الاجتماعية في العصر الأموي بما أشاعوا من التفرقة العنصرية وإثارة العصبيات القبلية وغيرها.

الإمام الحسين ﷺ لم ينتصر عسكريًّا في ساحة الصراع، ولكنه انتصر بدمه على الفكر المنحرف الذي شوَّه الثقافة الإسلامية.

الإمام الحسين ﷺ أعلن للعالم أجمع أنَّ الأمويين لا يحملون الثقافة الإسلامية ولا الفكر الإسلامي، وأنّهم لا يستحقون البيعة، ولا يمثّلون الإسلام.

العباس عليه السلام بين القيادة والطَّاعة
«مقاربة تحليلية»

أ.م.د. هناء كاظم خليفة أ.م.د. رحيم مزهر جبر العتابي

بسم الله الرحمن الرحيم، نحمد الله على جميع آلائه، ونسأله الصلاة على محمد وآله، واللعنة على أعدائه، وبعد فإنَّه لا يخفى على كثير ممن اطّلع على عطاء العباس عليه السلام بأنَّه نبع فيَّاض لا تحدّه حدود، وما كان لقيادته الرشيدة ودوره الفذ في تعبئة الطاقات طيلة حياته، وبالتحديد في ساعة العسرة، وما قام به من توفير أسباب إزالة العجز والإحباط، وتأجيج روح الحماس، من أجل استقامة الاعوجاج الذي صدع بالمجتمع.

وصدق من قال في العبّاس عليه السلام:

أحق النّاس أن يبكي عليه فَتىً أبكى الحسين بكربلاء
أخـــوه وابن والده عليّ أبو الفضل المضرّج بالدّماء
ومـن واساه لا يثنيه شيء وجادله على عطش بمـاء[1]

فالعبّاس عليه السلام مظهر العشق والإيثار، ومثال الرجولة والصفاء والوقار، ورمز الشجاعة والشهامة والكرامة، وكانت له بين أبطال كربلاء وشهداء التاريخ منزلة رفيعة، ومكانة سامقة، حتى قال سيّد الساجدين زين العابدين عليه السلام في حقّه: « **إنّ للعبّاس عند الله تبارك وتعالى لمنزلة يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة** ».[2] وإنَّ أبا الفضل العباس عليه السلام وفداءه في سبيل أخيه الحسين عليه السلام وما تحمّل من المصائب في سبيل الدين وخدمة مذهب التشيع أمر معروف بين عامة المسلمين فضلًا عن المؤمنين .[3]

دوافع إرسال الحسين في العباس عليه السلام لتأجيل القتال:

لقد أفصح الإمام الحسين عليه السلام بتأجيل القتال حين قال لأخيه العباس عليه السلام عصر تاسوعاء: **فإن استطعت**

(١) السيد ابن طاووس: علي بن موسى بن جعفر بن محمد (ت، ٦٤٤هـ)، مقتل الحسين عليه السلام المسمى اللهوف في قتلى الطفوف، (قم المقدسة- ١٤١٧)، ص ٦٩ – ٧٠.

(٢) الشيخ الصدوق: محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي(ت، ٣٨١ هـ)، الخصال، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، (قم المقدسة- ١٤٠٣)، ص٦٨؛ الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة، (قم المقدسة- ١٤١٧)، ص٥٤٨؛ الريشهري: محمد، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ، تحقيق: مركز بحوث دار الحديث وبمساعدة: السيد محمد كاظم الطباطبائي، السيد محمود الطباطبائي نزاد، ط٢، (قم المقدسة-١٤٢٥)، ج ١، ص ١٣١.

(٣) السيد الخوئي: السيد أبو القاسم الموسوي، صراط النجاة، تعليق: الميرزا التبريزي، (قم المقدسة -١٤١٦)، ج ٥، ص ٣١٩.

أن تؤخّرهم إلى غدوة، وتدفعهم عند العشية، لعلّنا نصلّي لربّنا الليلة وندعوه ونستغفر له، فهو يعلم أنّي قد كنت أحب الصلاة له، وتلاوة كتابه وكثرة الدّعاء والاستغفار.[1]

وكان ذلك عندما قال له العباس بن علي ﷺ: يا أخي أتاك القوم، فنهض ثمَّ قال: اركب أنت يا أخي حتى تلقاهم وتقول لهم: مالكم؟ وما بدا لكم؟ وتسألهم عمّا جاء بهم، فأتاهم العباس في نحو من عشرين فارسًا فيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر.

فقال لهم العباس: ما بدا لكم وما تريدون؟ قالوا: قد جاء أمر الأمير أن يعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو نناجزكم.

قال: فلا تعجلوا حتَّى أرجع إلى أبي عبد الله فأعرض عليه ما ذكرتم، فوقفوا فقالوا: ألقه وأعلمه، ثمَّ القنا بما يقول لك.

فانصرف العباس ﷺ راجعًا يركض إلى الإمام الحسين ﷺ يخبره الخبر، ووقف أصحابه يخاطبون القوم، ويعظونهم ويكفونهم عن قتال الإمام الحسين ﷺ.

فجاء العباس إلى الإمام الحسين ﷺ وأخبره بما قال القوم، فقال: ارجع إليهم فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى غدٍ، وتدفعهم عنَّا العشيّة لعلَّنا نصلّي لربِّنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أنِّي كنت قد أحبّ الصّلاة له، وتلاوة كتابه، وكثرة الدّعاء والاستغفار.

فسألهم العباس ذلك فتوقّف عمر بن سعد « لعنه الله» فقال عمرو بن الحجاج الزبيدي: والله لو إنَّهم من الترك والديلم وسألونا مثل ذلك لأجبناهم فكيف وهم من آل محمد ﷺ فأجابوهم إلى ذلك . ورجع العباس –سلام الله عليه– من عندهم، ومعه رسول من قبل عمر بن سعد يقول: "إنَّا قد أجّلناكم إلى غد، فان استسلمتم سرحنا بكم إلى عبيد الله بن زياد وإن أبيتم فلسنا بتاركيكم، فانصرف".[2]

تفصح الرّواية عن عدد من الأمور المهمّة من بينها:

١– يبدو أنَّ العباس ﷺ كان يحيط بكلّ التفاصيل وبمراقبة حذرة فما أن شاهد القوم حتى نبّه الإمام الحسين ﷺ بذلك، فما كان منه إلّا أن ينتخبه لملاقاة القوم ومعرفة ما يريدونه.

٢– تولى الإمام العباس –سلام الله عليه– مهمّة إدارة الموقف الدبلوماسي دون الانفراد برأيه بل لم يقطع أمرًا دون أخيه الحسين ﷺ. والملفت إنَّه عند مبادرته بالسؤال عمّا يريدون ومعرفة جوابهم أكَّد –سلام الله

---

(١) الحسن: الشيخ عبد الله، ليلة عاشوراء في الحديث والأدب، (مطبعة بهمن – ١٤١٨)، ص ١٣٣.

(٢) الشيخ المفيد: محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي(ت، ٤١٣هـ)، الارشاد، تحقيق: مؤسسة آل البيت ﷺ لتحقيق التراث، ط٢، (بيروت– ١٩٩٣)، ج٢، ص٩٠؛ السيد ابن طاووس، اللهوف في قتلى الطفوف، ص ٥٤ – ٥٥؛ العلامة المجلسي: محمد باقر(ت، ١١١١هـ)، بحار الانوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ط٢، (بيروت– ١٩٨٣)، ج ٤٤، ص ٣٩١ – ٣٩٣؛ أيوب: سعيد، معالم الفتن، (قم المقدسة– ١٤١٦)، ج ٢، ص ٢٨٢ – ٢٨٣.

عليه- أنَّ القيادة والأمر لشخصٍ واحدٍ ألا وهو الإمام الحسين-سلام الله عليه- لذا قال: "فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله فأعرض عليه ما ذكرتم" بالرغم من كونه يعرف كيف يعالج هذا الموقف إلّا أنَّه أراد تعزيز صورة إدارة المواقف والبت في الأمور إنَّما ترجع للقائد الأعلى وهو الحسين ﷺ.

٣- لو تأمَّلنا قليلاً كيفية الرجوع بعد الملاقاة نجد أنَّ العباس ﷺ رجع يركض لأخيه ﷺ يخبره الخبر. وهنا قد يثيرنا سؤال لِمَ هذا الرَّكض؟ هل كان ذلك لغايته -سلام الله عليه- بعدم إطالة اللقاء بهؤلاء القوم بعد أن تأكّدت نواياهم الغادرة؟ أم إنَّه لم يرغب في إطالة الوقت على أخيه الحسينﷺ الذي ينتظره؟ أم إنَّه أراد أن يستعجل العودة لأخيه؛ ليخبره بهذا المجيء غير المحتسب وبيان مقصد القوم وما يريدوه؟ أو ربما كل ما ذكرناه وغيره.

٤- لم يكلّف الإمام الحسين ﷺ أخاه مالم يستطع بتأخير المعركة ودفع القوم إلى غد، إذ قال -سلام الله عليه- « ارجع إليهم فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى غد، وتدفعهم عنَّا العشيّة» ولعلَّ ذلك إنَّما جاء لملاحظته بأنَّ مواصلة الحديث بين أخيه -سلام الله عليه- والقوم لم تكن طويلة بل مقتضبة، وإجبارهم على الانتظار لما سيقوله الحسين ﷺ، لذا فإنَّ طرح موضوع الموافقة على التأجيل البسيط للمعركة ربما لم يكن بالأمر السهل قبوله من قبل الطرف الآخر، لذا قال ﷺ "إن استطعت". إلّا أنَّ العباس ﷺ بالرغم من ذلك تمكَّن من تحقيق رغبة أخيه في تأخير المعركة.

٥- لو تنقّلنا في كلِّ مفاصل الرّواية من (المراقبة الحذرة) للعباس ﷺ و(إخبار أخيه) بمجيئ القوم فالانتقال إلى (إرساله) لمخاطبتهم، ثم (الرجوع السريع)؛ ليعلمه بمجريات اللقاء وانتهاءً بـ(طلبه تأجيل) المعركة والحصول عليه، كلّ ذلك توجّب منّا القول بأنَّ دائرة الحرص وطوق الحماية تظهر بصورة جلية في كلِّ تصرف أبداه العباس تجاه أخيه الإمام الحسين "سلام الله عليهما" وكان لسان حال العباس ﷺ يصدح قائلاً: بأنِّي درعك ياحسين طالما حييت.

إيثار بالنَّفس وإقدام على الموت:

سنسلط الضوء في هذه الفقرة على مسائل وأمور مهمّة تكشف عن معاني لمواقف مثيرة أظهرتها الأحداث التي جمعت الحسين بالعباس "سلام الله عليهما" وبعد سرد الأحداث سنقف عندها بالتَّحليل والاستنتاج.

ولابأس من القول عند بداية الحديث في هذه الفقرة أنَّ سرّ الحث الشديد على ذكر الموت - سواء كان في القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية أو في نهج البلاغة- عظيم، وحكمته بالغة، فإنَّ من كان ذاكرًا للموت مستعدًّا له يعيش شجاعًا لا يرهب سلطانًا، ولا يجبن في نزال، ولا يكفّ عن القتال، كريمًا لا يحرص على مال، عادلاً لا يظلم، بريئًا من الحرص والطمع، سالمًا من الخبث والجشع، صابرًا في البأساء والضّرّاء، شاكرًا عند

الشّدّة والرّخاء، لا تزعزعه الشدائد، ولا تثني عزمه الأوابد، عزيزًا لا يخزى ولا يذل، عاملاً يجد لا يكلّ ولا يملّ، لا تريبه ريبة، ولا يجزع لمصيبة، ولا تفسده الشهوات، ولا تقوده اللذات، ولا تضعضعه البليّات، لا يؤخّر عملاً الى غد مخافة أن يدركه الأجل فيفوته أجر العمل، وهذا هو السبب في عزّ المسلمين في الغابر، وذلّهم في الحاضر، فإنّهم كانوا يذكرون الموت في جميع أوقاتهم .

فلما أيقنوا أنّهم صائرون الى الموت لا محالة وكانوا ذاكرين له في جميع حالاتهم هانت عليهم نفوسهم فأرخصوها في سبيل الله، وجدّوا في العمل فأدركوا غاية الأمل، ومن هانت عليه نفسه عزّ وأبى الذل، وكان ذلك شعارهم في جهادهم وغزواتهم وأرجازهم في حروبهم. هذا العباس بن علي ﷺ يقول في رجزه عند جهاده من هم أكثر منه عددًا وعدّة:

لا أرهب الموت إذا الموت زقا حتى أوارى في المصاليت لقى

إنِّي أنا العبـاس أغدو بالسقا ولا أخاف الشّر عند الملتقى

وقد اقتدى بذلك بأخيه الحسين ﷺ إذ يقول في رجزه:

الموت خير من ركوب العار والعار أولى من دخول النّار

وقال قبل ذلك:

فإن تكن الأبدان للموت أنشئت فقتل امرئ بالسيف في الله أفضل[1]

وعن فخر المخدّرات زينب ﷺ قالت: لمّا كانت ليلة عاشوراء من المحرّم خرجت من خيمتي لأتفقّد أخي الحسين ﷺ وأنصاره، وقد أفرد له خيمة، فوجدته جالسًا وحده يناجي ربّه ويتلو القرآن، فقلت في نفسي أفي مثل هذه الليلة يترك أخي وحده، والله لأمضينّ إلى إخوتي وبني عمومتي وأعاتبهم بذلك.

فأتيت إلى خيمة العبّاس ﷺ، فسمعت منها همهمة ودمدمة، فوقفت على ظهرها فنظرت فيها، فوجدت بني عمومتي وإخوتي وأولاد إخوتي مجتمعين كالحلقة وبينهم العبّاس بن أمير المؤمنين ﷺ وهو جاثٍ على ركبتيه كالأسد على فريسته، فخطب فيهم خطبة ما سمعتها إلّا من الحسين ﷺ مشتملة بالحمد والثناء لله الصلاة والسلام على النبي ﷺ.

ثمّ قال في آخر خطبته: يا إخوتي، وبني إخوتي، وبني عمومتي إذا كان الصباح فما تقولون؟ فقالوا: الأمر إليك يرجع ونحن لا نتعدّى لك قولك.

فقال العبّاس: إنّ هؤلاء - أعني الأصحاب - قوم غرباء، والحمل الثقيل لا يقوم إلّا بأهله، فإذا كان الصباح فأوّل من يبرز إلى القتال أنتم، نحن نقدمهم للموت لئلا يقول الناس: قدّموا أصحابهم، فلمّا قتلوا

(١)- الخطيب: السيد عبد الزهراء الحسيني، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ط٤، (بيروت-١٩٨٨)، ج ١، ص ١٩٦ - ١٩٧.

عالجوا الموت بأسيافهم ساعة بعد ساعة.

فقامت بنو هاشم وسلّوا سيوفهم في وجه أخي العبّاس وقالوا. نحن على ما أنت عليه. قالت زينب عليها السلام: فلمّا رأيت كثرة اجتماعهم، وشدّة عزمهم وإظهار شيمتهم، سكن قلبي وفرحت.

ولكن خنقتني العبرة، فأردت أن أرجع إلى أخي الحسين ﷺ وأخبره بذلك، فسمعت من خيمة حبيب بن مظاهر همهمة ودمدمة، فمضيت إليها ووقفت بظهرها، ونظرت فيها فوجدت الأصحاب على نحو بني هاشم مجتمعين كالحلقة وبينهم حبيب بن مظاهر وهو يقول. يا أصحابي لم جئتم إلى هذا المكان؟ أوضحوا كلامكم رحمكم الله. فقالوا: أتينا لننصر غريب فاطمة ﷺ. فقال، لهم: لم طلّقتم حلائلكم؟ فقالوا: لذلك. قال حبيب: فإذا كان في الصباح فما أنتم قائلون؟ فقالوا: الرّأي رأيك ولا نتعدّى قولاً لك. قال: فإذا صار الصباح فأوّل من يبرز إلى القتال أنتم، نحن نقدمهم القتال ولا نرى هاشميًّا مضرّجًا بدمه وفينا عرق يضرب لئلا يقول الناس: قدّموا ساداتهم للقتال وبخلوا عليهم بأنفسهم، فهزّوا سيوفهم على وجهه وقالوا: نحن على ما أنت عليه.

قالت زينب -سلام الله عليها-: ففرحت من ثباتهم، ولكن خنقتني العبرة، فانصرفت عنهم وأنا باكية، وإذا بأخي الحسين قد عارضني، فسكنت نفسي وتبسّمت في وجهه فقال ﷺ: أُخَيَّهْ فقلت: لبّيك يا أخي. فقال ﷺ: يا أُخْتاهْ مُنْذُ رَحَلْنا مِنَ الْمَدينَةِ ما رَأَيْتُكِ مُتَبَسِّمَةً، أَخْبِريني ما سَبَبُ تَبَسُّمِكِ؟ فقلت له: يا أخي رأيت من فعل بني هاشم، والأصحاب كذا وكذا. فقال لي: يا أُخْتاهْ إعْلَمي، أَنَّ هؤُلاءِ أَصْحابي مِنْ عالَمِ الذَّرِّ، وَبِهِمْ وَعَدَني جَدّي رَسُولُ اللهِ ﷺ، هَلْ تُحِبّينَ أَنْ تَنْظُري إِلى ثَباتِ أَقْدامِهِمْ. فقلت: نعم. فقال ﷺ: عَلَيْكِ بِظَهْرِ الْخَيْمَةِ. قالت زينب: فوقفت على ظهر الخيمة، فنادى أخي الحسين ﷺ: أَيْنَ إِخْواني وَبَنُو أَعْمامي، فقامت بنو هاشم، وتسابق منهم العبّاس وقال: لبّيك لبّيك ما تقول؟.

فقال الحسين ﷺ: أُريدُ أَنْ أُجَدِّدَ لَكُمْ عَهْداً. فأتى أولاد الحسين، وأولاد الحسن، وأولاد عليّ، وأولاد جعفر، وأولاد عقيل، فأمرهم بالجلوس فجلسوا. ثمّ نادى: أَيْنَ حَبيبُ بْنُ مَظاهِر، أَيْنَ زُهَيْرٌ، أَيْنَ هِلالٌ، أَيْنَ الأَصْحابُ؟ فأقبلوا وتسابق منهم حبيب بن مظاهر وقال: لبّيك يا أبا عبد الله! فأتوا إليه وسيوفهم بأيديهم، فأمرهم بالجلوس فجلسوا، فخطب فيهم خطبة بليغة ثمّ قال: يا أَصْحابي اعْلَمُوا أَنَّ هؤُلاءِ الْقَوْمَ لَيْسَ لَهُمْ قَصْدٌ سِوى قَتْلي وَقَتْلِ مَنْ هُوَ مَعي، وَأَنَا أَخافُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْقَتْلِ، فَأَنْتُمْ في حِلٍّ مِنْ بَيْعَتي، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمُ الانْصِرافَ فَلْيَنْصَرِفْ في سَوادِ هذَا اللَّيْلِ. فعند ذلك قامت بنو هاشم وتكلّموا بما تكلّموا، وقام الأصحاب وأخذوا يتكلّمون بمثل كلامهم.[1]

(١)- الحسن، ليلة عاشوراء في الحديث والأدب، ص ١٦٧؛ لجنة الحديث في معهد باقر العلوم ﷺ، موسوعة كلمات الإمام الحسين ﷺ، ط٣، (قم المقدسة- ١٩٩٥)، ص ٤٩٤ – ٤٩٧.

وقال الإمام علي بن الحسين زين العابدين ﷺ: فدنوت منه لأسمع ما يقول لهم وأنا إذ ذاك مريض، فسمعت أبي يقول لأصحابه: أثني على الله أحسن الثناء وأحمده على السّرّاء والضّرّاء اللهم إنِّي أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلّمتنا القرآن وفقّهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعًا وأبصارًا وأفئدة، فاجعلنا من الشاكرين. أمَّا بعد فإنِّي لا أعلم أصحابًا أوفى ولا خيرًا من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ وأوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عنِّي خيرًا، ألا وإنِّي لأظنّ يومًا لنا من هؤلاء ألا وإنِّي قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعًا في حلّ ليس عليكم حرج منّي ولا ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً. فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه وابنا عبد الله بن جعفر: لم نفعل ذلك: لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبدًا، بدأهم بهذا القول العباس بن علي وأتبعته الجماعة عليه فتكلّموا بمثله ونحوه.[1]

من هذه المواقف نقرأ ما يأتي من الأمور:

١- يبدو أنَّ العباس ﷺ قد انتهز فرصة انشغال أخيه الحسين ﷺ بالعبادة ما بين الصلاة والدعاء وعندما اطمأنّ بانشغاله وانقطاعه لله سبحانه تركه لأمره ولاسيما أنَّه لا يفارقه، لذا وجد الفرصة سانحة للانفراد بإخوته وبني هاشم عمومًا وذلك للاستعداد بالشّكل المطلوب عند إعلان ساعة الصّفر إن صحّ استعمال اللفظ هنا، وبثّ الطَّاقة الإيجابية في نفوس أهله خاصّة وأنَّ الوقت يداهمهم وموعد اللقاء بات قريبًا.

٢- إنَّ اجتماع الإمام العباس ﷺ، وطريقة جلوسه وهو جاثم على ركبتيه كالأسد على فريسته، عند إلقاء خطبته تعكس لنا أنَّ حالة التحفيز التي يريد العباس -سلام الله عليه- بثّها في نفوس أهله يجب أن تصل إلى درجتها القصوى، وإنَّ وضع الجلوس هذا مع كلماته عكست الهدف الذي يريده من خلق وقعٍ في نفوسهم، وشحذ هممهم، وكأنَّه يريد أن يكرّس حالة التّأهّب القصوى عندهم.

أمَّا كيفية جلوس بني عمومته وإخوته وأولاد إخوته فقد كانوا -سلام الله عليهم- مجتمعين كالحلقة، وفي ذلك إشارة واضحة بأنَّهم كلّهم سواء، ومهمّتهم واحدة هي الدفاع عن أخيهم الذي جسَّد الإسلام ومبادئ الحق، فإنَّما دفاعهم عن الحسين كان دفاعاً عن الإسلام بعينه.

٣- بما أنَّ الظّرف ليس عاديًّا، والوقت الذي يجمعهم قليل لذا نلمس أنَّ الإمام العباس ﷺ قد تدرّج في خطابه بشكلٍ ملفت للأذهان، إذ استعد في هيأة جلوسه ثم قال خطبته بالشكل المعتاد من حيث الحمد والثناء لله والصلاة والسلام على النبي ﷺ .

وختم خطبته بالقول: يا إخوتي، وبني إخوتي، وبني عمومتي إذا كان الصباح فما تقولون؟ وفي ذلك دلالة واضحة لتفعيل مبدأ المشاورة حتى في تلك المواقف الحساسة والحاسمة، بالرغم من معرفته بردود أفعالهم وما

(١)- الشيخ الصدوق، الامالي، ص٢٢٠؛ الشيخ المفيد، الارشاد، ج٢، ص٩١؛ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٩٢ – ٣٩٣.

سيقولوه إلَّا أنَّه أراد الاستماع لهم، فما كان جوابهم سلام الله عليهم، إلَّا أن قالوا: الأمر إليك يرجع ونحن لا نتعدّى لك قولك.

ويا له من جواب رائع ليس بغريب أن ينطق به آل بيت النبوة وهم تحت أمرة قائدهم وأخيهم العباس الذي هو في ذاته يُمثّل أخاه الحسين -سلام الله عليهم-، ومثل هذه الكلمات كان لها وقعها في نفس العباس وأخته زينب التي نقلتها للحسين -سلام الله عليهم أجمعين-.

٤- لا شك أنَّ العباس ﷺ قد حفَّز جميع الهاشميين ممن كانوا معه بدفعهم للقتال وخلق الطمأنينة لمواجهة الأخطار بأنَّهم أولى بتحمّللا لغا أعباء الحمل الثقيل، لذا توجب أن يكون الهاشميون أوَّل المقاتلين المستشهدين بين يدي سيّدهم الحسين ﷺ.

٥- تعامل العباس -سلام الله عليه- بحنكة سياسية وإدارة عسكرية مميزة حتى أثارت كلماته ﷺ كلَّ مشاعر الحماس في نفوس بني هاشم فما كان منهم إلَّا أن سلّوا سيوفهم تعبيرًا عن مساندتهم إيّاه وقبول ما اقترحه من مشروع. ومؤكِّدين بالقول أنَّهم على ما قاله العباس، فسلام الله عليهم.

٦- إنَّ تسابق العباس ﷺ من بين إخوته وبني عمّه لتلبية نداء الحسين ﷺ يثير في النّفس الشجون، فيا ترى ما الذي خطر في نفس أبي الفضل العباس وهو يسمع نداء أخيه بعد أن تركه مطمئنًا لأداء صلاته وإتمام دعائه؟ فهل هبَّ مسرعًا لخاطرة مرَّت به سريعًا أنَّ حسينه في خطر فنسى جلوسه مع مخاطبيه ولم يسمع إلَّا صوت الحسين فحسب؟ أم أنَّه أسرع بدون أيّ تفكير فقط ليلبّي نداء أخيه وليكن من الأمر ما يكن، المهم أن يصل إليه بعد سماع مناداته مسرعًا؟

٧- جاء ردّ الهاشميين وأصحابه مثل قولهم بعضهم لبعض قبل نداء الحسين ﷺ وتجديد العهد، لكن ما يلفت الانتباه مناقشة العباس له -سلام الله عليهما- بعد أن أذن للجميع بالانصراف عنه؛ لأنَّ القوم لا يريدون أحدًا سواه.

فجواب العباس ﷺ مثير من حيث الطَّريقة والمعنى، إذ أجابه ﷺ باستفهام، لِمَ نفعل ذلك؟ وباللحظة نفسها أجاب، ولعلّه أجاب مستغربًا بالقول: لنبقى بعدك؟ لأنَّ تركه ليس له معنى إلَّا أن يبقون أحياء دون الحسين «سلام الله عليهم» فحياتهم مهمّة لكنَّها ليست جديرة بالاهتمام دون وجود حسينهم فيها لذا أكَّد ﷺ ذلك بالقول: "لا أرانا الله ذلك أبدًا".

رفع الوحشة عن قلوب الهاشميات بطواف العباس ﷺ حول الخيام:

كان العباس ﷺ في العبادة وكثرة الصلاة والسجود بمرتبة عظيمة، حتى إنَّه كان يبصر بين عينيه أثر السّجود.[1]

وأي عبادة أزكى وأفضل من نصرة ابن بنت رسول الله ﷺ، وحماية بنات الزهراء «عليها السلام»، وسقي ذراري رسول الله ﷺ.

المعروف إنَّ أصحاب الحسين ﷺ باتوا ليلة العاشر من المحرّم ما بين قائم وقاعد وراكع وساجد، لكن خصّص العباس ﷺ من بينهم بحفظ بنات رسول الله ﷺ وأهل بيته، فقد كان راكبًا جواده متقلّدًا سيفه آخذًا رمحه يطوف حول الخيم؛ لأنَّها آخر ليلة أراد أن يوفي ما كان عليه ويرفع الوحشة عن قلوب الهاشميّات حتى يجدن طيب الكرى، وقد أحاطت بهنَّ الأعداء، وكانت عيون الفاطميّات به قريرة، وعيون الأعداء منه باكية ساهرة؛ لأنَّهم خائفون مرعوبون من أبي الفضل ﷺ وما تنام أعينهم خوفًا من بأسه وسطوته ونكال وقعته، لكن انقلب الأمر ليلة الحادي عشر، قرّت عيون العسكر، وبكت وسهرت عيون الفاطميّات، ولنعم ما قيل:

اليوم نامت أعين بِكَ لم تنم وتسهّدت أخرى فعزّ منامها

وقال الفرطوسي – عليه الرحمة –:

وبنو هـــاشم نطاق عيون مستدير على خيام النساء

وأبـو الفضل فارس الجمع ترنو مقلتاه لمقلة الحوراء[2]

إرسال العباس ﷺ لتهدئة النساء وإسكات بكائهنَّ:

لّما دنا من الإمام الحسين بن عليّ ﷺ في واقعة الطَّف القوم دعا براحلته فركبها ثمّ نادى بأعلى صوته بدعاء يسمعه جلّ النّاس: أيُّها النّاس اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتّى أعظكم بما لحقّ لكم عليّ وحتّى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم فإن قبلتم عذري وصدّقتم قولي وأعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا منّي العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم « **فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ**» « **إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**» .

فلمّا سمع أخواته كلامه هذا صِحْنَ وبَكِينَ وبكى بناته فارتفعت أصواتهنَّ، فأرسل إليهنَّ أخاه العبّاس

---

(١) الشيخ الصدوق، ثواب الاعمال، تقديم: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، ط٢، (قم المقدسة– ١٣٦٨)، ص٢١٩.

(٢) الحسن، ليلة عاشوراء في الحديث والأدب، ص ٦٣ – ٦٥؛ آل درويش: الشيخ عبد الله ابن الحاج حسن، المجالس العاشورية في المآتم الحسينية، (قم المقدسة– ١٤٢٨)، ص٣٣٥.

وعليًّا ابنه -سلام الله عليهما-، وقال لهما: اسكتهنَّ فلعمري ليكثرنَّ بكاؤهنَّ. فلمّا سكتن حمد الله وأثنى عليه وذكر الله بما هو أهله وصلَّى على محمّد ﷺ وعلى ملائكته وأنبيائه وذكر من ذلك ما الله أعلم وما لا يحصى ذكره.[1]

تبدو من خلال هذه الرّواية أمور عدَّة منها ما يلي:

١- إنَّ الإمام الحسين ﷺ أظهر اهتمامًا بالغًا في أمور عدَّة منها خطابه التَّعبوي وهذا ليس محلّ تفصيله، والذي يهمّنا هو اهتمامه بأمر النساء اللواتي أخذن بالبكاء بعد الاستماع لكلماته وما أثارته من مشاعر أربكتهنَّ في مثل هذه الساعة الحرجة بحيث أرعبتهنَّ، مما استوجب منه ﷺ احتواء هذا الموقف الصّعب بإرساله لأخيه العباس ﷺ وما يمثّله العباس من طمأنينة لهنَّ ولجميع عسكره.

٢- يبدو للبعض أنَّ موقف البكاء الذي حدث بسيط وكان بإمكانه الاكتفاء بإرسال ابنه -سلام الله عليه- إلّا أنَّ هذا بعيد تمامًا عن الصّحّة؛ لأنَّ التَّعبئة النَّفسية للمعركة مهمّة والنساء كنَّ جزءًا مهمًا منها، وإغفال طمأنتهنَّ مسألة خطيرة، لذا أقبل ﷺ على هذه الخطوة.

٣- لم يكمل الإمام الحسين ﷺ خطبته إلَّا بعد نجاح العباس بإسكاتهنَّ، فالموقف برمّته يشعرنا بذلك التناغم الذي جمع المعسكر الحسيني بكلِّ أعضائه، وأنَّ تصرّف الإمام الحسين ﷺ هو ما لفت الانتباه إذ اعتمد على أخيه بمعالجة هذه الجزئية، ويبدو أنَّه نجح في أداء هذه المهمَّة، حتى إنَّ الحسين ﷺ تمكَّن من استئناف حديثه. لكن يا ترى ما الذي قاله وفعله العباس لينجح بمهمّته؟ وكيف خفَّف عنهنَّ بحيث زرع الطمأنينة في نفوسهنَّ الحيرى؟ أم مجرّد وجود العباس ودخوله عليهنَّ كان كافيًا لوجود الطمأنينة وإبعاد شبح الرعب الذي دبَّ في نفوسهنَّ الكريمة.

عبّاس اللواء ولواء العباس:

عبَّأ الإمام الحسين ﷺ أصحابه يوم الطف وأعطى الرّاية لأخيه العباس -سلام الله عليهما-.[2] فهو ﷺ صاحب لوائه، والمعروف أنَّ اللواء هو العلم الأكبر، ولا يحمله إلَّا الشجاع الشريف في المعسكر. وهذا ما عرف عن العباس ﷺ من كونه قويًّا شجاعًا، وفارسًا وسيمًا جسيمًا، يركب الفرس المطهَّم ورجلاه تخطّان في الأرض.[3]

ويبدو أنَّ موقع الرّاية - في نظام التعبئة - في القلب، وعليه فكلُّ من ذكر أنَّ الرَّاية كانت في يدِ العباس بن

(١) الطبري: محمد بن جرير(ت٣١٠)، تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، ط٤، (بيروت- ١٩٨٣)، ج٤، ص٣٢٢؛ الخوئي: حبيب الله الهاشمي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تحقيق: سيد إبراهيم الميانجي، ط٤، (طهران- ١٣٦٠)، ج ١٩، ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) القاضي النعمان المغربي: ابي حنيفة النعمان بن محمد التميمي (ت، ٣٦٣هـ)، شرح الأخبار، تحقيق: السيد محمد الحسيني الجلالي، ط٢، (قم المقدسة -١٤١٤)، ج ٣، ص ١٨٢ - ٢٠١.

(٣) آل درويش، المجالس العاشورية في المآتم الحسينية، ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

علي عنى أنَّ بني هاشم كانوا في القلب مع الحسين -سلام الله عليهم أجمعين-.[1]

إذ نظّم الحسين ﷺ أصحابه صباح عاشوراء استعدادًا للقتال، فجعل زهير بن القين في الميمنة، وحبيب بن مظاهر في الميسرة، وثبت هو ﷺ وأهل بيته في القلب، وعندما أعطى رايته أخاه العباس ﷺ؛ لأنّه وجده أكفأ من معه لحملها، وأحفظهم لذمامه، وأرأفهم به، وأدعاهم إلى مبدئه، وأوصلهم لرحمه، وأحماهم لجواره، وأثبتهم للطعان، وأربطهم جأشًا، وأشدّهم مراسًا.[2]

يبدو لنا مما سبق ما يلي:

١- حرص الإمام الحسين ﷺ على إعطاء رايته إلّا لمن استحقّها، وكان أهلاً بكلّ معنى الكلمة لحملها لما توفّر فيه من مميزات فهو ﷺ قد جمع بين الصّفات والأسباب الشخصية من حيث (صلة الرحم، حفظ الذمام، والرأفة بهم، وحمى الجوار) وبين الصِّفات والأسباب الخاصة بشخصيته المقاتلة وما جمعه من (أدعاهم إلى مبدأ الثورة الحسينية، وأثبتهم للطعان، وأربطهم جأشًا، وأشدّهم مراسًا). كلُّ ذلك شجّع الإمام الحسين ﷺ لإعطاء رايته لأخيه أبي الفضل ﷺ.

٢-فرضت أصول الحرب وإدارة المعركة أن يمنح العباس ﷺ اللواء لما سبق ذكره أعلاه من الأسباب، لكن الإمام الحسين ﷺ وجميع من كان في المعسكر -سواء معسكر الحق او في معسكر النفاق- كان يدرك تمامًا أنَّ العباس وحده لواء بدون لواء.

العباس ﷺ بين (الاستقلالية وحرّيّة اتخاذ القرار) وبين (مواجهة فتنة الأمان):

لله درّ الشيخ (محسن أبو الحب) إذ يقول عليه الرحمة على لسان الحسين ﷺ:

أبوكَ كان لجـــــدّي مثلَ كَوْنِكَ لي بنفســــــهِ نَفْسُ مَنْ آخَاه فَادِيها
أبوك ساقي الوَرَى في الحَشْرِ كَوْثَرَهُ وأنتَ أطفالَنا في الطفِّ ساقيها [3]

لقد قام شمر بن ذي الجوش -وهو عبد الله بن أبي المحل بن حزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب، وكانت عمّته أم البنين ابنة حزام «عليها السلام»- بمشروع، إذ قال عبد الله بن أبي المحل أصلح الله الأمير إنَّ بني أختنا مع الحسين فإن رأيت أن تكتب لهم أمانًا فعلت.

قال: نعم ونعمة عين فأمر كاتبه فكتب له أمانًا فبعث به عبد الله بن أبي المحل مع مولى له يقال له كزمان

---

(١) شمس الدين: الشيخ محمد مهدي، أنصار الحسين ﷺ، ط٢، (بدون مكان- ١٩٨١)، ص ٦٦.

(٢) الحسن، ليلة عاشوراء في الحديث والأدب، ص ١٨١.

(٣) آل درويش، المجالس العاشورية في المآتم الحسينية، ص ٢٤٢ – ٢٤٥.

فلمّا قدم عليهم دعاهم فقال هذا أمان بعث به خالكم. فقال له الفتية قل له أن لا حاجة لنا في أمانكم، أمان الله خير من أمان ابن سمية.

فأقبل شمر بن ذي الجوشن بكتاب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد فلمَّا قدم به عليه فقرأه قال له عمر: ما لك ويلك لا قرّب الله دارك وقبح الله ما قدمت به عليّ، والله إنِّي لأظنّك أنت ثنيته أن يقبل ما كتبت به إليه أفسدت علينا أمرًا كُنّا رجونا أن يصلح لا يستسلم والله حسين إنَّ نفساً أبيّة لبين جنبيه. فقال له شمر: أخبرني ما أنت صانع أتمضي لأمر أميرك وتقتل عدوّه وإلا فخلّ بيني وبين الجند والعسكر. قال: لا ولا كرامة لك، وأنا أتولّى ذلك قال فدونك، وكن أنت على الرّجال.

فنهض إليه عشيّة الخميس لتسعٍ مضين من المحرّم، وجاء شمر حتى وقف على أصحاب الحسين فقال: أين بنو أختنا، فخرج إليه العباس وجعفر وعثمان بنو عليّ. فقالوا له: ما لك وما تريد؟ قال: أنتم يا بني أختي آمنون قال له الفتية لعنك الله ولعن أمانك لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له، قال ثم إنَّ عمر بن سعد نادى يا خيل الله اركبي وأبشري فركب في الناس ثم زحف نحوهم بعد صلاة العصر .[1]

ومن المفيد ذكره أنَّه عندما ورد كتاب عبيد الله بن زياد على عمر بن سعد يحثّه على تعجيل القتال ويحذّره من التّأخير والإهمال وركبوا نحو الحسين ﷺ وإقبال شمر بن ذي الجوشن -عليه اللعنة- ومناداته بنو أختي عبد الله وجعفر والعباس وعثمان. لم يجيبوه إلَّا أن قال الحسين ﷺ أجيبوه وإن كان فاسقًا فإنَّه بعض أخوالكم. فقالوا له: ما شأنك. فقال: يا بني أختي أنتم آمنون فلا تقتلوا أنفسكم مع أخيكم الحسين ﷺ وألزموا طاعة أمير المؤمنين يزيد. فناداه العباس بن علي ﷺ تبًّت يداك ولعن ما جئتنا به من أمانك يا عدو الله أتأمرنا أن نترك أخانا وسيّدنا الحسين بن فاطمة ﷺ وندخل في طاعة اللعناء وأولاد اللعناء. فرجع الشمر عليه اللعنة إلى عسكره مغضبًا. [2]

فذاك الشمر بن ذي الجوشن رأس البغض على آل الرسول ﷺ، يأتي بفتنة ليشقّ صفّ معسكر الحسين ﷺ كما كان يظن، فيصيح بأعلى صوته: أين بنو أختنا؟ أين العباس وإخوته؟ وقد جاء لهم بالأمان من عبد الله بن زياد إذا هم تركوا أخاهم الحسين ﷺ وانصرفوا عنه، أراد أن يستغلّ القرابة بدافع الجاهلية العشائرية ليفصل بينهم وبين الحسين ﷺ إلَّا أنَّ هؤلاء الصّفوة من المؤمنين أعرضوا عن الشمر ولم يكلّموه.

وهنا يظهر الخلق الحسيني على المسرح، ليعطي الفرصة لعدوّه كيما يقول ما يريد، فقال ﷺ للعباس وإخوته:

---

(١) أبو مخنف الأزدي: لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدي الغامدي (ت، ١٥٧هـ)، مقتل الحسين ﷺ، تعليق: حسين الغفاري، (قم المقدسة-١٣٩٨)، ص١٠٣؛ الطبري، تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣١٤ – ٣١٥؛ النويري: احمد بن عبد الوهاب (ت، ٧٣٣)، نهاية الارب في فنون العرب، (القاهرة-بدون تا)، ج٢٠، ص٤٣٢؛ الريشهري، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب ﷺ في الكتاب والسنة والتاريخ، ج ١، ص ١٣٣ - ١٣٤.

(٢) السيد ابن طاووس، اللهوف في قتلى الطفوف، ص ٥٣ – ٥٤.

"أجيبوه ولو كان فاسقًا".

لقد أعطى الإمام الحسين ﷺ الاستقلالية وحرّيّة اتخاذ القرار للعباس وإخوته، وهؤلاء بدورهم كيف يردّون على الشمر الفاسق بأخلاق الولاية للحق والبراءة من الباطل، ولا مجاملة على حساب القيم. فهذا الأسلوب الحسيني وما فعله أخوه العباس تطبيقًا لحكمة الحزم مع اللّين. وهذا مبدأ أخلاقي رصين قد تعلّمه الحسين والعباس﵇ من أبيهما أمير المؤمنين علي ﷺ عندما كان يواجه مكر معاوية وخديعته ويتنفّس الصعداء ويقول "وا ويلاه يمكرون بي ويعلمون أنّي بمكرهم عالم، وأعرف منهم بوجوه المكر ولكن أعلم أنَّ المكر والخديعة في النار، فأصبر على مكرهم ولا أرتكب مثل ما ارتكبوا".

أمَّا الدروس المستفادة هنا فهي:

١ – احترام استقلالية الفرد المعتدل في اتخاذ قراراته.

٢ – إذا كنت واثقًا في تربيتك للفرد فلا تخف عليه أن تبعثه لمحاورة العدو.[١]

ولا بُدَّ من توضيح لما سبق ذكره أعلاه من فقرات خاصّة بمشروع الأمان لنبرز أهم الأمور التي تمخّضت عن ذكره وهي ما يلي:

١-أدرك القوم أنَّهم يتعاملون مع شخصيّات صعبة صاحبة مبدأ، لذا أخذوا يطرقون أبواب العصبية الجاهلية علَّهم يوفّقون في شيء ولو اليسير منه وهذا ما جعلهم يلبسون لباس المفاوضة غافلين مع من يتفاوضون، وهذا إذا دلَّ على شيء إنَّما يدلّ على ضيق ومحدودية أفق تفكيرهم بإظهار اهتمامهم ببني أختهم.

٢- تشعرنا الرّوايات السَّابقة برغبة معسكر النفاق في تحقيق أيّة خطوات لصالحهم لذا أظهر الشّمر استعداده السريع لمنح الأمان الذي لا أمان له، فأمر كاتبه بكتابته والإسراع في إرساله من قبل كزمان مولى عبد الله بن أبي المحل.

٣- لم يتوانَ إخوة الحسين﵇ وعلى رأسهم العباس ﷺ من استنكار واستهجان مشروع الأمان برمّته جملة وتفصيلاً لذا كان جوابهم للمبعوث إليهم –مولى عبد الله بن أبي المحل والشمر– واضع وصريح بقليل من الكلمات التي تحوي كثيرًا من المعاني العميقة في التأثير بعدم حاجتهم للأمان وإنَّ أمان الله –الذي هم مسددون به– خير من أمان ابن سميّة.

٤ – إنَّ ما جاء به المبعوث من جواب للشمر أربكهم أكثر مما هم فيه من الإرباك، وأيقنوا أنَّ استمالة إخوة الحسين لأبيه «سلام الله عليهم» وتغيير ولاءاتهم أمر ليس بالهيّن تحقيقه، وبالرغم من كلّ ذلك فقد تكرَّر عرض

(١) البحراني: عبد العظيم المهتدي، من أخلاق الإمام الحسين ﷺ دروس في السلوك والتربية وقيم الحياة الطيبة(قم المقدسة– ٢٠٠٠)، ص ٢١٣ – ٢١٤.

موضوع الأمان مرَّة أخرى لكن هذه المرّة مباشرة دون إرسال مبعوث ولا كتاب خطّيّ بل وجَّه الشمر عليه اللعنة الكلام مباشرة باللجوء إلى ذلك الأسلوب الذي ينطوي على اهتمام ويخفي بين جوانبه حقدًا وغدرًا، قائلاً «أين بنو أختنا»؟

٥- نرى عند توجيه الخطاب وتقديم مشروع الأمان من قبل الشمر عليه اللعنة قد طرق أسلوب المناداة باستخدام أسماء الإخوة الأربعة واحدًا واحدًا، مكرّرًا عرض الأمان مما أفصح عن خشية واضحة من الرّفض مرّة أخرى، وكأنَّه أراد أن يكرّس إظهار مشاعر خاصّة تعكس صلة القرابة باستخدامه مع ذكر الأسماء لفظة « بنو أختي».

لكن من جانب آخر عكس موقفه جهله الحقيقي وعدم توفيقه بمحاولته اليائسة الغبيّة بالقول «لا تقتلوا أنفسكم مع أخيكم الحسين ﷺ» ظانًا أنَّ ذلك قد يخرجه من مأزق المواجهة، فهو في الوقت الذي طرق باب القرابة من العباس وإخوته ﷺ لم يدرك أنَّه أكَّد قربهم من أخيهم الحسين ﷺ ولم يدرك أنّه إنَّما يدور في حلقة مفرغة، وأنَّه طرق الباب الخاطئ.

٦- إنَّ الإمام الحسين ﷺ كان على معرفة أكيدة من جواب إخوته وثبات موقفهم إلَّا أنَّه حثَّهم على جواب الشمر وإن كان فاسقًا، وفي ذلك إشارة واضحة الى امتناع العباس وإخوته ﷺ للرّدّ على الشمر، وفي الوقت ذاته أعطى صورة آنية لمعسكر النفاق أنَّهم إنَّما يمتثلون لقائدهم وسيّدهم وأخيهم الحسين ﷺ.

٧- أشعرنا جواب العباس بمقدار ما يمتلكه من مهارة الفهم والاتصال بينه وبين خصمه إذ أجابه باستفهام مقتضب قائلاً «ما شأنك» على الرغم من أنَّ المشروع الذي قدَّمه الشمر هو للمحافظة على روحه وأرواح إخوته لأمه، إذ لم يدرك الشمر أنَّ روح العبّاس متعلّقة بالحسين ﷺ، ونفسه فداء لنفس أخيه ابن رسول الله ﷺ.

٨- حاول العباس ﷺ أن يعكس معنى الوفاء الذي يبدو أنَّ الشمر -عليه اللعنة- لم يعرفه ونساه تمامًا. فبعد أن أظهر استهجانه للأمان ولعنه إياه أخذ يقول: أتأمرنا أن نترك أخانا وسيّدنا الحسين ابن فاطمة. وكأنَّه أراد أن يجيبه بلغة يفهمها الشمر باستخدام لفظة (الأخ) أوّلاً وتعزيزها بلفظة(السيد)، إشارة فيها رسالة علنيّة لاتجاهين الأوّل موجّه الى الحسين ﷺ أنَّ موقفنا هذا وإنَّك لأخونا وسيّدنا نأتمر بأمرك، ولا نردّ لك طلبًا، وليسمع السامعون ولاسيما أنَّ هذه الكلمات لم تكن مجرّد كلمات وإنَّما هي أفعال سجّلتها واقعة الطَّف على أرض كربلاء.

والاتجاه الثاني موجّه لمعسكر النِّفاق وعلى رأسه الشمر عليه اللعنة بأنَّ أسلوب الجاهلية لا ينفع معهم، وإنَّ

عليه أن يتجنّبهم ما استطاع لأنَّهم ليوث مدافعة عن أخيهم وقائدهم الحسين -سلام الله عليهم-.

معركة الماء والانطلاق لجلبه من البدايات المتواضعة وحتى التضحية دونه:

المعروف أنَّ العباس ﷺ كان قد تولّى سقاية الجيش والأطفال في ساعة العسرة التي كان فيها الإمام وأصحابه محاصرين.[١] وأنَّهم وإن كانوا قد مُنِعوا عن الوصول إلى الشريعة، لكنّهم بفضل العباس ﷺ استطاعوا الوصول إليها، وجلب الماء.[٢]

والمعروف أنَّ القوم قد منعوا الماء عن الحسين ﷺ وأهل بيته وأصحابه، ورجعت خيل ابن سعد حتى نزلوا على شاطئ الفرات، فحالوا بين الحسين ﷺ وأصحابه وبين الماء، وأضرَّ العطش بالحسين وأصحابه، فأخذ الحسين ﷺ فأساً وجاء إلى وراء خيمة النساء، فخطا في الأرض تسع عشرة خطوة نحو القبلة، ثمَّ حفر هناك فنبعت له عين من الماء العذب، فشرب الحسين ﷺ وشرب الناس بأجمعهم، وملأوا أسقيتهم، ثم غارت العين، فلم يرَ لها أثر. وبلغ ذلك ابن زياد فأرسل إلى عمر بن سعد: بلغني أنَّ الحسين ﷺ يحفر الآبار، ويصيب الماء، فيشرب هو وأصحابه، فانظر إذا ورد عليك كتابي فامنعهم من حفر الآبار ما استطعت، وضيِّق عليهم، ولا تدعهم يذوقوا الماء، وافعل بهم كما فعلوا بالزكيِّ عثمان، فعندها ضيَّق عمر بن سعد عليهم غاية التضييق.[٣] وبما أنه من اليوم السابع من المحرم الحرام كان قد حوصر سيد الشهداء ومن معه، ومنع عنهم الماء، وسد بوجههم منافذ الورود .[٤]

ولأنَّ الحسين ﷺ عطش، وقد منعوه الماء، فقد أخذ العباس قربة ومضى نحو الماء، واتبعه إخوته من ولد علي ﷺ: عثمان وجعفر وعبد الله. فكشفوا أصحاب عبيد الله عن الماء. وملأ العباس القربة، وجاء بها فحملها على ظهره إلى الحسين وحده. [٥]

ومعروف أنَّ العباس والغيارى من أصحابه قد اقتحموا الشريعة وخرقوا الرماح المشرعة والبوارق المرهفة الجمع من جيش الضلال يرأسهم عمرو بن الحجاج - عليه اللعنة - ولكن «ساقي العطاشى» لم يتحمّل تلك الحالة:

أوتشتكي العطش الفواطم عنده وبصدر صعدته الفرات المفعم

---

(١) الريشهري، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب ﷺ في الكتاب والسنة والتاريخ، ج ١، ص ١٣١ – ١٣٤.

(٢) العاملي: السيد جعفر مرتضى، كربلاء فوق الشبهات، ط٢، (بيروت-٢٠٠٣)، ص ٣٩ .

(٣) العلامة المجلسي، بحار الانوار، ج٤٤، ص٣٨٧.

(٤) الأمين: السيد محسن، لواعج الأشجان، (صيدا- ١٣٣١)، ص ١١٠ – ١١٢.

(٥) القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج ٣، ص ١٨٢ – ١٨٣.

لــو سدُّ ذِي القَرنينِ دونَ ورُوُدِهِ نسفتـــــــهُ هِمَّته بما هو أعظَمُ

ولـــو استقى نهر المجرة لارتقى وطويـــــــل ذابلها إليها سلم

حـــــامي الضَّعينةِ أينَ مِنهُ رَبيعةٌ أم أيـــــنَ مِن عَلياً أبيه مُكدَّمُ

في كفـــــه اليسرى السقاء يقله وبكفـــــه اليمنى الحسام المخدم

مثـــــل السحابة للفواطم صوبه ويصيـــب حاصبة العدو فيرجم

وقد قيَّض الإمام الحسين ﷺ مهمَّة إحضار الماء أخاه العباس في حين أنَّ نفسه الكريمة تنازعه إلى ذلك قبل الطلب، ويحدوه إليه حفاظه المر فأمره أن يستقي للحرائر والصّبية وإن كان دونه شقّ المرائر وسفك المهج، وضمّ إليه ثلاثين فارسًا وعشرين راجلاً وبعث معهم عشرين قربة وتقدَّم أمامهم نافع بن هلال الجملي فمضوا غير مبالين وكل بحفظ الشريعة؛ لأنَّهم محتفون بشيم من آل محمد، فتقدّم نافع باللواء وصاح به عمرو بن الحجاج من الرجل وما جاء بك قال جئنا نشرب من هذا الماء الذي حلأتمونا عنه. فقال له: اشرب هنيئًا. قال نافع: لا والله لا أشرب منه قطرة والحسين ومن ترى من آله وصحبه عطاشا.

فقال لا سبيل إلى سقي هؤلاء وإنَّما وضعنا ههنا لنمنعهم الماء، ثم صاح نافع بأصحابه املأُوا قربكم، وشدّ عليهم أصحاب ابن الحجاج فكان بعض القوم يملأ القرب وبعض يقاتل وحاميهم ابن بَجْدَتِها مسدّد الكماة المتربي في حجر البسالة الحيدرية والمرتضع من لبانها أبو الفضل فجاؤوا بالماء وليس في القوم المناوئين من تحدّثه نفسه بالدّنوّ منهم فرقًا من ذلك البطل المغوار قبلت غلة الحرائر والصبية الطّيبة من ذلك الماء وابتهجت به النفوس.

ولكن تلك الكمية القليلة من الماء ما عسى أن تروي أولئك الجمع الذين هم أكثر من مائة وخمسين رجالاً ونساءً وأطفالاً أو أنَّهم ينيفون على المائتين في بعض الروايات، ومن المقطوع به أنَّه لم تروَ أكبادهم إلَّا مرَّة واحدة أو أنَّها كمصّة الوشل فسرعان أن عاد إليهم الظمأ وإلى الله سبحانه المشتكى.[1]

وقال العباس ﷺ عندما مضى يطلب الماء فحملوا عليه وحمل عليهم:

لا أرهـــب الموت إذا الموت رقا حتى أواري في المصاليت لقى

نفسي لنفس المصطفى الطهر وقا إنـــّي أنا العباس أغدو بالسّقا

ولا أخاف الشر يوم الملتقى

---

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣١٢؛ ابن اعثم الكوفي: أبي محمد أحمد(ت، ٣١٤هـ)، الفتوح، تحقيق: علي شيري، (بيروت- ١٤١١)، ج٥، ص٩٢؛ العلامة المجلسي، بحار الانوار، ج٤٤، ص٣٨٨؛ الشاكري: الحاج حسين، شهداء أهل البيت ﷺ قمر بني هاشم، (قم المقدسة- ١٤٢٠)، ص ٨٦- ٩٢.

وبقيّة الرواية الخاصّة بتفريقه للجموع ومقاتلته إياهم حتَّى استشهاده ﷺ.[1]

وامتاز العباس ﷺ بعظيم المواساة، فإنَّه لما اقتحم المشرعة قال:

لا أشرب وأبو عبد الله عطشان. وهل سمعت بأحد من الأوّلين والآخرين فدى قربة من الماء رجاء أن يشربها أخوه وعياله وأطفاله بنفسه؟ ووقاها حرصًا على إيصالها إليهم بمهجته؟ وليتك يا ساقي عطاشى كربلاء أرويت كبدك الحرّى بجرعة منها قبل مقتلك؟[2]

الإمام العباس ﷺ ودائرة الألفاظ ومعانيها بين (الأخ والسّيّد):

لا بد من التّنويه أوّلاً عند مناقشة هذه الفقرة إلى أنَّ الإمام العباس ﷺ كان قد عاش مع أبيه أربع عشرة سنة، ومع أخيه الحسن أربعًا وعشرين سنة، ومع أخيه الحسين أربعاً وثلاثين سنة، وتلك مدة عمره ﷺ.[3]

كما نرى بضرورة تسليط الضوء ثانيًا على مواقف وأوقات استعمال العباس ﷺ كُلًّا من لفظتي (سيّد وأخ) في تعامله مع الحسين ﷺ ودواعي ومدلولات ذلك كما سيأتي ذكره في البحث إن شاء الله-تعالى-.

أ- استعمال لفظة الأخ:

عند مجيء وفد من معسكر النفاق ورؤية العباس لهم، إذ قال له العباس ﷺ: يا أخي أتاك القوم، فنهض ثم قال: اركب أنت يا أخي حتَّى تلقاهم وتقول لهم: مالكم؟ وما بدا لكم؟ وتسألهم عما جاء بهم -إلى آخر الرواية التي بحثناها سابقًا-.[4]

فطلب منه الإمام أن يتعرّف على خبرهم قائلاً له: « اركب بنفسي أنت يا أخي حتَّى تلقاهم، فتقول لهم: ما بدا لكم، وما تريدون؟». كم رقيقة هذه الكلمات المؤدّبة التي تفوّه بها الحسين لأخيه العباس « اركب بنفسي أنت يا أخي . . . » ما أجمل هذا الأدب، كلمات تبثّ الحبّ والحنان، وترفع الستار عن مودَّة عميقة من الحسين لأخيه العباس، قد جمعتها سلامة العقيدة وروائع الأخلاق. يا ليتنا نستلهم بعضها. وأسرع أبو الفضل العباس ممتثلاً أمر أخيه الحسين، فتحرّك نحو العدوّ المهاجم، ومعه عشرون فارسًا من أصحابه، وفيهم زهير بن ألقين وحبيب بن مظاهر، فسألهم العباس عن زحفهم، فقالوا له: جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم النزول على حكمه

---

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٥، ص٤٠ – ٤٣.

(٢) السيد شرف الدين: عبد الحسين الموسوي، المجالس الفاخرة في مصائب العترة الطاهرة، مراجعة وتحقيق: محمود بدري، (قم المقدسة-١٤٢١)، ص٢٩٦ – ٢٩٧.

(٣) السماوي: الشيخ محمد، أبصار العين في أنصار الحسين ﷺ، تحقيق: الشيخ محمد جعفر الطبسي، (قم المقدسة -١٤١٩)، ص ٥٧ –٦١.

(٤) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٩١ – ٣٩٣.

أو نناجزكم. ومن الدروس المستفادة هنا عندما تريد الكلام مع أخيك قدم إليه ألفاظًا في أجمل عبارات.[1]

وعند مناداة الشمر عليه اللعنة: يا بني أختي لا تقتلوا أنفسكم مع أخيكم الحسين وألزموا طاعة أمير المؤمنين يزيد وذلك عند عرض الأمان، قال له العباس -سلام الله عليه-: تبّت يداك يا عدوّ الله أتأمرنا أن نترك سيّدنا وأخانا، وندخل في طاعة اللعناء وأولاد اللعناء.[2]

ولّما رأى جميع عسكر الإمام الحسين ﷺ قتلوا وإخوانه وبني عمّه، حمل الرّاية وجاء نحو أخيه الحسين ﷺ، وقال: يا أخي هل رخصة؟ فأجابه كما هو معتاد من الحسين عند الكلام مع العباس -سلام الله عليهما- قائلاً: يا أَخي كُنْتَ الْعَلامَةَ مِنْ عَسْكَري .... إلى آخر هذه الرواية -التي سيأتي بحثها-. فقال العبّاس: فداك روح أخيك يا سيّدي.[3]

وكذلك عندما جاءه سهم وأصاب صدره الشريف، وانصرع عفيرًا على الأرض يخور في دمه، ونادى: وا أخاه وا حسيناه وا أبتاه واعليّاه ونادى: يا أبا عبد الله عليك منّي السلام. فلمّا سمع الإمام ﷺ نداءه قال: وا أخاهْ وا عَبّاساهْ وا مُهْجَةَ قَلْباهْ فأتاه كالصقر إذا انحدر على فريسته، ففرّقهم يمينًا وشمالاً بعد أن قتل سبعين رجلاً منهم، ونزل إليه .[4]

وفي رواية: إنَّه لّما جاء الحسين ﷺ إلى أخيه العبّاس انتحى عليه ليحتمله ففتح العبّاس عينيه فرأى أخاه الحسين يريد أن يحمله، فقال له: إلى أين تريد بي يا أخي؟

وكذا في بعض الكتب عندما أخذ الحسين ﷺ رأسه الشريف ووضعه في حجره، وجعل يمسح الدم عن عينيه، فرآه وهو يبكي، فقال الحسين ﷺ: ما يُبْكِيكَ، يا أَبَا الْفَضْلِ؟ قال: أخي، يا نور عيني .[5]

وكذا كان استخدام لفظة (الأخ) من قبل آل بيت النّبوّة عند حديثهم عن العباس ﷺ مشيرين بذلك إلى مقدار القرب بينهم، فقد قال الإمام السجاد ﷺ: رحم الله عمّي العباس، فلقد آثر وأبلى، وفدى أخاه بنفسه حتّى قطعت يداه، فأبدله الله بهما جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنّة، كما جعل لجعفر بن أبي طالب، وإنّ

---

(١) البحراني، من أخلاق الإمام الحسين ﷺ، ص ٢١٠ – ٢١١.

(٢) ابن نما الحلي: محمد بن جعفر بن أبي البقاء هبة الله، (ت، ٦٤٥هـ)، مثير الأحزان، (النجف الاشرف- ١٩٥٠)، ص ٤١.

(٣) العلامة المجلسي، بحار الانوار، ج٤٥، ص٤١؛ البحراني: الشيخ عبد الله (ت، ١١٣٠هـ)، العوالم، العلوم والمعارف والأحوال من الآيات والأخبار والأقوال الإمام الحسين ﷺ، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي (عجل الله فرجه)، ج١٧، (قم المقدسة- ١٤٠٧)، ص٢٨٤؛ لجنة الحديث في معهد باقر العلوم ﷺ، موسوعة كلمات الإمام الحسين ﷺ، ص ٥٦٦ – ٥٦٧.

(٤) القندوزي: سليمان بن إبراهيم الحنفي، ينابيع المودة لذوي القربى، تحقيق: سيد علي جمال أشرف الحسيني، (قم المقدسة- ١٤١٦)، ج٣، ص٦٨؛ الحائري: الشيخ محمد مهدي، شجرة طوبى، ط٥، (النجف الاشرف- ١٣٨٥)، ج٢، ص٤١٨؛ لجنة الحديث في معهد باقر العلوم ﷺ، موسوعة كلمات الإمام الحسين ﷺ، ص ٥٦٧ – ٥٧٢.

(٥) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم ﷺ، موسوعة كلمات الإمام الحسين ﷺ، ص ٥٦٧ – ٥٧٠.

للعبّاس عند الله -تبارك وتعالى- منزلة، يغبطه بها جميعُ الشهداء يوم القيامة.[1]

ب- استخدام لفظة (السيد):

وتكرّرت كثيرًا، فعلى سبيل المثال عند إعلان الإمام الحسين ﷺ بأنَّ القوم يريدوه فكلّ من معه في حلٍّ وليذهبوا إذا أرادوا الذهاب، فقام إليه العبّاس وعلي ابنه، وبنو عقيل، فقالوا له: معاذ الله والشهر الحرام، فماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم، إنَّا تركنا سيدنا، وابن سيّدنا وعمادنا، وتركناه غرضًا للنبل، ودريئة للرماح، وجزرًا للسباع، وفررنا عنه رغبة في الحياة، معاذ الله، بل نحيا بحياتك، ونموت معك فبكى وبكوا عليه، وجزاهم خيرًا.[2]

وعندما قال العباس ﷺ لإخوته عبد الله، وجعفر، وعثمان، بني علي ﷺ، عند المعركة: تقدَّموا، بنفسي أنتم، فحاموا عن سيّدكم حتّى تموتوا دونه. فتقدَّموا جميعًا، فصاروا أمام الحسين ﷺ يقونه بوجوههم ونحورهم.[3]

من المهم ذكر ما يأتي من النقاط لتوضيح ما سبق من الرّوايات:

١- ندرك تمامًا أنَّ العباس ﷺ قد استعمل اللفظتين معًا (السّيّد والأخ) في بعض المواقف كما هو الحال عند مناداة الشّمر -عليه اللعنة- يا بني أختي لا تقتلوا أنفسكم مع أخيكم الحسين والزموا طاعة أمير المؤمنين يزيد وذلك عند عرض الأمان، قال له العباس -سلام الله عليه-: تبًّت يداك يا عدوّ الله أتأمرنا أن نترك سيّدنا وأخانا وندخل في طاعة اللعناء وأولاد اللعناء.

فقد قدَّم لفظة السّيّد على الأخ ولعلَّه بذلك أراد أن يؤكِّد أنَّ الأمر لقائده وولي أمره الذي هو أخوه -سلام الله عليه-، وكان بإمكانه أن يكتفي بقوله(سيّدنا) إلا أنَّه ﷺ أراد أن يخاطب هذا الملعون - الشمر- بلغة يفهمها ولا سيما أنَّه جاء بعرض الأمان من باب صلة الرحم التي تربطه بهم، وتعزيزه لمنطلق الجاهلية التي لا يقرّها العباس ﷺ، وتكرّرت هذه الحالة غير مرّة ولاسيّما عند طلب العباس ﷺ رخصة النزول للقتال في آخر المعركة. وكأنَّ لسان حال العباس لا يستطيع أن ينطق بلفظة(أخي) وحدها لعظمة الحسين وشدة احترامه له، وعمق التربية الأصيلة التي زرعتها أمّهم الطاهرة أم البنين -سلام الله عليها- بأنَّهم يتعاملون مع أخيهم السّيّد وليس الأخ فحسب.

٢- لو حدَّدنا بشكلٍ دقيق الظّروف التي أحاطت بالعباس ﷺ نرى أنَّ طبيعة الموقف هي من حددت

(١) الشيخ الصدوق، الأمالي، ص٥٤٨؛ الخصال، ص٦٨، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٢، ص ٢٧٤؛ الحائري، بلاغة الإمام علي بن الحسين ﷺ، ص ٢٣٥.

(٢) أبو الفرج الاصفهاني: علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن (ت، ٣٦٥هـ)، مقاتل الطالبيين، تقديم وإشراف: كاظم المظفر، ط٢، (النجف الشرف- ١٩٦٥)، ص٧٥؛ الحسن، ليلة عاشوراء في الحديث والأدب، ص ٢٤.

(٣) ابن قتيبة الدينوري: حمد بن داوود (ت، ٢٨٢هـ)، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، (القاهرة- ١٩٦٠)، ص ٢٥٧ – ٢٥٨.

استعمال اللفظة -السيد والأخ- فعندما يستوجب الأمر أن يتعزّز في النفس مبدأ الدِّفاع عن قائدهم سرعان ما يستخدم لفظة (سيد)، وعلى سبيل المثال عندما قدَّم إخوته للقتال مشجّعًا إيّاهم قائلاً: « فحاموا عن سيّدكم حتَّى تموتوا دونه» وهو اللفظ الأنسب في هكذا مواقف إذ حمى وطيس المعركة واشتدّ قتالها.

٣- لاحظنا أنَّه عند مجيء وفدٍ من معسكر النّفاق ورؤية العباس ﷺ لهم، وبما أنَّ الوقت ليس وقت معركة وإنَّما وقت الاستعداد لها لذا فقد عمد العباس -سلام الله عليه- إلى استعمال لفظة أخي لما في ذلك من وقعٍ وتأثيرٍ محبّب في نفس الحسين -سلام الله عليه- يخلق شعورًا خاصًّا من قوة القرب بينهما.

لذا طلب منه الإمام الحسين ﷺ أن يذهب لملاقاتهم مستعملًا لفظة (أخي) نفسها، والتي استعملها دائمًا عند مخاطبة أخيه العباس قائلاً « اِركب بنفسي أنت يا أخي حتى تلقاهم»، وكذا عندما جاءه سهم وأصاب صدره الشريف، وانصرع عفيرًا على الأرض يخور في دمه فما كان النداء إلَّا وا أخاه، وتكرّر مثل ذلك عند مصرعه الشريف ورؤية أخيه الحسين ﷺ وهو جالس عند رأسه الشريف.

٤- لو ركّزنا أكثر نلاحظ أنَّه طالما كان الموقف الذي يجمع العباس بالحسين ﷺ مع الآخرين ولم يكونا وحدهما فإنَّ اللفظة المستعملة من العباس هي(السّيّد)، ولاسيّما عند إثارة لهيب الحماس وبيان المواقف أمام الملأ، فعلى سبيل المثال عند إعلان الإمام الحسين ﷺ بأنَّ القوم يريدوه فكلّ من معه في حلٍّ، وليذهبوا إذا أرادوا الذهاب، كانت لفظة العبّاس المستعملة هي لفظة (السيد) إذ قال: فماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم، إنا تركنا سيّدنا، وابن سيدنا وعمادنا.

وللبحث بقية....

دفن الإمام الحسين عليه السلام والأجساد الطَّاهرة

الشيخ علي التميمي

من القواعد العامَّة والثَّابتة عند الشيعة أنَّ المعصوم لا يجهّزه، ولا يدفنه إلَّا معصوم مثله، فرسول الله صلى الله عليه وآله مثلاً جهّزه ودفنه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وكذلك سيّدة النساء فاطمة عليها السلام قام الإمام عليه السلام بغسلها وتجهيزها ودفنها ليلاً وعفًّا موضع قبرها حسب وصيّتها عليها السلام، والإمام علي عليه السلام جهّزه ودفنه ابنه الإمام الحسن عليه السلام ... وهكذا كلّ إمام أو معصوم قام بتجهيزه المعصوم الآخر.

ولكن اليوم نجد بعض الناس يشكّك في هذه القضيّة، وخاصّة دفن الإمام الحسين-صلوات الله عليه-، لذلك سنحاول أن نجيب عن هذه الإشكالات بشكلٍ مختصرٍ بعد ذكر أهمّ القواعد التي تُبيّن أنَّ الإمام لا يغسّله إلَّا إمام مثله.

ولكن قبل الدخول في الإجابة نجيب عن قضية سبب تأخّر دفن الإمام الحسين عليه السلام.

ويمكن الجواب عن ذلك بعدّة وجوه محتملة وهي كما يأتي:

أوَّلاً: إنَّ في ذلك ابتلاءً للإمام الحسين عليه السلام، مما ينتج له أخص الدّرجات العالية، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله من أنَّه قال للحسين عليه السلام ما مضمونه: « إنَّ لك مقامات في الجنَّة لا تنالها إلَّا بالشهادة»[1].

ثانيًا: إنَّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام قد اتسعت رقعتها؛ وذلك لإعطائها الزَّخم المكثّف الذي يعطيها من القواعد العامَّة والثَّابتة عند الشيعة أنَّ المعصوم لا يجهّزه، ولا يدفنه إلَّا معصوم مثله، فرسول الله صلى الله عليه وآله مثلاً جهّزه ودفنه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وكذلك سيّدة النساء فاطمة عليها السلام قام الإمام عليه السلام بغسلها وتجهيزها ودفنها ليلاً وعفا موضع قبرها حسب وصيّتها عليها السلام، والإمام علي عليه السلام جهّزه ودفنه ابنه الإمام الحسن عليه السلام ... وهكذا كلّ إمام أو معصوم قام بتجهيزه المعصوم الآخر.

ولكن اليوم نجد بعض الناس يشكّك في هذه القضيّة، وخاصّة دفن الإمام الحسين-صلوات الله عليه-، لذلك سنحاول أن نجيب عن هذه الإشكالات بشكلٍ مختصرٍ بعد ذكر أهمّ القواعد التي تُبيّن أنَّ الإمام لا يغسّله

(١) الأمالي للشيخ الصدوق: ص١٥٢ المجلس ٣٠.

إلَّا إمام مثله. ولكن قبل الدخول في الإجابة نجيب على قضية سبب تأخّر دفن الإمام الحسين عليه السلام.

ويمكن الجواب عن ذلك بعدّة وجوه محتملة وهي كما يأتي:

أوَّلاً: إنَّ في ذلك ابتلاءً للإمام الحسين عليه السلام، مما ينتج له أخصّ الدّرجات العالية، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله من أنَّه قال للحسين عليه السلام ما مضمونه: « إنَّ لك مقامات في الجنَّة لا تنالها إلَّا بالشهادة»[1].

ثانيًا: إنَّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام قد اتسعت رقعتها؛ وذلك لإعطائها الزَّخم المكثّف الذي يعطيها أسباب البقاء والخلود ظاهرًا وباطنًا.

فإنَّنا إذا نظرنا إلى الجنبة العاطفية، وهي جنبة مهمّة وحيويّة من أجل إعطائها الديمومة والخلود بهذه القوة المتجدّدة. فإنَّنا نجد أنَّها أشبعت بالكثير من المواقف التي تثير العاطفة والبكاء. وهذه المواقف العاطفية المنتجة للجذب تجاه هذه النَّهضة المباركة بكلِّ تفاصيلها العظيمة، مكثّفة ومركّزة. سواء في ذلك ما كان في يوم عاشوراء أو قبل ذلك أو بعده. فيكون تأجيل الدَّفن داخلاً في هذا المستوى من التّفكير. وهي مصيبة عظيمة باستقلالها تظهر مدى الظّلم الذي وقع على الإمام عليه السلام وما تحمّله في سبيل الله -عز وجل-.

ثالثًا: إنَّ في ذلك ابتلاءً وامتحانًا لعائلة الإمام الحسين عليه السلام الذين تحمّلوا مسؤولياتهم بعد واقعة الطَّف، بما فيهم الإمام السّجّاد عليه السلام. فإنَّهم مرّوا بصعوبات ومصائب قلَّ نظيرها، وكلُّ ذلك ينتج لهم مقاماتهم الخاصّة التي ادّخرها الله -تعالى- لهم بسبب مساهمتهم في نهضة الإمام الحسين عليه السلام، ولما فتحه الإمام الحسين عليه السلام لهم من الفرصة الفريدة؛ لينهلوا من ذلك العطاء الخاص كلٌّ بحسبه واستحقاقه. ومن تلك الفجائع التي ابتلوا بها هي أن يتركوا سيّدهم وإمامهم وحبيبهم مقطّعًا على ثرى الطّف، بعد أن مرّوا بهم على جسده الطاهر، وساروا بهم إلى الكوفة وعيونهم ترنو نحو المصرع، بتلك الحالة التي أبكت الحجر دمًا، فكيف بهم وقد عاشوا في كنفه وتحت ظلّه ردحًا طويلاً من الزمن، يحنو عليهم بعطفه وحنانه، ويمدّهم بالتربية المركزة علمًا وعملاً.

وبعد هذه المقدمة نرجع إلى الرّوايات، وهي على ثلاث طوائف:

الأولى: الرّوايات التي نصّت على أنّ (الإمام لا يجهّزه إلّا إمام):

وردت مجموعة من الرّوايات المتضافرة تنصّ على أنّه من خصوصيّات المعصوم أنّه لا يغسّله ويدفنه إلّا معصوم مثله، وعلى سبيل المثال نأخذ رواية أبي بصير، قال: موسى بن جعفر عليه السلام: « فيما أوصاني به أبي أن قال: يا بني إذا أنا متّ فلا يغسّلني أحد غيرك فإنّ الإمام لا يغسّله إلّا إمام مثله»[2].

---

(١) الأمالي للشيخ الصدوق: ص١٥٢ المجلس ٣٠.

(٢) القطب الراوندي في الخرائج والجرائح: ١/ ٢٦٤ .

ومن هنا نجد أنَّ العلماء الأعلام والمحدثين والمؤرّخين قد سلّموا بهذه القضية ودانوا بها:

منهم ثقة الإسلام الكليني الذي جعل بابًا في كتاب الكافي ١/ ٣٨٥ أسماه (أنّ الإمام لا يغسّله إلّا إمام من الأئمّة عليهم السلام).

ومنهم العلامة المجلسي حيث جعل بابًا في بحار الأنوار ٢٧/ ٢٩٠ أسماه (أنّ الإمام لا يغسّله ولا يدفنه إلّا إمام).

وعليه فالأمر الذي ننطلق منه هو (الإمام لا يغسله ويجهزه ويدفنه إلّا إمام مثله) فلابُدَّ أن يكون الإمام الحسين عليه السلام قد غسّله ودفنه إمام مثله.

ثانيًا: الرّوايات التي نصّت على مشاركة رسول الله صلى الله عليه وآله في دفن الأجساد:

وردت مجموعة من الرّوايات تنصّ على وجود العامل الغيبي في عمليّة دفن أجساد شهداء الطف عليهم السلام تمثّل في حضور النّبي المصطفى صلى الله عليه وآله والملائكة الكرام نذكر منها:

عن غياث بن إبراهيم، عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام قال: أصبحتْ يومًا أم سلمة -رحمها الله- تبكي، فقيل لها: ممَّ بكاؤكِ؟ فقالت: لقد قتل ابني الحسين عليه السلام الليلة، وذلك إنَّني ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله منذ قبض إلَّا الليلة، فرأيته شاحبًا كئيبًا، فقلت: ما لي أراك يا رسول الله شاحبًا كئيبًا؟ قال: ما زلت الليلة أحفر قبورًا للحسين وأصحابه عليهم السلام»[1].

ووجه الدلالة في الرّواية نصّ النبي المصطفى صلى الله عليه وآله على حفره قبورًا للحسين -صلوات الله عليه - وأصحابه عليهم السلام.

وعن ابن عباس قال: « فلمَّا كانت الليلة رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في منامي أغبر أشعث، فذكرت له ذلك وسألته عن شأنه، فقال لي: ألم تعلمي أنِّي فرغت من دفن الحسين وأصحابه»[2].

والرواية صريحة في مشاركة النبي صلى الله عليه وآله في دفن الحسين عليه السلام وأصحابه.

تكمن أهمّيّة هذه الروايات في أنّ هناك جانبًا غيبيًّا في قضيّة دفن الأجساد الطاهرة ولم تكن القضية طبيعية كما يحاول تصويرها بعض الناس، حيث إنَّ القبور كانت من رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثالثًا: الرّوايات التي نصّت على مباشرة السّجّاد عليه السلام لدفن الأجساد:

صرّحت بعض الرّوايات المسندة إلى المعصومين عليهم السلام على أنَّ الإمام زين العابدين عليه السلام قد تولّى دفن الأجساد الطاهرة نذكر منها:

في رواية طويلة: ... علي بن أبي حمزة البطائني: إنّا روينا عن آبائك أنَّ الإمام لا يلي أمره إلّا إمام مثله؟ فقال له أبو الحسن عليه السلام: فأخبرني عن الحسين بن علي عليهما السلام كان إمامًا أو كان غير إمام؟ قال: كان إمامًا، قال: فمن ولي أمره؟

---

(١) أمالي المفيد: ٣١٩.

(٢) الشيخ الطوسي في الأمالي: ٣١٥.

قال: علي بن الحسين، قال: وأين كان علي بن الحسين ﷺ؟ قال: كان محبوسًا بالكوفة في يد عبيد الله بن زياد، قال: خرج وهم لا يعلمون حتى ولي أمر أبيه ثم انصرف؛ فقال له أبو الحسن ﷺ: إنَّ هذا أمكن علي بن الحسين ﷺ أن يأتي كربلاء فيلي أمر أبيه، فهو يمكن صاحب هذا الأمر أن يأتي بغداد فيلي أمر أبيه ثم ينصرف وليس في حبس ولا في أسار[1].

وهذه الرّواية نصّ في أنَّ الذي تولّى دفن الإمام الحسين ﷺ هو الإمام السجاد -سلام الله عليه- عن طريق المعجزة!

شبهات وردود:

ذكر هؤلاء القوم بعض الإشكالات حول التّمسّك بهذه الرّوايات:

الشّبهة الأولى: أنَّ الأحاديث التي احتججنا بها ضعيفة السَّند، وقد تكفّل بعضهم بمناقشة بعضها، وأثبت ضعف بعض رجالها!

والجواب:

إنَّ نقاش الأسانيد بهذه الصّورة يدلّ على جهل بأبجديّات البحث العلمي، إذ إنَّ الاعتبار التاريخي يختلف عن الاعتبار الفقهي، فالتقسيم الرباعي ونقاش الأسانيد بالصّورة المعهودة خاصّ بالأحاديث التي احتوت أحكامًا إلزاميّة، أمَّا القضايا التاريخية فآليّات بحثها تختلف عن ذلك؛ وفي هذا يقول الشيخ كاشف الغطاء: نعم، خبر زيد بن أرقم وابن وكيدة كلاهما في بعض الكتب المعتبرة، والمراد هنا الاعتبار التاريخي، لا الاعتبار الذي عليه المدار في الأخبار التي يُستنبط منها الأحكام الشرعية من الصحيح والحسن والموثَّق، بل هو من قبيل قولنا: تاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير معتبران؛ ويكفي في هذا المعنى من الاعتبار للخبر أن ينقله مثل صاحب البحار والطريحي في المنتخب فضلاً عما رواه السيد ابن طاووس في اللهوف، أو الشيخ المفيد في الإرشاد[2].

إنَّ تعدّد الطرق واختلاف المصادر له مدخلية في توريث الاطمئنان عند الباحث خصوصًا إذا بلغت الكثرة إلى درجة الاستفاضة، وقد اتبع هذا المنهج السيد الخوئي(قدس سره) في أكثر من مورد في معجمه:

قال في ترجمة زيد الشهيد ﷺ: إنَّ استفاضة الرّوايات أغنتنا عن النظر في إسنادها وإن كانت جلّها بل كلّها ضعيفة أو قابلة للمناقشة، على أنَّ فيما ذكرناه أوّلاً غنيّ وكفاية، ومن أراد الاطلاع عليها فليراجع كتابَيْ: الأمالي والعيون للصدوق[3].

الشُّبهة الثَّانية: إنَّ هذه الرّوايات تُعارض ما نقله أغلب قدماء المؤرّخين من أنَّ الذين تولّوا دفن الإمام الحسين

---

(١) رجال الكشي (اختيار معرفة الرجال)، ص ٧٦٤.

(٢) جنة المأوى: ص ٢٢٢.

(٣) معجم رجال الحديث: ٨/ ٣٦٠.

عليه السلام هم بنو أسد، بل تعارض الرّوايات التي نصّت على أنّ هناك من دفنه من غير الإمام عليه السلام:

منها ما ورد: ثمَّ يبعث الله قومًا من أمّتك لا يعرفهم الكفّار لم يشركوا في تلك الدّماء بقول ولا فعل ولا نيّة، فيوارون أجسامهم، ويقيمون رسمًا لقبر سيد الشهداء بتلك البطحاء يكون علمًا لأهل الحق[1].

والجواب:

لم ينازع أحد في دفن بني أسد للإمام الحسين عليه السلام بل خلافنا هو حول حضور الإمام السجاد عليه السلام عند الدفن ومشاركته في ذلك، وعليه فلا يوجد تنافي بين نصوص المؤرّخين وبين الرّوايات التي ذكرناها إذ لا تعارض بين المثبتات، فما أثبته المؤرخون لا ننفيه وما نثبته لا ينفي ما أثبته المؤرخون.

علمًا أنَّ كلّ من تعرّض لقضية الدفن من المؤرخين لم يذكر تفاصيل ما حصل بل أجمل، أمَّا الروايات المسندة التي ذكرت في كتب الخاصة نقلت تفاصيل دقيقة لهذه الحادثة خصوصًا ما يتعلّق بالقضايا الغيبيّة.

الشُّبهة الثَّالثة: أنّ قدوم الإمام السجاد عليه السلام من الكوفة كان بمعجزة، والحال أنَّ كلّ قضيّة كربلاء كانت بشرية ولم تحصل فيها كرامات ومعجزات.

والجواب:

لا يمنع أن يكون هذا الفعل معجزة فإنَّ النّبي أو الإمام لا يُغسّله إلَّا إمام صحيحة ولها جذور في الكتب المقدَّسة منها:

(فكانت كلّ أيّام آدم التي عاشها تسعمائة وثلاثين سنة، ومات فدفنه ابنه شيث)[2]. وهو الوصي من بعده كما تنص التوراة.

وهكذا شيث الوصي عليه السلام مات فدفنه وصيّه أخوه آنوش عليه السلام. إلى زمن نوح عليه السلام الذي مات فدفنه أوصياؤه أبناؤه سام ويافث عليهما السلام. وإلى زمن نبي الله إبراهيم عليه السلام الذي مات ودفنه وصيه إسماعيل عليه السلام وإسحاق[3] عليه السلام. وموسى عليه السلام أيضًا دفنه وصيّه يوشع عليه السلام[4]. وهكذا الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله دفنه وصيه الإمام علي عليه السلام.

وأمير المؤمنين علي عليه السلام دفنه الإمام الحسن عليه السلام وهكذا يستمر الامتداد الطبيعي لعملية دفن المعصوم فيدفن الإمام السجاد الإمام الحسين عليهما السلام.

الشّبهة الرَّابعة: إنَّ من الثابت الذي لا ريب فيه أنَّ الإمام السجاد عليه السلام كان في الأسر ضمن عائلة الحسين عليه السلام

---

(١) كامل الزيارات للشيخ الأقدم ابن قولويه: ص ٤٤٤.

(٢) سفر التكوين: ٥/ ٥.

(٣) سفر التكوين: ٢٥/ ٩.

(٤) كما نرى ذلك في سفر التثنية: ٣٤/ ٥.

ابتداءً من مساء يوم العاشر إلى ما يربو على الشهر فكيف تسنَّى له الإفلات من قبضة الأمويين والعودة إلى كربلاء لمواراة والده الحسين ﷺ ومَن كان معه من الشهداء.

الجواب: إنَّ هذا الإشكال لا يسترعي كثيرًا من العناء بعد الإيمان بإمامة السّجَّاد ﷺ وموقعه السامي عند الله -تعالى-، وقديمًا تجلَّت قدرةُ الله -تعالى- على أيدي أوليائه الذين اصطفاهم أدلّاءَ عليه في خلقه، فليس بمستغربٍ أو مُستوحَشٍ أو يهيّئ اللهُ لوليِّه سيِّد الساجدين ما يتمكَّن به من التخلُّص من أسر أعداء الله والوصول إلى كربلاء لمواراة صفيِّه ونجيبه الذي بذل كلَّ ما لديه من أجل أنْ تكون كلمةُ الله هي العليا.

فهو تعالى مَن خلَّص يونس من بطن الحوت وقد كان قد مكث فيه دهرًا (**وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**)[1] ولولا أنَّه كان من المسبحين للبث في بطنِه إلى يوم يبعثون.

وهو تعالى مَن هيَّأ لجليس نبيِّ الله سليمان ﷺ ما يتمكَّن به من أنْ يأتي بعرش بلقيس قبل أنْ يقوم سليمانُ من مقامه، وهيّأ لآصف بن برخيا أن يأتي بعرش بلقيس قبل أن يرتدَّ لسليمانَ ﷺ طرفهُ[2]، فلم يكن الأول نبيًّا ولا كان الآخر نبيًّا نعم كانا من أولياء الله وخالصة خلقه الذين منحهم من قدرته وأفاض عليهم من جلال عظمته.

فإذا جاز أن يتجلَّى شيءٌ من قدرته تعالى على أيدي مَن سبق من أوليائه فلماذا يمتنع ذلك على من لحق من نجبائه وأصفيائه الذين ارتضاهم لدينه وجعلهم الذريعةَ إليه والوسيلةَ إلى رضوانه، ولو كنّا بصدد الحديث حول الإمام زين العابدين ﷺ لأفضنا في نقل ما تواتر عن الثقاة من عجيب ما كان يجري على يديه من معاجز وكراماتٍ إلّا أنَّ من شاء الوقوف على ذلك فلن يجد عناءً يُذكر.

---

(١) سورة الأنبياء/ آية ٨٨.

(٢) (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) النمل ٤٠- ٣٨.

أهمية الصحيفة السجادية في السلامة النفسية للفرد والمجتمع

أ.د. نجم عبدالله الموسوي

لا يمكن أن يشكّ أحدٌ أنَّ القرب من الله (تعالى) هو أحد، بل أهم مقوِّمات تحقيق الاطمئنان النفسي، بل أنَّ الدراسات والبحوث النفسية الجديدة أملت وأكَّدت في كثير من نتائجها أنَّ للعبادة دورًا مهمًّا وحيويًّا في إعطاء سمة الاستقرار النفسي، والهدوء الوجداني للأفراد.

ولا بد من بيان أنَّ الجانب السيكولوجي (النفسي) للإنسان شأنه شأن الجانب البيولوجي يتعرّض إلى علل وتوعّك واضطراب، وأنَّ الأمراض النفسية تكاد تكون أخطر من الأمراض الجسدية لأسباب عديدة يطول المقام لذكرها هنا، واكتفي ببيان أنَّ هناك العديد من الأمراض الجسدية ذات منشأ نفسيّ، وتأتي خطورة المرض النفسي أن لا يؤثر على الشخص نفسه بل يترك تأثيره الجانبي على الآخرين، أضف إلى ذلك الأمراض النفسية تحتاج إلى وقت طويل الأمد للعلاج.

فمثلما وجَّهنا الله -تعالى- إلى كثير من الأحكام الشرعية الفقهية التي إن التزم بها الإنسان حفظت صحته من الأمراض والأوبئة نرى أنَّ البناء النفسي السليم للمسلم أخذته السماء بعين الاعتبار ووجهت إلى حفظه وصيانته مما يعتريه من خلل واضطراب ووجل، قال -تعالى-: (**الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**)[1].

ويمكن القول إنَّ القرب من الله (تعالى) يجلي هموم الإنسان وآلامه وأوجاعه، ويؤكِّد للإنسان ذاته الضّائعة في خضم الدنيا المليئة بالمادّيّات التي لوّثت فطرته، وبالعودة والرجوع إلى الله (تعالى) تستقرّ الأنفس، وتهدأ الذات، وتذهب الأدران، وتتهذّب وتسمو الأرواح، وتنشرح الصدور، ومن وسائل القرب إلى الله -تعالى- والإيمان بقدرته في إنقاذ الفرد وحفظه من موبقات الدنيا ومخاوفها هو الدعاء.

---

(١) سورة الرعد، الآية ٢٨.

وليس من شك في أنَّ الدعاء احتلّ مكانة مرموقة في خصوصيّات النبي الأكرم وأهل بيته -صلوات الله عليهم- وأنَّ الصحيفة السجادية من أبرز كتب الدعاء بل إنَّها ميراث أكبر أورثه الإمام السجاد علي بن الحسين عليهما السلام إلى شيعته ومواليه، وإلى المسلمين عامَّة.

المتصفّح لهذه الصحيفة المباركة المقدَّسة يراها قد نظمت بإطار تربويّ ونفسيّ، وأنَّ مبدعها ليس إنسانًا عاديًّا، ففي طيَّاتها بناء للنفس الإنسانية، فهي أتقنت هندسة صناعة الإنسان وبناء ذاته وتحقيق سلامته من قاذورات الذّنوب والابتعاد عن الله تعالى، فكأنّ همَّ الإمام عليه السلام في أدعيته هو الشغل الشاغل له؛ إيمانًا واعتقادًا بأهمية الدعاء، يتقرَّب به العبد إلى ربِّه ويصلح به سريرته، ويكسب سلامة نفسه.

وفيما يأتي أهم المرتكزات الأساسية التي في مجال البناء النفسي السليم للفرد المسلم:

١. لقد نجح الإمام السجاد عليه السلام في صحيفته المقدَّسة أن يعيد النّفوس الضّالّة إلى الله الذي لا يمكن للإنسان أن يحقق السعادة التي ينشدها في الدنيا والآخرة إلّا بالرجوع والرغبة إليه والشعور بوجود الباري -جلّت قدرته-، ومن دعائه في طلب الحوائج قوله: (**فَقَصَدْتُكَ يا إِلهِي بِالرَّغْبَةِ، وَأَوْفَدْتُ عَلَيْكَ رَجَائِي بِالثِّقَةِ بِكَ، وَعَلِمْتُ أَنَّ كَثِيرَ مَا أَسْأَلُكَ يَسِيرٌ فِي وُجْدِكَ، وَأَنَّ خَطِيرَ مَا أَسْتَوْهِبُكَ حَقِيرٌ فِيْ وُسْعِكَ، وَأَنَّ كَرَمَكَ لاَ يَضِيقُ عَنْ سُؤَالِ أَحَد، وَأَنَّ يَدَكَ بِالْعَطايا أَعْلَى مِنْ كُلِّ يَد. أَللَهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ وَاحْمِلْنِي بِكَرَمِكَ عَلَى التَّفَضُّلِ، وَلاَ تَحْمِلْنِي بِعَدْلِكَ عَلَى الاسْتِحْقَاقِ، فَما أَنَا بِأَوَّلِ رَاغِبٍ رَغِبَ إِلَيْكَ فَأَعْطَيْتَهُ وَهُوَ يَسْتَحِقُّ الْمَنْعَ، وَلاَ بِأَوَّلِ سَائِلٍ سَأَلَكَ فَأَفْضَلْتَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَسْتَوْجِبُ الْحِرْمَانَ... **)[1].

حرص الإمام السجاد عليه السلام على أن تكون أدعيته المباركة منوّعة وشاملة لكثير من المواقف الدينية والدنيوية فنجد أنَّ هناك أدعية مخصوصة لأوقات معيَّنة من جانب، ونرى أنَّ هناك أدعية خاصة لمواقف متنوعة لا تخلو منها حياة الإنسان، استشعارًا منه عليه السلام بأنَّ لكلِّ ظرف دعاء خاص به يركن إليه الفرد المسلم معتمدًا فيه على الله -تعالى-، والذي يراجع الصحيفة السّجّادية المقدّسة يجد ما يريد من أدعية متنوّعة متعدّدة.

٣. اتسمت الأدعية المباركة في الصحيفة السجادية بكونها الأداة التي من خلالها يحقّق الدَّاعي قربه من الله -تعالى-؛ لأنَّها لم تكن أدعية عابرة بل كانت ممنهجة وعلمية وموضوعية ومرتبة أخذ فيها الإمام السجاد عليه السلام بكلِّ متطلّبات العبودية الحقة لله جلّت قدرته، وأوسمها بسمة المعصوم من حيث الحب الإلهي الحقيقي الصادق وذل العبد المطيع لله -سبحانه وتعالى-، فالمتصفّح لأسطر هذه الصحيفة المقدَّسة يشعر أنَّه قريب من الله -تعالى- ولا تحجزه الحواجز ولا تحجبه الحجب، وكلَّما اقترب العبد إلى مولاه كلَّما استبشر وفرح واطمأنّت

(١) الصحيفة السجادية المؤلف: علي بن الحسين عليه السلام، (ت ٩٤ أو ٩٥ هـ) الناشر: نشر الهادي، قم، ت: ١٤١٨ هـ، ط: الأولى/ ص ٧٠.

نفسه، وهدأت جوارحه، وسكنت آلامه وأوجاعه، وشعر برضا مولاه عنه، ومن دعائه ﷺ في التحميد لله عز وجل: (**وَالْحَمْد لله بِكُلِّ مَا حَمِدَهُ بِهِ أَدْنَى مَلائِكَتِهِ إِلَيْهِ وَأَكْرَمُ خَلِيقَتِه عَلَيْهِ، وَأَرْضَى حَامِدِيْهِ لَدَيْهِ، حَمْداً يَفْضُلُ سَآئِرَ الْحَمْدِ كَفَضْلِ رَبِّنا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ. ثُمَّ لَهُ الْحَمْدُ مَكَانَ كُلِّ نِعْمَة لَهُ عَلَيْنَا وَعَلى جَمِيعِ عِبَادِهِ الْمَاضِينَ وَالْبَاقِينَ عَدَدَ مَا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ مِنْ جَمِيعِ الاشْيَآءِ، وَمَكَانَ كُلِّ وَاحِدَة مِنْهَا عَدَدُهَا أَضْعافاً مُضَاعَفَةً أَبَداً سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، حَمْداً لاَ مُنْتَهَى لِحَدِّهِ وَلا حِسَابَ لِعَدَدِهِ وَلاَ مَبْلَغَ لِغَايَتِهِ وَلا انْقِطَاعَ لاَمَدِهِ، حَمْداً يَكُونُ وُصْلَةً إِلَى طَاعَتِهِ وَعَفْوِهِ، وَسَبَباً إِلَى رِضْوَانِهِ وَذَرِيعَةً إِلَى مَغْفِرَتِهِ وَطَرِيقاً إِلَى جَنَّتِهِ، وَخَفِيْراً مِنْ نَقِمَتِهِ، وَأَمْناً مِنْ غَضَبِهِ، وَظَهِيْراً عَلَى طَاعَتِهِ، وَحَاجِزاً عَنْ مَعْصِيَتِهِ وَعَوْناً عَلَى تَأْدِيَةِ حَقِّهِ وَوَظَائِفِهِ، حَمْداً نَسْعَدُ بِهِ فِي السُّعَدَاءِ مِنْ أَوْلِيَآئِهِ وَنَصِيرُ بِهِ فِي نَظْمِ الشُّهَدَآءِ بِسُيُوفِ أَعْدَائِهِ إِنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيدٌ**)[1].

٤. قيَّدت الصحيفة السجادية بمضامين أدعيتها المباركة المادية البحتة التي يعيشها الإنسان وكشفت الحقيقة الصادقة بضرورة الاتكال على الله -سبحانه وتعالى- في مجالات الحياة كافَّة، وفي الوقت نفسه أرادت هذه الأدعية أن تعلم الإنسان أن يعتمد على السماء في كلِّ حركاته وسكناته بكونها المصدر المطلق الذي بيده نواصي الأمور؛ لأنَّها المسدّد الوحيد لخطى الإنسان في الوجود، ومن دعائه في الإلحاح: (**أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، وَأَنْ تُغْنِيَنِي عَنْ كُلِّ شَيْء بِعِبادَتِكَ، وَأَنْ تُسَلِّيَ نَفْسِيْ عَنِ الدُّنْيَا بِمَخَافَتِكَ، وَأَنْ تُثْنِيَنِي بِالْكَثِيْرِ مِنْ كَرَامَتِكَ بِرَحْمَتِكَ، فَإِلَيْكَ أَفِرُّ، ومِنْكَ أَخَافُ، وَبِكَ أَسْتَغِيثُ، وَإِيَّاكَ أَرْجُو، وَلَكَ أَدْعُو، وَإِلَيْكَ أَلْجَأُ، وَبِكَ أَثِقُ، وَإِيَّاكَ أَسْتَعِينُ، وَبِكَ أُؤمِنُ، وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ، وَعَلَى جُودِكَ وَكَرَمِكَ أَتَّكِلُ ...**)[2].

٥. أكَّد الإمام السجاد ﷺ في أدعيته أهمية الجانب (الديني أو الإسلامي) وهو جزء من الجانب العاطفي في حياة الإنسان أو ما يُسمّى بالجانب الوجداني من حيث بنائه أو إيقاظه، فالعديد من الدراسات النفسية الآن ترى أنَّ الجانب الوجداني للإنسان يجب أن يفعّل شأنه شأن الجانب العقلي أو غيره من الجوانب، وأنَّه كلَّما زادت وجدانية الإنسان زادت إنسانيته وسمت أخلاقه وتهذّبت طباعه وصفت نفسه، ومن دعائه ﷺ في التحميد لله-عز وجل-: (**وَالحَمْدُ لله الذِي لَوْ حَبَسَ عَنْ عِبادِهِ مَعْرِفَةَ حَمْدِهِ عَلى ما أَبْلاهُمْ مِنْ مِنَنِهِ الْمُتَابِعَةِ؛ وَأَسْبَغَ عَلَيهِمْ مِنْ نِعَمِهِ الْمُتَظاهِرَةِ؛ لَتَصَرَّفُوا في مِنَنِهِ فَلَمْ يَحْمَدُوهُ؛ وَتَوَسَّعُوا في رِزْقِهِ فَلَمْ يَشْكُرُوهُ، وَلَوْ كانُوا كَذلِكَ لَخَرَجُوا مِنْ حُدُودِ الإِنْسانِيَّةِ إِلى حَدِّ البَهِيمِيَّةِ. فَكانُوا كَما وَصَفَ في مُحْكَمِ كِتابِهِ: (إِنْ هُمْ إِلاّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً). والحَمْدُ لله عَلى ما عَرَّفَنا مِنْ نَفْسِهِ وَأَلْهَمَنا مِنْ شُكْرِهِ؛ وَفَتَحَ لَنا مِنْ أَبْوَابِ العِلْمِ بِرُبُوبِيَّتِهِ**

---

(١) الذريعة إلى حافظ الشريعة (شرح أصول الكافي للجيلاني)، الجيلاني، رفيع الدين محمد بن محمد المؤمن، الناشر: دار الحديث إيران؛ قم، ت: ١٤٢٩ هـ ط: الأولى/ ج١/ ص ٤٤.

(٢) الصحيفة السجادية، ص ٢٥٦.

وَدَلَّنَا عَلَيْهِ مِنَ الإخْلاصِ لَهُ فِي تَوْحيدِهِ؛ وَجَنَّبَنا مِنَ الإلْحادِ وَالشَّكِّ فِي أَمْرِهِ، حَمْداً نُعَمَّرُ بِهِ فيمَنْ حَمِدَهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَنَسْبِقُ بِهِ مَنْ سَبَقَ إلى رِضاهُ وَعَفْوِهِ؛ حَمْداً يُضيءُ لَنا بِهِ ظُلُماتِ البَرْزَخِ؛ وَيُسَهِّلُ عَلَيْنا بِهِ سَبيلَ المَبْعَثِ، وَيُشرِّفُ بِهِ مَنازِلَنا ...)[1] .

٦. إنَّ الإمام ﷺ أراد بمجمل أدعيته المباركة أن يحقّق التوازن النسبي بين الحالة النَّفسية والحالة الجسدية، فالحالة النفسية والهموم مصدر لكثير من الأمراض الجسديَّة، فكلّما هدأت النَّفس واستقرّت أثّرت إيجابًا على الجسم أجمعه، فالإنسان المؤمن يبتعد عن كلِّ المثيرات الخارجية التي تسلب منه نعمة الصفاء الذّهني والرّوحي، وتعسر نفسه، وتضيق صدره، وتعذّب أفكاره، وتزيد هواجسه، ومن دعائه في استكشاف الهموم: (**يَا فَارِجَ الْهَمِّ وَكَاشِفَ الغَمِّ، يَا رَحْمنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَافْرُجْ هَمِّيَ، وَاكْشِفْ غَمِّيَ، يَا وَاحِدُ يَا أَحَدُ، يَا صَمَدُ، يَامَنْ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ، اِعْصِمْنِي وَطَهِّرْنِي، وَاذْهَبْ بِبَلِيَّتِي**)[2].

٧. إنَّ المتصفّح لأدعية الإمام السجاد ﷺ يرى فيها مبدأ الأمل المشرق والتّفاؤل في حياة الإنسان، فتكون لديه حالة الاستبشار والانشراح والرجاء والفرج على عكس اليأس والقنوط والخوف هي سمات سوداوية ومصدر قلق وانزعاج يقوّض البناء النفسي السليم للفرد ويجعله تائهًا في أمواج الحياة المتلاطمة، ومن دعاء له ﷺ في الاعتراف: (**اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ وَهَبْ لِي مَا يَجِبُ عَلَيَّ لَكَ، وَعَافِنِي مِمَّا أَسْتَوْجِبُهُ مِنْكَ، وَأجِرْنِي مِمَّا يَخَافُهُ أَهْلُ الإساءة فَإِنَّكَ مَلِيءٌ بِالْعَفْوِ، مَرْجُوٌّ لِلْمَغْفِرَةِ، مَعْرُوفٌ بِالتَّجَاوُزِ، لَيْسَ لِحَاجَتِي مَطْلَبٌ سِوَاكَ، وَلا لِذَنْبِي غَافِرٌ غَيْرُكَ، حَاشَاكَ وَلاَ أَخَافُ عَلَى نَفْسِي إلاّ إيَّاكَ إنَّكَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ . صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، وَاقْض حَاجَتِي وَأَنْجِحْ طَلِبَتِي، وَاغْفِرْ ذَنْبِي، وَآمِنْ خَوْفَ نَفْسِيْ إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ وَذلِكَ عَلَيْكَ يَسِيرٌ آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**)[3] .

٨. كان الإمام السجاد ﷺ حاذقًا في تربية المجتمع في الوقت آنذاك على معالم تربوية ونفسية إسلامية أصيلة، وكانت هذه التربية بمثابة الإعلان إلى العودة إلى الخطّ الرسالي الأصيل والابتعاد بالدّين عن الأدناس التي حاولت الدولة الحاكمة إلحاقها به، والتي جعلت المجتمع مُصابًا بداء الذّلّ والخنوع لمن هو أقوى منه، وتخليصه في الوقت نفسه مما يعانيه من المهانة والاستعباد، ومن دعائه لنفسه ﷺ ولأهل ولايته: (**اللهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاكْفِنا حَدَّ نَوآئِبِ الزَّمانِ؛ وَشَرَّ مَصائِدِ الشَّيْطانِ، وَمَرارَةَ صَوْلَةِ السُّلْطانِ، اللهُمَّ إنَّما يَكْتَفي المُكْتَفُونَ بِفَضْلِ قُوَّتِكَ...**)[4] .

٩. أراد الإمام ﷺ بمنظومة أدعيته المباركة أن يربّي المجتمع الإسلامي تربية حقيقية صادقة، ويبني أخلاقه

---

(١) الصحيفة السجادية، ص ٢٨.

(٢) م. ن، ص ٢٦٠.

(٣) م. ن: ص ٦٨.

(٤) م. ن: ص ٤٦.

بأطر إسلامية صحيحة في جميع نواحي الحياة؛ حتَّى تصبح جزءًا من سلوكيات الفرد والمجتمع، وذلك من خلال التأكيد على الأخلاق الفاضلة الحميدة إيماناً منه ﷺ أنَّ المجتمع لا يمكن أن يتقدَّم بالابتعاد عن الله وعن تعاليم الإسلام الحنيف، ومن دعائه ﷺ في مكارم الأخلاق: (**وَأَغْنِنِي وَأَوْسِعْ عَلَيَّ فِي رِزْقِكَ، وَلاَ تَفْتِنِّي بِالنَّظَرِ، وَأَعِزَّنِي، وَلا تَبْتَلِيَنِي بِالْكِبْرِ، وَعَبِّدْنِي لَكَ وَلاَ تُفْسِدْ عِبَادَتِي بِالْعُجْبِ، وَأَجْرِ لِلنَّاسِ عَلَى يَدَيَّ الْخَيْرَ، وَلا تَمْحَقْهُ بِالْمَنِّ، وَهَبْ لِي مَعَالِيَ الأَخْلاَقِ، وَاعْصِمْنِي مِنَ الْفَخْرِ. اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَلا تَرْفَعْنِي فِيْ النَّاسِ دَرَجَةً إلاّ حَطَطْتَنِي عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَهَا، وَلا تُحْدِثْ لِي عِزّاً ظَاهِراً إلاّ أَحْدَثْتَ لِي ذِلَّةً بَاطِنَةً عِنْدَ نَفْسِي بِقَدَرِهَا**) [1].

١٠. من الأمور النفسية المهمّة التي اعتمدها الإمام ﷺ تعويد الفرد المسلم بمبدأ الحاجة إلى الله -تعالى-، وأنَّ الإنسان هو مخلوق ضعيف لا يملك شيئًا وليس له مقدّرات الأمور من دون الله جلّت قدرته، إذ إنَّ هذا الشّعور هو الكفيل أن يشعر الإنسان بعدم الغرور والتّكبّر والخيلاء التي هي مصدر للكثير من الآفات النفسية لدى الإنسان.

وكان من دعائه ﷺ في الرِّضا إذا نظر إلى أصحابِ الدُّنيا: (**وَاعْصِمْنِي مِن أَنْ أَظُنَّ بِذِي عَدْم خَسَاسَةً، أَوْ أَظُنَّ بِصَاحِبِ ثَرْوَة فَضْلاً، فَإِنَّ الشَّرِيفَ مَنْ شَرَّفَتْهُ طَاعَتُكَ، وَالْعَزِيزَ مَنْ أَعَزَّتْهُ عِبَادَتُكَ. فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ وَمَتِّعْنَا بِثَرْوَة لاَ تَنْفَدُ، وَأَيِّدْنَا بِعِزٍّ لاَ يُفْقَدُ وَأَسْرِحْنَا فِيْ مُلْكِ الأَبَدِ إِنَّكَ الْوَاحِدُ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ تَلِدْ وَلَمْ تُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُواً أَحَدٌ**) [2].

١١. كانت أدعية الصحيفة السجادية المباركة خير وسيلة لتهذيب النفس، وكبح جماحها بما حوته من مواعظ ومكارم الأخلاق ولجوء إلى الله -تعالى-، فكانت برنامجًا نفسيًّا يشعر الفرد بالارتياح النفسي عندما تتصفح عيناه أي دعاء من هذه الأدعية المباركة، وفي دعائه لعرفة يذكر الإمام ﷺ: (**وَنَجِّنِيْ مِنْ غَمَرَاتِ الْفِتْنَةِ، وَخَلِّصْنِي مِنْ لَهَوَاتِ الْبَلْوى، وَأجِرْنِي مِنْ أَخْذِ الأمْلاءِ، وَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ عَدُوٍّ يُضِلُّنِي، وَهَوىً يُوبِقُنِي، وَمَنْقَصَةٍ تَرْهَقُنِي ..**) [3].

١٢. جاءت أدعية الإمام السجاد ﷺ تحمل في طيَّاتها عبارات دقيقة ما إن يتمعّن الفرد بها حتَّى يفيض قلبه قبل عينيه بالبكاء، وهذا ما أكَّدته الدراسات النفسية الحديثة إذ رأت العديد منها أنَّ البكاء يُعدّ وسيلة لعلاج كثير من الأمراض النفسية فضلًا عن أن البكاء من خشية الله له منزلة رفيعة عند الباري جلت قدرته.

ومن دعائه ﷺ في الاعتراف وطلب التوبة إلى الله -تعالى-: (**لاَ أَيْأَسُ مِنْكَ وَقَدْ فَتَحْتَ لِيَ بَابَ التَّوْبَةِ إِلَيْكَ، بَلْ أَقُولُ مَقَالَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ الْمُسْتَخِفِّ بِحُرْمَةِ رَبِّهِ الَّذِي عَظُمَتْ ذُنُوبُهُ فَجَلَّتْ وَأَدْبَرَتْ أَيَّامُهُ فَوَلَّتْ حَتَّى إِذَا رَأى مُدَّةَ الْعَمَلِ قَدِ انْقَضَتْ وَغَايَةَ الْعُمُرِ قَدِ انْتَهَتْ، وَأَيْقَنَ أَنَّهُ لا مَحِيصَ لَهُ مِنْكَ، وَلاَ مَهْرَبَ لَهُ عَنْكَ تَلَقَّاكَ بِالإِنَابَةِ، وَأَخْلَصَ لَكَ التَّوْبَةَ، فَقَامَ إِلَيْكَ بِقَلْب طَاهِر نَقِيٍّ ثُمَّ دَعَاكَ بِصَوْت حَائِل خَفِيٍّ، قَدْ تَطَأطَأَ لَكَ**

(١) الذريعة إلى حافظ الشريعة، ج٢/ ص ٣١٣.

(٢) الصحيفة السجادية، ص ١٥٨.

(٣) م. ن، ص ٢٢٦.

فَانْحَنى، وَنَكَّسَ رَأسَهُ فَانْثَنَى، قَدْ أَرْعَشَتْ خَشْيَتُهُ رِجْلَيْهِ، وَغَرَّقَتْ دُمُوعُهُ خَدَّيْهِ، يَدْعُوكَ بِيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَيَا أَرْحَمَ مَنِ انْتَابَهُ الْمُسْتَرْحِمُونَ، وَيَا أَعْطَفَ مَنْ أَطَافَ بِهِ الْمُسْتَغْفِرُونَ) [1].

١٣. تمكَّنت أدعية الإمام السجاد عليه السلام في الصحيفة السجادية المباركة من القضاء على أسباب البعد عن الله -تعالى- والتي هي مصدر لكلِّ الاضطرابات النفسية والتوهم والهواجس والانكاد المختلفة، إذ خلقت حالة من الرضا وقبول الفرد المسلم بالواقع الذي يعيشه والذي يوجد فيه انطلاقًا من الإيمان بالقضاء والقدر وتيقنًا بوجود الخالق المدبّر للأمور والمسدد للصواب بمنّه ولطفه، وأنَّ كلَّ ما يمر به الإنسان من ظروف هي بعين الله -تعالى- وهو مفرّج الهمّ وكاشف الكرب، ومن دعاء للإمام السجاد عليه السلام إذا عَرَضت له مهمّة أو نزلَتْ ملمّة وعند الكرب: **(يَا مَنْ تُحَلُّ بِهِ عُقَدُ الْمَكَارِهِ، وَيَا مَنْ يُفْثَأُ بِهِ حَدُّ الشَّدَائِدِ، وَيَا مَنْ يُلْتَمَسُ مِنْهُ الْمَخْرَجُ إِلَى رَوْحِ الْفَرَجِ، ذَلَّتْ لِقُدْرَتِكَ الصِّعَابُ وَتَسَبَّبَتْ بِلُطْفِكَ الأسباب، وَجَرى بِقُدْرَتِكَ الْقَضَاءُ وَمَضَتْ عَلَى إِرَادَتِكَ الأشياء، فَهْيَ بِمَشِيَّتِكَ دُونَ قَوْلِكَ مُؤْتَمِرَةٌ، وَبِإِرَادَتِكَ دُونَ نَهْيِكَ مُنْزَجِرَةٌ. أَنْتَ الْمَدْعُوُّ لِلْمُهِمَّاتِ، وَأَنْتَ الْمَفْزَعُ فِي الْمُلِمَّاتِ، لاَ يَنْدَفِعُ مِنْهَا إِلاّ مَا دَفَعْتَ، وَلا يَنْكَشِفُ مِنْهَا إِلاّ مَا كَشَفْتَ)** [2].

المتأمّل لأدعية الإمام السجاد عليه السلام، يجد في جوهرها غاية بعيدة المدى وهي خلق الإنسان المسلم السوي الذي يستطيع أن يواجه الحياة بكلِّ ما تزدحم به من مشكلات، وأن يسير بها مرتبطاً بالله -تعالى- غير متكبر عن عبادته ولا تنسيه بهارج الدنيا وجود خالق قوي يقول: **(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ . إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)** [3].

ومن دعاء للإمام السجاد عليه السلام لنفسه وأهل بيته: **(اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ وَاجْعَلْ سَلاَمَةَ قُلُوبِنَا فِي ذِكْرِ عَظَمَتِكَ وَفَرَاغَ أَبْدَانِنَا فِي شُكْرِ نِعْمَتِكَ وَانْطِلاَقَ أَلْسِنَتِنَا فِي وَصْفِ مِنَّتِكَ. أَللَهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ وَاجْعَلْنَا مِنْ دُعَاتِكَ الدّاعِينَ إِلَيْكَ وَهُدَاتِكَ الدَّالّينَ عَلَيْكَ وَمِنْ خَاصَّتِكَ الْخَاصِّينَ لَدَيْكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ)**. [4]

وختامًا نجد أنَّه من الطبيعي جدًّا أن يحذو الإمام السجاد عليه السلام خطوات سليمة في تربية المجتمع تربية وجدانية شعورية حقيقية تتناول شخصية الفرد المسلم بصورة متكاملة، ولا سيّما أنَّه عليه السلام لديه أوّليّات البناء السليم للفرد والمجتمع على أنَّ الدور الذي أُسند إليه من السّماء كونه إمامًا معصومًا مفترض الطاعة، إذ إنَّ التربية الوجدانية عنصر مهم في تحقيق السعادة وتكوين علاقات إيجابية بين أفراد المجتمع.

---

(١) الصحيفة السجادية، ص ٦٤.

(٢) م. ن: ص ٥٢.

(٣) سورة غافر، الآية ٦٠.

(٤) الصحيفة السجادية، ص ٨٤٨.

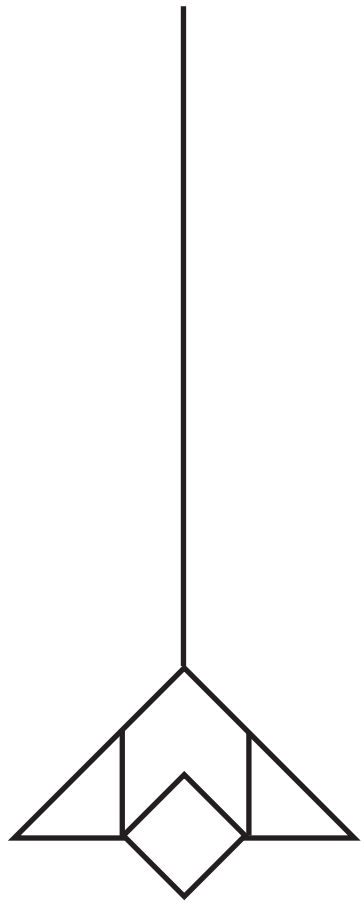

شهر صفر

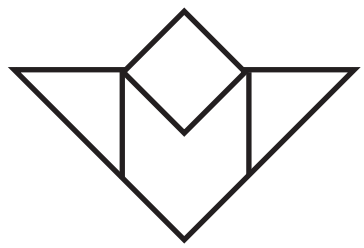

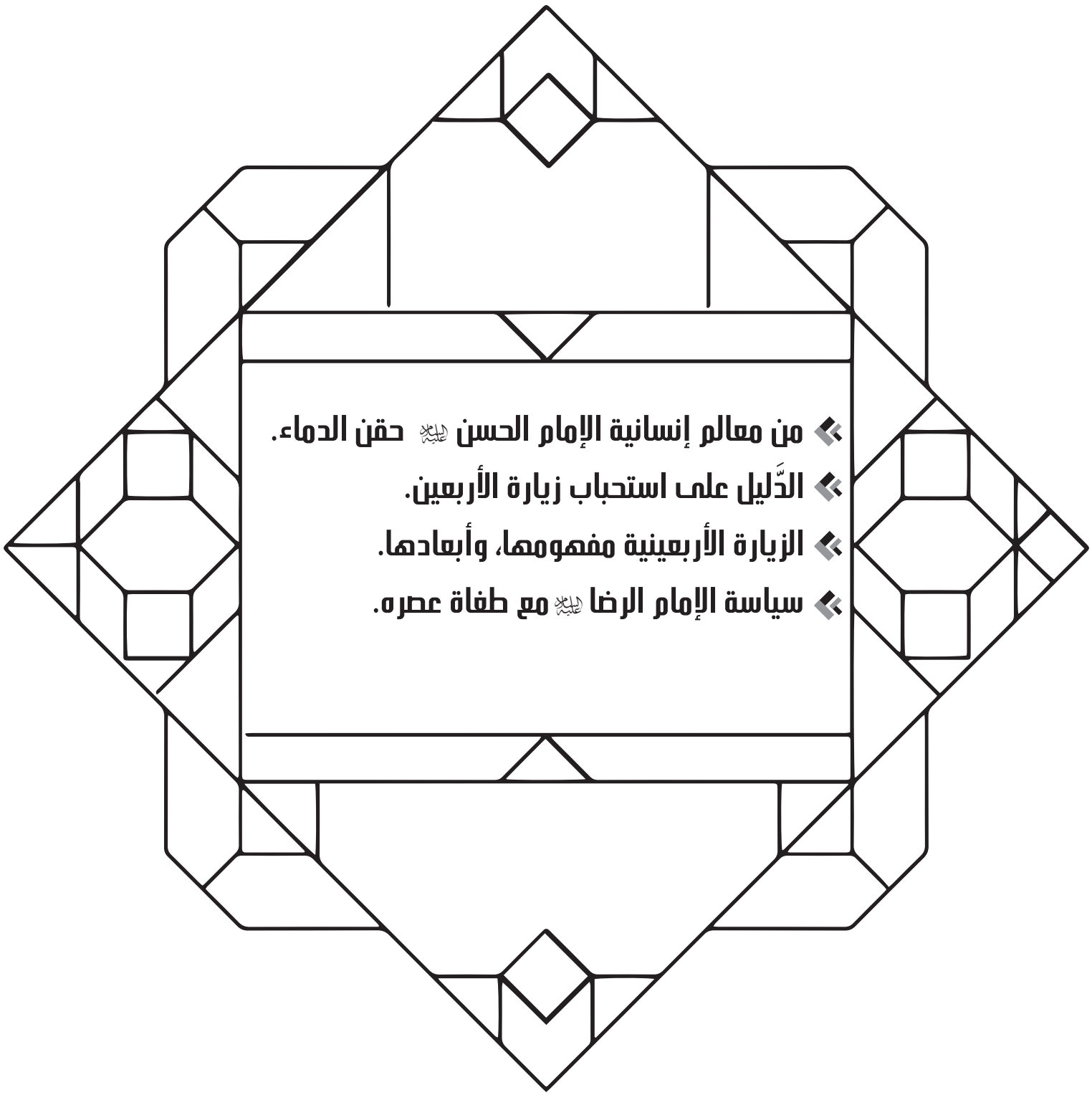
من معالم إنسانية الإمام الحسن عليه السلام حقن الدماء.
الدَّليل على استحباب زيارة الأربعين.
الزيارة الأربعينية مفهومها، وأبعادها.
سياسة الإمام الرضا عليه السلام مع طغاة عصره.

من معالم إنسانية الإمام الحسن عليه السلام
حقن الدماء

د. رحيم كريم علي الشريفي.

معلم(حقن الدماء) كمعلم إنساني مثالي عند الإمام الحسن عليه السلام، ومردّ هذا الأمر هو شرافة دم المسلم وقداسته، فالإنسان هو أساس الوجود، وقد كرّمه الله عز وجل: **(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)**(الإسراء/ ٧٠)، وجعل-عزَّ وجل- قتله فسادًا في الأرض: **(مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)** (المائدة/ من الآية ٣٢)، ومن هنا جاءت النصوص مبيّنة أخذ القِصاص من القاتل، وهو وجهة إنسانية من أقوى البواعث على تهذيب السلوك، والاستقامة على طريق الحق، والعدل، ومقاومة الفساد والضّلال، والقِصاص هو الحماية والوقاية لمصالح الأفراد[1]، ولولاه لفشا هذا الأمر الخطير(القتل) فشوَ صَغَائِر الذنوب بين الناس، ولهان أمر الدماء بينهم، قال تعالى: **(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)**(البقرة/ ١٧٩)، وقال تعالى: **(وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)**(البقرة/ من الآية ٢٥١).

إنَّ احترام وجود الإنسان، والحفاظ على دمه أمر مهم جدًّا، وإن إهراق دمه يعني معارضة خلق الله-عزَّ وجل-، وتعطيل صنعه-عزَّ وجل-، فضلاً عن الإفساد، والفوضى في الأرض؛ لذا جاءت النّصوص القرآنية دالّة على تجسيد هذا البعد الإنساني(حقن الدّماء)، والاحتياط منها، واللجوء إلى العفو والصّفح، والصّلح، والحوار، والمودّة، والرّحمة، والتّسامح، وعدم الإكراه، قال تعالى: **(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا)**(البقرة/ من الآية ٢٥٦)، وقال تعالى: **(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)**(الكافرون/ ٦)، في بادرة حسنة للوئام، والتحابُب، والابتعاد عن سفك الدماء، وإراقتها.

ويتعالى صوت المنطق والبرهان على صوت الحرب والعُدوان في قوله تعالى: **(ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ**

(١) ينظر: فلسفة الأخلاق في الإسلام: محمد جواد مغنية: تحقيق: سامي الغريري، مطبعة ستار، إيران، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م: ١٥٤.

وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل/ ١٢٥)، فالدعوة إلى الربّ هنا ليست بالسيف، والقتل، وسفك الدماء، بل بالحكمة، والمنطق، والبرهان، والموعظة الحسنة، وقال تعالى في آية أخرى: **(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)** (الكهف/ من الآية ٢٩)، فالإيمان والكفر مسألتان طوعيتان، ليس فيهما أيّ إجبار، فالإسلام لا يوجب استعمال القوة لجعل هؤلاء مسلمين، فالاختيار يعود لهم[١].

وقد اهتمّ الإسلام بالصّلح، قال تعالى: **(وَالصُّلْحُ خَيْرٌ)** (النساء/ من الآية ١٢٨)، وقال تعالى: **(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)** (الأنفال/ من الآية ٦١)، إنَّ هاتين الآيتين تؤكّدان روح الإسلام هي روح السَّلام.

إنّ الحفاظ على أرواح المسلمين عامة، والجماعة الصَّالحة خاصة، كان من أهم أهداف السلم، فضلاً عن الإصلاح في الأمَّة، وصيانة المقدَّسات وتحقيق وجهة النَّظر الإسلامي، لذا رأيْت أن أعرض لقسم من النّصوص التي وصلت إلينا من تراث الإمام الحسن عليه السلام من جهة، والنّصوص التي سأتناوشها من الباحثين لبيان هذا المعلم الإنساني المهم عنده عليه السلام.

أوّلاً: حقن الدِّماء من خلال سلْمه عليه السلام:

تكاد تتضافر النّصوص كون الإمام الحسن عليه السلام قد قبل بالهدنة، والسّلم حقناً لدماء المسلمين، والحفاظ على أرواحهم، وأي مَزِيّة وقوة إرادة تجسّدت بروحه عليه السلام، زد على ذلك قدرته، ومقدرته على إدارة شؤون السياسة العامة، والدولة، فصان الأمة، وحفظ دماء أفرادها، وجنبها المضاعفات الخطيرة، والنتائج السيّئة التي لا تحمد عقباها، فلو أراد الإمام الحسن عليه السلام الحرب، لكانت حرباً طويلة الأمد بين طائفتين من الشام والعراق وسيكون ضحيتها عشرات الألوف من الطرفين من دون أنْ تكون هناك ثمرة للحرب، بل الاحتمال الوارد هو انتصار معاوية، أما احتمال الانتصار على معاوية كان معدوماً بحسب المعطيات التي يقدمها لنا التاريخ، والاحتمال الأقوى أنْ تنتهي المعركة بهزيمة جيش الإمام الحسن عليه السلام، فأين الفخر في أن يحارب عليه السلام سنتين أو ثلاث تراق دماء عشرات الألوف من الأرواح، ولا تثمر إلاّ التعب، وعود كُلّ فريق إلى مكانه[٢]. فكان نظر الإمام الحسن عليه السلام في قبول السلم والهدنة أدق من أنْ يكون غالباً أو مغلوباً، فأراد أن يفضح خبيئة العدو، وبيان حاله، وما

---

(١) ينظر: الجهاد حالاته المشروعة في القرآن: مرتضى المطهري: ط١، مطبعة سبهر، طهران، ١٤٠٤هـ: ٢٤ – ٢٥.

(٢) ينظر: سيرة الأئمة الأطهار: مرتضى المطهري، مراجعة عبد الكريم الزهيري، ط٢، مطبعة شريعة، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م. : ٨٠/ ٨١.

ستره في قرارة نفسه، وكذلك عدم زجّ الناس في حرب، ويحملهم على ما يكرهون من إراقة الدماء[1].

وأول هذه النصوص التي تصرح بهذا المعلم الإنساني المثالي خطبته عليه السلام بعد عقد الهدنة مع معاوية، قال ابن قتيبة: «فلما تم صلحهما صعد الإمام الحسن إلى المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنَّ الله هدى أولكم بأولنا، وحقن دمائكم بآخرنا، وكانت لي في رقابكم بيعة تحاربون من حاربْتُ وتسالمون من سالمت وقد سالمت معاوية وبايعته فبايعوه وإن أدري لعله فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلى حين»[2]، وقال سبط بن الجوزي: «وكان الإمام الحسن لا يؤثر القتال ويميل إلى حقن الدماء، وعرف الإمام الحسن أنَّ قيس بن سعد لا يوافقه على هذا الرأي، فأقام بالكوفة ستة أشهر إلى سلخ ربيع الأول سنة إحدى وأربعين»[3].

ذكر الأربلي خطبة الإمام الحسن عليه السلام بعد استشهاد أبيه أمير المؤمنين عليه السلام يدعوه فيها إلى بيعته، وحقن الدماء، وهذا الأمر يؤكد رغبة الإمام الحسن عليه السلام، ومبدأه السامي إلى حقن الدماء، قبل السَّلم، وبعده، فالحفاظ على وجود الجماعة الصالحة ديدنه، ومنهجه «بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية ابن صخر، أما بعد، فإنَّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله رحمة للعالمين، فأظهر به الحق، ورفع به الباطل، وأذلّ به أهل الشرك، وأعزّ به العرب عامة، وشرف به من شاء منهم خاصة، فقال تعالى: **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ** فلما قبضه الله تعالى تنازعت العربُ الأمر بعده، فقالت الأنصار: منا أمير، ومنكم أمير، وقالت قريش: نحن أولياؤه وذوو القربى منه، ولا غرو أن منازعتك إيانا بغير حقٍّ في الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، والموعد الله تعالى بيننا وبينك، ونحن نسأله تبارك وتعالى أن لا يؤتينا في هذه الدنيا شيئاً ينقصنا به في الآخرة، وبعد فإنَّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لما نزل به الموت ولاّني هذا الأمر من بعده، فاتّق اللهَ يا معاوية وانظر لأمّة محمد صلى الله عليه وآله ما تحقن به دماءهم، وتصلح به أمورهم، والسلام»[4]، وقد دعا المصطفى صلى الله عليه وآله ربّه--عزَّ وجل- أن يكون سبطه الأكبر داعياً إلى السَّلم، وحقن الدماء، فهو عليه السلام السلام للأمّة، ولا يأتيه من الأمّة إلا السلام، والأمان «رُوي عن محمد بن عبد الرحمن بن لُبَيْبه مولى بني هاشم أن رسول الله صلى الله عليه وآله أَبْصَرَ الإمام الحسن بن علي مقبلاً، فقال: اللهم سلّم به، وسلّم منه»[5]، وقال المجلسي: «فإن الإمام الحسن قال لجُبير بن نفير حين قال له: إنَّ الناس يقولون: إنّك

---

(١) ينظر: حياة الإمام الحسن بن علي عليه السلام: (مقدمة بقلم محمد الحسين آل كاشف الغطاء): ١٧.

(٢) الإمامة والسياسة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري(ت ٢٧٦هـ)، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٩م: ١/ ١٣٣.

(٣) تذكرة الخواص من الأمة بذكر حقائق الأئمة عليهم السلام يوسف بن علي البغدادي سبط ابن الجوزي(ت ٦٥٤هـ) تحقيق: حسين تقي زادة، مطبعة ليلى، إيران، ١٤٢٦هـ: ١٩ – ٢٠.

(٤) كشف الغمة في معرفة الأئمة: أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربليّ(ت ٦٩٢هـ)، قدم له السيد أحمد الحسيني، ط١، مطبعة شريعة قم – إيران، ١٤٢٧هـ: ١/ ٥٣٣.

(٥) م.ن: ١/ ٤٩٨.

تريد الخلافة فقال: قد كان جماجم العرب في يدي يحاربون من حاربْتُ، ويسالمون من سالمت، تركتها ابتغاء وجه الله، وحقن دماء أمّة محمد»[1]، وقد صّرح عليه السلام بهذه الجملة، وأكثر من تفاصيلها في مواقف كثيرة، وبألفاظ مختلفة، وقال عليه السلام: إنما هادنت حقناً للدماء، وضمناً بها، وإشفاقاً على نفسي، وأهلي، والمخلصين من أصحابي[2]، وروى أيضاً أنه قال عليه السلام حينما سالم معاوية: «أيها الناس إنّكم لو طلبتم ما بين جَابَلق، وجَابَرس رجلاً جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ما وجدتموه غيري وغير أخي، وإنَّ معاوية نازعني حقّاً هو لي فتركْتُه لصلاح الأمّة وحقن دمائها»[3]، وقال محسن العاملي: «والدليل على أنه خطب عليه السلام بالنخيلة قبل الصلح، فقال: أيها الناس، إنَّ هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إنّما هو حقٌّ، أتركه إرادة لإصلاح الأمّة، وحقناً لدمائها»[4]، وقال أيضاً موضحاً أن مبدأ حقن الدماء، والحفاظ على أرواح المسلمين هو المتعين عن الإمام الحسن عليه السلام: «ومن مجموع ما مرّ بعلم الوجه في صلحه عليه السلام، وأنه كان هو الرأي والصواب»[5]، وقال طه حسين: «ولم يكن قعود الحسن عن الحرب جبناً أو فَرَقاً، وإنما كان كراهية لسفك الدماء من جهة، وشكا في أصحابه من جهة أخرى»[6].

ويكرّر الإمام الحسن عليه السلام هذا المعلم السامي عندما خرج من الكوفة إلى مدينة جدّه صلى الله عليه وآله، وقد لامه جماعة من أصحابه، وأتباعه، قال البلاذري(ت ٢٧٩): «أنتم شيعتنا، وأهل مودتنا، فلو كنت بالحزم في أمر الدنيا أعمل لسلطانها أعمل، وأنْصَبُ، ما كان معاوية بأبأس مني بأساً، ولا أشدّ شكيمة، ولا أمضى عزيمة، ولكن أرى غير ما رأيتم، وما أردت فيما فعلت إلا حقن الدماء، فارْضَوْا بقضاء الله، وسلّموا الأمر، وألزموا بيوتكم، وأمسكوا وكفوا أيديكم حتى يستريح برّ ويستراح من فاجرٍ»[7]، وقال طه حسين: «ومهما يكن من ذلك فقد سخط على الإمام الحسن جماعة من أصحابه الذين أخلصوا له، ولأبيه، وأخلصوا في بغض معاوية وأهل الشام، ورأوا في هذا الصلح نوعاً من التسليم لم يكن يلائم ما بذلوا أيام عليّ من جهد، ولم يكن يلائم كذلك ما كان في أيديهم من قوة، فمنهم من كان يقول للحسن يا مذلّ المؤمنين، ومنهم من كان يقول له: يا مذلّ العرب، ومنهم من كان يقول له: يا مسوّد وجوه العرب، ولكن الإمام الحسن لم يحفل بشيء من ذلك، وإنما رَضِي عن خطته كُلّ

---

(١) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: الشيخ باقر المجلسي، إحياء الكتب المقدسة، قسم – إيران، ١٤٢٧هـ ١٠/ ١٩٨، وينظر: تاريخ الخلفاء: ١٤٤.

(٢) بحار الأنوار: ١٠/ ٢٠٣. و ١٠/ ٢١٧.

(٣) المصدر نفسه: ١٠/ ٢١٧.

(٤) أعيان الشيعة: السيد محسن الأمين، حققهُ، السيد حسن الأمين، ط٥، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.: ٢/ ٣٧٦.

(٥) المصدر نفسه: ٢/ ٣٧٦.

(٦) الفتنة الكبرى: الدكتور طه حسين، ط١، دار المنار، مصر، ٢٠٠٣م: ٢/ ١٨٢.

(٧) أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذريّ(ت ٢٧٩هـ)، د.ط، القاهرة، ١٩٥٩م.: ٣/ ٢٥٩، وينظر: المحاسن والمساوئ: محمد بن إبراهيم(البيهقي ت بعد ٣٢٠هـ)، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٥هـ: ١/ ٦٠ – ٦٥.

الرضا فرأى فيها حقناً للدماء، ووضعاً لأوزار الحرب، وجمعاً لكلمة الأمّة، وتمكيناً للمسلمين من أنْ يستقبلوا أمورهم مؤتلفين لا مختلفين، ومتفقين لا مفترقين»[1]، وقد جابه الإمام الحسن﵇ كلاماً من المندّدين بالسَّلم أشدّ عليه من وقع الحسام المهند، فقد رأى منهم غلظة في القول، وقسوة في الحديث، وجفاء أي جفاء[2]، على الرغم من أنهم أعلم من غيرهم بالأسباب التي دعته إلى هذا السلم المؤقت، وفي مقدّمتها حقن الدماء، والحفاظ على المسلمين، والجماعة الصالحة، فقد جاءه وفدٌ من الكوفة بقيادة سُليمان بن صرّد الخزاعيّ، وقد أعطاهم الإمام الحسن﵇ الرضا حين أعلن إليهم أنهم من شيعة أهل البيت، وذوو مودّتهم، وإذاً فمن الحقِّ أن يسمعوا له، ويأتمروا بأمره، ويكونوا عندما يريد منهم، ثم بين لهم أنه لم يسالم ويهادن، معاوية عن ضعف، ولا عن عجز، وإنما أراد حقن الدماء، ولو قد أراد الحربَ لما كان معاوية أشد منه قوة ولا أشد مراساً، ثم طلب إليهم أن يَرْضَوا بقضاء الله--عزَّ وجل-، وقبول الأمر، وأنبأهم بأنهم لم يفعلوا ذلك إلى آخر الدهر، ولم يستسلموا لعدوهم من غير مقاومة، وإنما هو انتظار إلى حين، هو انتظار إلى ان يستريح الأبرار من أهل الحق، أو يريح الله-عزَّ وجل- من الفجار من أهل الباطل[3].

وتكفينا من أقوال الإمام الحسن﵇ التي كرَّرها أكثر من مرة في سبيل إفهام شيعته دواعي سلمه مع معاوية: ما تدرون ما فعلتُ، والله للذي فعلت خيرٌ للمسلمين عامة، ولشيعتي خاصة مما طلعت عليه الشمس، وما قاله مرّة لبشير الهمداني وهو أحد رؤساء شيعته في الكوفة: ما أردت بمصالحتي إلاّ أن أدفع عنكم القتل، وما قاله في خطابه بعد الصلح: أيها الناس، إنّ الله-عزَّ وجل- هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا، وقد سالمت معاوية[4]. والشخوص إلى مدينة جدّه، ولدى توجهه﵇، وأهل بيته إلى عاصمة جدّه ﷺ خرج أهل الكوفة بجميع طبقاتهم إلى توديعه وهم ما بين باكٍ، وآسفٍ، فكتب إلى معاوية حين أدركه رسول يريد أنْ يردّه ليقاتل طائفة من الخوارج، فأبى﵇ أنْ يعود، وكتب إلى معاوية: «ولو آثرت أنْ أُقاتل أحداً من أهل القبلة، لبدأتُ بقتالك، فإني تركتُك لصلاح الأمة، وحقن دمائها»[5].

ثانياً: حقن الدماء من خلال وصيته﵇:

يتعالى صوت هذا المعلم الإنساني المثالي(حقن الدماء)، والاحتياط من إهراقها عن الإمام الحسن﵇ في

---

(١) الفتنة الكبرى: ٢/ ١٨٥ – ١٨٦.

(٢) ينظر: حياة الإمام الحسن بن علي﵇: ٢/ ٢٦٩.

(٣) ينظر: الفتنة الكبرى: ٢/ ١٨٩.

(٤) ينظر: صلح الحسن﵇: ٢٦٦.

(٥) أعلام الهداية(الإمام الحسن﵇ المجتبى)، المجمع العلمي لأهل البيت﵈ الطبعة الأولى، دار الأميرة، بيروت، ٢٠٠٥م.: ١٦٥، وينظر: حياة الإمام الحسن بن علي﵇: ٢/ ٢٨٧.

اللحظات الأخيرة من حياته المطهّرة، وقد اتّفق أغلب المؤرخين أن الإمام الحسن عليه السلام قد سُقِي السمُّ، واختلف في سنة وفاته فقيل سنة ٤٩هـ[١]، وقيل ٥٠هـ[٢]، وقيل سنة ٥٢هـ[٣]، وقال السيوطي: «وقيل سنة إحدى وخمسين»[٤].

ويظهر هذا المعلم الإنساني من خلال أمرين أوصى بهما الإمام الحسن عليه السلام، الأول: عدم إعلام أخيه الإمام الحسين عليه السلام بالشخص الذي سمّه منعاً للفتنة، وإراقة الدماء، والثاني: عدم الإصرار، وترك محاربة الذين يمنعون الإمام الحسين من دفنه عليه السلام بجوار جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، فهذه النفس الطاهرة، المطمئنة، الصافية أبت أن تخوض في دماء المسلمين، وهي في سكراتها، فما أعْظَمَك !!، وما أرْحَمَك أيتها النفس الصفوح !!.

أولاً: إخفاء اسم الشخص الذي سمّه عليه السلام:

تضافرت النصوص التاريخية في قضية إخفاء الإمام الحسن عليه السلام اسم الشخص الذي سمّه، ومردّ هذا الإخفاء أمرانِ: الأول هو عدم تيقن الإمام الحسن عليه السلام من الشخص الذي سمّه على وجه الضبط، والتحقيق، «فأبى أن ينبّئه به مخافة أنْ يقتصّ منه بغير حجّة قاطعة عليه،(...) وكَرِه أنْ يَلْقى الله وقد اقتص له بالشبهة فآثر أنْ يَكِل هذا القصاص إلى الله عز وجل»[٥]، والأمر الثاني: معرفته بالذي سقاه السم؛ لكن الحفاظ على دماء المسلمين، والاحتياط منها جعلته يحجم عليه السلام من هذا الإخبار، وهذا ما نذهب إليه، فالإمام الحسن عليه السلام أبت نفسه المطمئنة أن تذهب إلى بارئها، وتترك بني هاشم، وأتباعه، والمسلمين يخوضون في طلب الثأر، والانتقام إلى مدّة لا يعلم مداها إلاّ الله--عزَّ وجل-، فضلاً عن ذلك فهو عليه السلام قد هادن معاوية لهذه المصلحة(حقن الدماء) في حياته عليه السلام، فليس من المعقول أن يعود إلى إراقتها في اللحظات الأخيرات من حياته.

وقد صَرَّحت أغلب النصوص التاريخية باسم الشخص الذي سمّه، وهي زوجه(جَعْدَة بنت الأشعث)، قال ابن الأثير: «وكان سببُ موته أنَّ زوجته جَعْدَة بنت الأشعث بن قيس سقته السمّ، فكانت توضع تحته

---

(١) ينظر: تاريخ اليعقوبي: أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي البغدادي(ت بعد سنة ٢٩٢هـ)، علق عليه ووضح حواشيه: خليل منصور، دار الزهراء إيران، ١٤٢٩هـ.: ٢/ ١٥٦، و تاريخ خليفة بن خياط برواية تقي بن خالد: خليفة بن خياط العَصْفري(ت ٢٤٠هـ) تحقيق: الدكتور سُهيل زكّار، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.: ١٥٣، و الذرية الطاهرة: أبو البشر محمد بن أحمد بن حماد الأنصاري الرازي الدولابي(ت ٣١٠هـ)، تحقيق: السيد محمد جواد الجين الجلالي، ط٨، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.: ١٠٣، وكشف الغمة: ١/ ٥٤٦، وتاريخ الخلفاء: جلال الدين السيوطي(ت ٩١١هـ)، ط١، دار المنار، مصر، ٢٠٠٣م.: ١٤٤.

(٢) الإرشاد:- محمد بن محمد بن نعمان العكبريّ البغدادي الملقب بـ(الشيخ المفيد)(ت ٤١٣هـ)، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ١٤٢٩ – ٢٠٠٤م.: ١٨٢، و الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام: علي بن محمد بن أحمد المالكي(ابن الصباغ المالكي)(ت ٨٥٥هـ)، ط٢، دار الأضواء بيروت – لبنان، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م: ١٥٧، موسوعة المصطفى والعترة(الحسن المجتبى عليه السلام): حُسين الشاكري، ط٢، مطبعة غدير، قم – إيران، ١٤٢٥هـ: ٥/ ٣٥٨.

(٣) ينظر: دلائل الإمامة: أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري، من علماء القرن الرابع الهجري، ط٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م: ٦١.

(٤) تاريخ الخلفاء: ١٤٤.

(٥) الفتنة الكبرى: ٢/ ١٩٣.

الطست، وترفع أخرى نحو أربعين يوماً فمات منه، ولما اشتدّ مرضه، قال لأخيه الإمام الحسين(٣): يا أخي سُقيت السمَّ ثلاث مرّات لم أُسقَ مثل هذه، إنّي لأضَعُ كبدي»[١].

وما فعلته جَعْدَةَ كان بمشورة معاوية بن أبي سفيان، قال أبو الفرج الأصفهاني: «أرسل معاوية إلى ابنة الأشعث أنا مزوّجُك بيزيد ابني على أن تَسمّي الحسن بن علي، وبعث إليها بمائة ألف درهم، فقبلت، وسمّت الحسن فاستوفاها المال، ولم يزوّجها منه، فخلف عليها رجل من آل طلحة فأولدها فكان إذا وقع بينهم، وبين بطون قريش كلام عيّروهم، وقال: يا بني مُسِمّة الأزواج»[٢]، ويرى السيوطي أن يزيد بن معاوية هو الذي أشار إلى جعدة بسم الحسن[٣]عليه السلام، وهو وهم، والصحيح أنَّ معاوية هو الذي أشار إلى جعدة بذلك[٤].

وعندما أراد الإمام الحسين عليه السلام أنْ يستخبر من أخيه عليه السلام عن الشخص الذي سمّه، أبى الإمام الحسن عليه السلام إخباره عنه وأجابه بأجوبة عدّة، قال المفيد: «روى عيسى بن مهران، قال: حدثني عثمان بن عمر، قال: حدثنا ابن عون عن عمر بن إسحاق، قال: كنت مع الحسن والحسين عليهما السلام في الدار، فدخل الحسن المخرج، ثم خرج، فقال: لقد سقيت السمّ مراراً، ما سَقَيْته مثل هذه المرّة، لقد لفظت قطعة من كبدي فجعلتُ أُقلبها بعود معي، فقال له الإمام الحسين عليه السلام، ومَنْ سقاكه؟ فقال: ما تريد منه؟ أتريدُ قتله؟ أن يكن هو هو فاللهُ أشدّ نقمة منك، وإن لم يكن هو فما أحب أنْ يؤخذ بي بَرِيءٌ»[٥]، وقال الإمام الحسن عليه السلام عندما سأله أخوه الإمام الحسين عليه السلام: مَنْ سقاك يا أخي؟ ما سؤالك عن هذا؟ أتريد أنْ تقاتلهم؟ أكِلْهم إلى الله عز وجل[٦]. وقال سبط بن الجوزي: «قال الإمام الحسين عليه السلام، وهو يسأل أخاه الإمام الحسن: «يا أخي من تتهم قال: لِمَ؟ لتقتله؟ قال: نعم، قال: إنْ يك الذي أظنُّ فالله أشدّ بأساً، وأشدّ تنكيلاً، وإن لم يكن فما أحب أنْ يقتل بي بَرِيء، ثم قضى نحبه»[٧]، وقال العسقلاني: «فجاء حسين فقعد عند رأسه، فقال: إي أخي، مَنْ صاحبُك؟ قال: تريد قتله؟ قال: نَعَمْ، قال: لئن كان صاحبي الذي أظنّ، والله أشدّ له نقمة، وإن لم يكنْه، ما أحبّ أن تقتل بي بريئاً»[٨]، وقال السيوطي: «وجَهَدَ

---

(١) أُسد الغابة في معرفة الصحابة: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي كريم محمد بن محمد الشيباني المعروف بـ(ابن الأثير(ت ٦٣٠هـ))، ط١، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م.: ١/ ٥٦٢، وينظر: دلائل الإمامة: ٦١، ومروج الذهب: ٢/ ٣٥٣، و مقاتل الطالبيين: أبو الفرج الأصفهاني(ت ٣٥٦هـ)، شرح وتحقيق، السيد أحمد صقر، دار إحياء التراث العربية، بيروت،(د. ت).: ٧٤، والإرشاد: ١٨٣، وكشف الغمة: ١/ ٥٤٦، وتاريخ الخلفاء: ١٤٤، وحياة الإمام الحسن بن علي عليه السلام: ٢/ ٤٧٦.

(٢) مقاتل الطالبيين: ٧٣.

(٣) ينظر: تاريخ الخلفاء: ١٤٤.

(٤) ينظر: دلائل الإمامة: ٦١، مروج الذهب: ٢/ ٣٥٣، والفتنة الكبرى: ٢/ ١٩٣، وحياة الإمام الحسن بن علي عليه السلام: ٢/ ٤٧٥.

(٥) الإرشاد: ١٨٣. وينظر: مقاتل الطالبيين: ٧٤.

(٦) ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة: ١/ ٥٦٢.

(٧) تذكرة الخواص: ٦٢.

(٨) تهذيب التهذيب: ٢/ ٥٤.

به أخوه أنْ يخبره بما سقاه، فلم يخبره، وقال: اللهُ أشدّ نقمة إن كان الذي أظنُّ، وإلاَّ فلا يقتل بي، واللهِ بَرِيءٌ»[1].

هكذا بقي الإمام الحسن عليه السلام يعاني من تأثير السم أربعين يوماً حتى تمكن منه، وأخذ يقذف كبده قطعة قطعة، ولما حضرته الوفاة استدعى أخاه الإمام الحسين عليه السلام، وانفرد به، وقال له: يا أخي، إنّي مفارقك، ولا حق بربّي وقد سقيت السم مراراً، ولكن هذه المرّة أشدها، ورميت كبدي في الطست، وإني لعارف بمن سقاني السم، ومن أين دُهيت، وأنا أخاصمه إلى الله--عزَّ وجل-، فبحقي عليك إن تكلّمت في ذلك بشيء، وانتظر ما يحدث اللهُ عز وجل مني، وباللهِ أقسم عليك أنْ تريق في أمري مِحْجمة دم[2].

ثانياً: دفنه عليه السلام بالبقيع:

يتضح هذا المعلم الإنساني المثالي(حقن الدماء) في وصيته عليه السلام لأخيه الإمام الحسين عليه السلام في الحفاظ على أرواح المسلمين، وحقن دمائهم، فهو عليه السلام يَعْرِف أن القوم سيمنعون أخاه الحسين عليه السلام من دفنه بجوار جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، محاولة منهم لإبعاد هذا الجسم الطاهرة عن جدّه صلى الله عليه وآله، وغاب عنهم أن الأرواح المتجاذبة والمتآلفة لا يحدّها مكان، ولا زمان، فما أحدٌ أولى بقربه منه، قال الإمام الحسن عليه السلام مخاطباً أخاه الإمام الحسين عليه السلام: «فإذا أنا مُت فادفنّي مع رسول الله، فما أحدٌ أولى بقربه منّي، إلاَّ أنْ تمنع من ذلك فلا تسفك فيّ مِحجمة دم»[3]. وقال الحسن عليه السلام: «ادفنوني مع جدّي(صلى الله عليه -وآله- وسلم)، فإن مُنِعْتُم فالبقيع»[4]. وقال ابن رستم الطبري: «ولما حضرته الوفاة قال لأخيه: إذا مت فغسلني، وحنّطني، وكفّني، وصلّ عليّ، واحملني إلى قبر جدّي حتى تَلْحَدَني إلى جانبه، فإن منعت من ذلك، فبحقّ جدّك رسول الله، وأبيك أمير المؤمنين، وأمّك فاطمة، وبحقّي عليك إن خاصمك أحدٌ رُدّني إلى البقيع، فادفني فيه، ولا تهرق فيّ مِحجمة دم»[5]، وقال عليه السلام: «وستعلم يا ابن أم أن القوم يظنون أنكم تريدون دفني عند رسول الله صلى الله عليه وآله فيحيلون في منعكم عن ذلك، وبالله أقسم عليك أنْ تهريق في أمري مِحْجمة دمٍ»[6]، وقد تضمنت وصية الإمام الحسن عليه السلام كذلك شذرات، وقبسات من إنسانيته المثالية، فقال: «فإنّي أوصيك يا حسين بمن خلفتُ من أهلي، وولدي، وأهل بيتك أنْ تصفح عن مسيئهم، وتقبل من محسنهم،

---

(١) تاريخ الخلفاء: ١٤٤.

(٢) ينظر: موسوعة المصطفى والعترة(الحسن المجتبى): ٥/ ٣٦١.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٥٦.

(٤) الأخبار الطوال: أبو حنيفة أحمد بن داوود الدينوري(ت ٢٨٢هـ)، تحقيق عبد المنعم عامر، ط٢، مطبعة شريعة ١٣٧٩هـ.: ٢٣١. وينظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي(ت ٣٤٦هـ)، ط١، دار القارئ، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م: ٣/ ٥.

(٥) دلائل الإمامة: ٦١.

(٦) الإرشاد: ١٨٣، وينظر: مقاتل الطالبيين: ٧٥، وتاريخ الخلفاء: ١٤٥، وكشف الغمة: ١/ ٥٤٧، وتهذيب التهذيب: ٢/ ٥٤، والفصول المهمة: ١٥٦ – ١٥٧، وأعيان الشيعة: ٢/ ٣٨٦.

وتكون لهم خلفاً وولداً، وإن تدفني مع رسول الله ﷺ، فإني أحقّ به، وببيته ممن أدخل بيته بغير إذنه»[1]، وقال عليه السلام: «فأنشدك الله بالقرابة التي قرب الله--عزَّ وجل- منك، والرحم الماسّة من رسول الله ﷺ أنْ تهريق في مِحْجَمة من دمٍ حتى نلقى رسول الله ﷺ فنختصمَ إليه، ونخبره بما كان من الناس إلينا بعده، ثم قبض عليه السلام»[2].

وقد التزم الإمام الحسين عليه السلام بوصية أخيه الإمام الحسن عليه السلام حرفياً، وقد صرّح بعهد أخيه عليه السلام، مبيناً نقض القوم للعهود، والمواثيق التي اشترطها عليه السلام عليهم، فقال عليه السلام: «والله لولا عهدُ الحسن إليّ بحقن الدماء، وأن لا أهريقَ في أمره مِحْجمة دم، لعَلِمْتم كيف تأخذ سيوفُ الله منكم مأخذها، وقد نقضتم العهد بيننا، وبينكم، وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا»[3]، وهكذا مَضَوا بالنعش الطاهر وهو يحمل الجسم الكريم إلى بقيع الفرقد، فدفنوه عليه السلام عند جدته فاطمة بنت أسد بن هاشم، وسمت نفسه الزكية إلى الرفيق الأعلى، تلك النفس الكريمة التي لم يخلق لها نظير فيما مضى من سالف الزمان، وما هو آت حِلْماً، وسخاءً، وعلماً، وعطفاً، وحناناً، وبرّاً على الناس جميعاً[4].

---

(١) بحار الأنوار: ١٠/ ٢٥٩.

(٢) بحار الأنوار: ١٠/ ٢٥٩، وينظر: أعيان الشيعة: ٢/ ٣٨٥، وصلح الحسن عليه السلام: ٣٢.

(٣) كشف الغمة: ١/ ٥٤٨. وينظر: أعيان الشيعة: ٢/ ٣٦.

(٤) ينظر: أعلام الهداية ١٨٩، وموسوعة المصطفى والعترة(الحسن المجتبى): ٥/ ٣٦٣.

الدَّليل على استحباب زيارة الأربعين

الشيخ علي سعدون الغزي

الزيارة لغةً من زَور بمعنى الميل، قَالَ الأزهريّ: (زور زأر: قَالَ اللَّيْث: يُقَال: زارَني فلانٌ يَزورُني زَوْراً وزِيَارَةً. والزَّوْرُ: الَّذي يَزُورك، رَجُل زَوْرٌ، رِجَالٌ زَوْرٌ، وامرأَةٌ زَوْرٌ، ونِسَاءٌ زَوْرٌ. وأَصل زار إِلَيْهِ: مَال، وَمِنْه تزاور عَنهُ، أَي: مَال عَنهُ. وزَوِر يزوَر، أَي: مَال)[1]، وقال الجوهريُّ: (والزَوْرُ أيضاً: الزائرون، يقال: رجلٌ زائرٌ وقوم زور وزوار، مثل سافر وسفر وسفار، ونسوة زور أيضاً وزور، مثل نوم ونوح، وزائرات. والزور بالتحريك: الميل)[2]، وقال ابن فارس: (وَالزَّوَرُ: المَيْلُ. يُقَالُ ازْوَرَّ عَنْ كَذَا، أَيْ مَالَ عَنْهُ. وَمِنَ الْبَابِ: الزَّائِرُ، لِأَنَّهُ إِذَا زَارَكَ فَقَدْ عَدَلَ عَنْ غَيْرِكَ)[3].

نعم، قَالَ ابن عبّاد أنَّها بمعنى (عاد): (وزَارَه زَوْراً وزِيَارَةً وزُرورَارَةً، وازْدَارَه: عَادَه)[4].

وفي عُرف المُتشرِّعة الزيارة هي قصد قبور الأنبياء والأئمّة «صلوات الله عليهم» تعظيمًا، وطلبًا للثواب.

وهي على صنفين عامّة غير مخصوصة بزمانٍ مُعيّنٍ، وخاصّة بزمان كذلك، ومن الثاني زيارة الإمام الحُسَيْن عليه السلام يوم الأربعين الموافق للعشرين من صفر من كُلِّ عام.

واستحباب زيارة الأربعين وَإِنْ كان مشمولاً لعموم ما دلّ – من النصوص المُستفيضة إنْ لم تكن مُتواترة – على استحباب زيارته عليه السلام كمعتبرة (محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: مروا شعيتنا بزيارة قبر الحُسَين عليه السلام، فإنّ إتيانه يزيدُ الرزق، ويمدُّ في العُمر، ويدفعُ مدافعَ السّوء، واتيانُه مفترضٌ على كُلِّ مؤمنٍ يقرّ له بالإمامة من الله)[5]. إلاَّ أَنَّهُ وقع الكلام في قيام الدَّليل الخاصّ عليها، حتّى نُقِلَ عن بعضٍ نفيُهُ، ومن أجل ذلك عقدنا هذه الصفحات لبيانه فنقول:

---

(١) تهذيب اللغة: ج١٣/ ص١٦٣.

(٢) صحاح اللغة: ج٢/ ص٣٦٧.

(٣) مُعجم مقاييس اللغة: ج٣/ ص٣٦.

(٤) المُحكم والمُحيط الأعظم: ج٩/ ص١٠٠.

(٥) تهذيب الأحكام: ج٦/ ص٤٢/ ح١.

وردتْ روايتان في خصوص زيارة الأربعين للإمام الحُسَيْن ﷺ:

أحدها: ما روي في تهذيب الأحكام للشّيخ الطوسي -رحمه الله- عن (جماعة من أصحابنا عن أبي محمّد هارون بن موسى بن أحمد التلعكبري قال: حدثنا محمّد بن عليّ بن معمّر قال: حدثني أبو الحسن عليّ بن محمّد بن مسعدة والحسن بن عليّ بن فضال عن سعدان بن مسلم عن صفوان بن مهران الجمّال قال: قال لي مولاي الصادق -صلوات الله عليه- في زيارة الأربعين: تزور عند ارتفاع النَّهار وتقول: السّلام على ولي الله وحبيبه، السّلام على خليل الله ونجيبه السّلام على صفي الله وابن صفيّه، السّلام على الحُسَين المظلوم الشهيد، السّلام على أسير الكربات وقتيل العبرات، اللهم إنِّي اشهد أنَّه وليك وابن وليّك وصفيك وابن صفيّك الفائز بكرامتك...)[1].

وهي بعد وضوح كونها واردةً في زيارة الأربعين للإمام الحُسَيْن ﷺ، يمكن البناء بِعدِّها سنَداً، وتوضيح ذَلِكَ:

أَمَّا قوله: (جماعة من أصحابنا) فيمكن استحصال اعتباره من جهة أنَّ الـ(جماعة) لا تصدق إِلَّا على ثلاثة فما زاد، ووجود ثلاثة رواة في طبقةٍ واحدةٍ مِمَّا يوجب الوثوق بسلامة المروي عنهم، لبُعد اتفاقهم على الكذب.

خصوصاً وَأَنَّهُ من المظنون قويًّا أنْ يكون من بينهم الحُسَين بن عبيد الله الغضائريّ الثّقة[2]، لكثرة توسطه بين الشّيخ والتلعكبري في غير موطن[3].

مُضافاً إلى أنَّ ظاهر الشّيخ الطوسي «رحمه الله» الاعتماد عليهم في الرّواية عن التلعكبريّ، لكثرة نقله عنه بتوسطهم في التهذيب[4].

وأَمَّا (هارون بن موسى بن أحمد التلعكبري) فقد نصّ النجاشيّ على وثاقته، قائلاً: (كان وجهًا في أصحابنا، ثقةً، معتمدًا لا يطعن عليه)[5]، والشّيخ في رجاله، قائلًا: (جليل القدر، عظيم المنزلة، واسع الرواية، عديم النظير، ثقة، روى جميع الأصول والمصنفات)[6].

وأَمَّا (محمّد بن علي بن معمّر) فقد ذكره الشّيخ في رجاله من غير مدح أو ذم، قائلاً: (محمّد بن علي بن معمّر

---

(١) تهذيب الأحكام: ج٦/ ص١١٣/ ح١٧.

(٢) معجم رجال الحديث: ج٧/ ص٢٢.

(٣) يُلاحظ: أمالي الشيخ الطوسي: ص٣٠٠/ ح٤١. وص٣٠٥/ ح٥٨. وص٤٤٣/ ح٤٩. وص٦٤٣/ ح٢٢. وص٦٤٤/ ح٢٣. وغيرها.

(٤) يُلاحظ: تهذيب الأحكام: ج١/ ص٢٦/ ح٦. وج١/ ص١١٧/ ح٤٠. وج١/ ص١٢٢/ ح١٥. وج١/ ص١٢٩/ ح٤٣. وج١/ ص١٥٢/ ح٥. وغيرها.

(٥) رجال النجاشي: ص٤٣٩/ رقم١١٨٤.

(٦) رجال الشيخ: ص٤٤٩/ رقم٦٣٨٦.

الكوفي، يكنّى أبا الحسين، صاحب الصبيحيّ[1]، سمع منه التلعكبريّ سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، وله منه إجازة)[2]، وقال في الفهرست: (أبو الحُسَين الكوفي، ابن معمّر، له كتب، منها كتاب قرب الإسناد، ذكره ابن النديم)[3].

لكنَّهُ روى عنه الثقات كالكُليني[4]، وهارون بن موسى[5]، ووقع في طريق النجاشيّ إلى كُتُب حمدان بن المعافى[6]، وصبيح الصائغ[7]، وَعَبد الرحمن بن أبي نجران[8].

ورُبّما كشف ذلك عن كونه من مشايخ الإجازة المُعتبرين الذين لم يُتعرض لحالهم لمعلوميتها في الجلالة والاعتبار.

كما أنَّ الظَّاهر أنَّ الوجه في عدم تعرّض النجاشيّ له في كتابه مع أنَّهُ مُعدٌّ لذكر المُؤلفين من أصحابنا[9]، وظاهر مجموع روايات ابن معمّر أنَّهُ منهم، هو أنَّهُ لم يُذكر ابن معمّر ظاهراً إِلَّا في كتاب الفهرست لابن النديم كما أشارتْ إلى ذلك عبارة الشَّيْخ في الفهرست المُتقدّمة، لكنَّ فهرست ابن النديم وَإِنْ كان من مصادر النجاشيّ في رجاله إِلَّا أَنَّهُ ظاهراً لم يكن يعتمد عليه كثيرًا، إذ لم ينقل عنه إِلَّا مرّةً واحدةً[10]، مُضافًا إلى أنَّ ابن النديم لم

(١) وهو حمدان بن المعافى، قَالَ النجاشي: (حمدان بن المعافى، أبو جعفر الصبيحي من قصر صبيح، مولى جعفر بن محمد، روى عن موسى والرضا ﷺ، وروى عن مسعدة بن صدقة وغيره. له كتاب شرائع الايمان، وكتاب الإهليلجة أخبرنا محمد بن علي الكاتب قال: حدثنا هارون بن موسى قال: حدثنا محمد بن علي بن معمر عن حمدان بن المعافى. قال ابن نوح: مات حمدان سنة خمس وستين ومائتين لما دخل أصحاب العلوي البصري قسين وأحرقوها. وقال: قال ابن معمر: إنَّ أبا الحسن موسى و الرضا ﷺ دعوا له). ص١٣٨/ رقم ٣٥٦.

(٢) رجال الشيخ: ص٤٤٢/ رقم٦٣١٠.

(٣) الفهرست: ص٢٧٧/ رقم٨٧٣.

(٤) الكافي: ج٨/ ص١٨/ ح٤. وص٣١/ ح٥.

(٥) تهذيب الأحكام: ج٣/ ص٦٦/ ح٢١. وج٦/ ص١١٣/ ح١٧. وأمالي الشَّيْخ الطوسي: ص٦٤٥/ ح١. وص٦٤٦/ ح٣. ورجال النجاشيّ: ص١٢٨/ رقم٣٥٦. وقد تقدَّمتْ ترجمته.

(٦) رجال النجاشيّ: ص١٣٨/ رقم٣٥٦.

(٧) المصدر نفسه: ص٢٠٢/ رقم٥٤١.

(٨) المصدر نفسه: ص٢٣٥/ رقم٦٢٢.

(٩) قَالَ في المُقدّمة: (أما بعد، فإنِّي وقفت على ما ذكره السيد الشريف أطال الله بقاءه وأدام توفيقه من تعيير قوم من مخالفينا أنَّه لا سلف لكم ولا مصنف. وهذا قول من لا علم له بالناس ولا وقف على أخبارهم، ولا عرف منازلهم وتاريخ أخبار أهل العلم، ولا لقي أحدًا فيعرف منه، ولا حجة علينا لمن لم يعلم ولا عرف. وقد جمعت من ذلك ما استطعته، ولم أبلغ غايته، لعدم أكثر الكتب، وإنَّما ذكرت ذلك عذرًا إلى من وقع إليه كتاب لم أذكره. وقد جعلت للأسماء أبوابًا على الحروف ليهون على الملتمس لاسم مخصوص منها. (وها) أنا أذكر المتقدمين في التصنيف من سلفنا الصالح، وهي أسماء قليلة، ومن الله أستمد المعونة، على أن لأصحابنا رحمهم الله في بعض هذا الفن كتبًا ليست مستغرقة لجميع ما رسمه، وأرجو أن يأتي في ذلك على ما رسم وحد إن شاء الله (تعالى)). رجال النجاشيّ: ص٣.

(١٠) رجال النجاشيّ: ص١١٤/ رقم٢٤٩. (بندار بن محمد بن عبد الله إمامي متقدم، له كتب، منها: كتاب الطهارة، كتاب الصلاة، كتاب الصوم، كتاب الحج، كتاب الزكاة، ذكر ذلك أبو الفرج محمد بن إسحاق أبي يعقوب النديم في كتاب الفهرست، وذكر أيضاً له كتابا في الإمامة، وكتابا في المتعة، وكتابا في العمرة).

يذكره صريحًا، وَإِنَّمَا ذكره بكُنيته من غير أنْ يذكر اسمه واسم أبيه مِمَّا لعله لم يوجب اطمئنان النجاشيّ باتحاده مع محمّد بن عليّ بن معمّر، ونصّ كلام ابن النديم: (ابن معمّر أبو الحسين.. بن معمّر الكوفي. وله من الكتب، كتاب قرب الإسناد)[1].

ثُمَّ إنَّهُ بناءً على الاقتصار على كتاب النجاشيّ وَأَنَّهُ لم يذكر ابن معمّر، وكتاب الرِّجَال للشّيخ، الذي ذكره من غير مدح أو ذم، ولم يُشر إلى أَنَّهُ صاحب كتاب، وأنّ من ذكره ابن النديم لا يُحرز اتحاده مع المبحوث عنه يكشف أنَّ دور ابن معمّر شرفيٌّ في السند، وَأَنَّهُ مذكور لاتصاله فقط فلا تضر جهالتُهُ على تقديرها، لِأَنَّهُ حينئذٍ مجرد شيخ إجازة في الحديث وروايته، ومذكورٌ في السند من أجل اتصاله فقط، فيكون الخبر مرويًّا إِمَّا عن أحد كُتُب ابن فضال ككتاب الزيارات[2]، لكنْ يمكن أنْ يُبعده وقوع عليّ بن محمّد بن مسعدة إلى جنب ابن فضال في السّند المُشعر بروايتهما معًا عن سعدان، إِلَّا أنْ يكون الخبر مرويًّا في كتاب ابن فضال أيضاً، ومن المعلوم شهرة كُتُب بني فضال[3].

أو يكون مرويًّا عن كتاب سعدان بن مسلم، وهو كتابٌ مشهور، لقول النجاشيّ: (له كتاب يرويه جماعة)[4].

أو يكون مرويًّا عن كتاب صفوان بن مهران، وهو كتابٌ مشهور أيضاً، لقول النجاشيّ: (له كتاب يرويه جماعة)[5].

وأَمَّا عدم تعرّض الشَّيْخ لحاله في الكتابين، فهو لم يلتزم عملاً بذلك، فكم من ثقةٍ أو ضعيفٍ لم يتعرّض لحاله مع تعرّض النجاشيّ لها.

وأَمَّا (أبو الحسن عليّ بن محمّد بن مسعدة)، فلا تضر جهالتُهُ، لعدم ذكره في الأُصول الرّجاليّة، لأنَّ ابن معمّر روى عنه وعن ابن فضال في نفس الطبقة لمكان عطفه عليه بالواو في السند حيثُ قَالَ: (حدثني أبو الحسن عليّ بن محمّد بن مسعدة والحسن بن عليّ بن فضال).

وأَمَّا (الحسن بن عليّ بن فضال)، فقال فيه الشَّيْخ في الفهرست: (روى عن الرضا عليه السلام وكان خصيصاً به، كان جليل القدر، عظيم المنزلة، زاهدًا ورعًا، ثقةً في الحديث وفي رواياته)[6]. وفي الرجال: (الحسن بن علي

(١) الفهرست، لابن النديم: ص٢٧٨.

(٢) رجال النجاشيّ: ص٣٦.

(٣) فقد روى الشَّيْخ في الغيبة قائلاً: (وقال أبو الحسين بن تمام: حدثني عبد الله الكوفي خادم الشيخ الحسين بن روح رضي الله عنه، قال: سئل الشيخ يعني أبا القاسم رضي الله عنه عن كتب ابن أبي العزاقر بعدما ذم وخرجت فيه اللعنة، فقيل له: فكيف نعمل بكتبه وبيوتنا منها ملاء؟ فقال: أقول فيها ما قاله أبو محمد الحسن بن علي صلوات الله عليهما وقد سئل عن كتب بني فضال، فقالوا: كيف نعمل بكتبهم وبيوتنا منها ملاء؟. فقال صلوات الله عليه: « خذوا بما رووا وذروا ما رأوا»). الغيبة: ص٤١٠/ ح٣٥٥.

(٤) رجال النجاشيّ: ص١٩٢ ١٩٣/ رقم ٥١٥.

(٥) المصدر نفسه: ص١٩٨/ رقم٥٢٥.

(٦) الفهرست: ص٩٧ ٩٨/ رقم١٦٤.

بن فضال، مولى لتيم الرباب، كوفي، ثقة)[1]، وذكر فيه النجاشّي قصةً في تدينه عن الفضل بن شاذان[2] وأَمَّا (سعدان بن مسلم)، فهو سعدان بن مسلم واسمه عبد الرحمن بن مسلم، أبو الحسن العامري، مولى أبي العلاء كرز بن حفيد العامري، من عامر ربيعة، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن ﷺ، وعمر عمرًا طويلاً، له كتاب يرويه جماعة[3]، وقد ذكره النجاشّي والشّيخ من غير مدح أو ذم[4]، لكنَّهُ ثقةٌ لرواية ابن أبي عمير[5]، وهو لا يروي إِلَّا عن ثقةٍ موثوق به كما نصّ على ذلك الشَّيْخ في العُدّة[6]، مضافًا إلى رواية جملة من الأجلاّء والثقات عنه كيونس بن عبد الرحمن[7]، والحسن بن محبوب[8]، ومحمّد بن علّي بن محبوب[9]، والحسن بن فضال[10]، والعباس بن معروف[11]، وعلّي بن أسباط[12]، وأحمد بن إسحاق وقد أكثر عنه[13]، قَالَ الوحيد البهبهاني «رحمه الله»: (ورواية هؤلاء الأعاظم -العباس بن معروف وعبد الله بن الصلت القمي وأحمد بن إسحاق- عنه شهادة على كونه ثقةً ولا سيما وفيهم صفوان، ويشهد عليه أيضًا رواية ابن أبي عمير عنه، وأنَّ القمّيين رووا رواياته ولا سيما أحمد بن عيسى وابن الوليد عنهم، وأنَّ الأصحاب حتى المتأخّرين يرجّحون روايته على الثّقة الجليل... وأنَّ الأعاظم غير المذكورين أيضًا رووا عنه مثل الحسن بن محبوب ومحمّد بن عليّ بن محبوب ويونس بن عبد الرحمن وغيرهم، ويؤيّده أَنَّهُ كثيرُ الرّواية، ورواياته مقبولة مفتى بها، وكتابه يرويه جماعة، وَأَنَّهُ صَاحِبُ أصلٍ)[14].

وأَمَّا (صفوان بن مهران)، فقد نصّ النَّجاشيّ على وثاقته قائلاً: (صفوان بن مهران بن المغيرة الأسديّ

---

(١) رجال الشَّيْخ: ص٣٥٤/ رقم٥٢٤١.

(٢) رجال النجاشيّ: ص٣٤/ رقم٧٢.

(٣) يُنظر: رجال النجاشيّ: ١٩٢ ١٩٣/ رقم٥١٥.

(٤) رجال النجاشيّ: ص١٩٢/ رقم٥١٥، والفهرست: ص١٤٠/ رقم٣٣٦، ورجال الشَّيْخ: ص٢١٥/ رقم٢٨٢٦.

(٥) الكافي: ج١/ ص١٧٨/ ح٢.

(٦) عُدَّة الأصول: ج١/ ص١٥٤: (وإذا كان أحد الراويين مسندًا والآخر مرسلاً، نظر في حال المرسل، فإن كان ممّن يعلم أَنَّه لا يرسل إلّا عن ثقة موثوق به فلا ترجح لخبر غيره على خبره، ولأجل ذلك سوت الطائفة بين ما يرويه محمد بن أبي عمير، وصفوان بن يحيى، وأحمد بن محمد ابن أبي نصر، وغيرهم من الثقات الذين عرفوا بأَنَّهم لا يروون ولا يرسلون إلّا عمّن يوثق به وبين ما أسنده غيرهم، ولذلك عملوا بمراسيلهم إذا انفردوا عن رواية غيرهم).

(٧) أمالي المُفيد: ص١٥٦/ ح٧.

(٨) الكافي: ج٦/ ص١٧٢/ ح٩.

(٩) تهذيب الأحكام: ج١/ ص٣٥٣/ ح١٤.

(١٠) المصدر نفسه: ج٦/ ص١١٣/ ح١٧.

(١١) الكافي: ج٦/ ص٣٨٠/ ح٣.

(١٢) المصدر نفسه: ج٨/ ص٣٠٧/ ح٤٧٨.

(١٣) المصدر نفسه: ج١/ ص٣٣/ ح٩. وج٢/ ص١٩٢/ ح١٣. وج٣/ ص١٧٤/ ح٢. وج٤/ ص١٦٥/ ح٦. وج٥/ ص٤٥٢/ ح٧. وغيرها.

(١٤) تعليقة الوحيد على منهج المقال: ج٥/ ص٣٧٤.

مولاهم، ثُمَّ مولى بني كاهل منهم، كوفيّ، ثقة، يُكنَّى أبا محمد، كان يسكن بني حرام بالكوفة وأخواه حسين ومسكين. روى عن أبي عبد الله ﷺ، وكان صفوان جمّالاً)[1].

والخلاصة: إنَّ سند الرّواية المذكورة لم يُنصّ على ضعف أحد رجالاته، بل حالهم دائرة بين النّصّ على التوثيق وهو الغالب فيهم، وبين من لم يرد فيه توثيق صريح وهما محمّد بن عليّ بن معمر، وسعدان بن مسلم، والثاني ثقةٌ برواية ابن أبي عمير عنه، والأوّل موثوق به لكونه من مشايخ الإجازة المُعتبرين، أو لا أقل أنّ دوره شرفيٌّ فلا تضر جهالتُهُ على تقديرها، وبذلك يكون السند مُعتبرًا.

الأُخرى: ما روي في تهذيب الأحكام أيضاً عن (أبي محمّد الحسن العسكريّ ﷺ أنَّه قال: علاماتُ المؤمن خمسٌ: صَلاةُ الخمسين، وزيارةُ الأربعين، والتّختّمُ في اليمين، وتعفيرُ الجبين، والجهرُ ببسم الله الرحمن الرحيم)[2].

فإنّها وَإِنْ كانتْ ضعيفةَ السَنَّدِ بالإرسال إِلَّا أنَّ قاعدة التسامح في أدلة السُنَن تشملها. علماً أنّ القاعدة المذكورة بنى على حُجّيّتها مشهور فقهاء الإماميّة، ولا أقل من كون هذا المُرسل مؤيّدًا للمُعتبرة السابقة.

وما يمكن أنْ يُقال من أنَّ المراد من (زيارة الأربعين) في المُرسل المذكور هو زيارة أربعين مؤمنًا لا زيارة الإمام الحُسَيْن ﷺ.

يدفعه: عدم ثبوت استحباب زيارة أربعين مؤمنًا بعنوانه، ولو بخبرٍ ضعيف، وَإِنَّما الثابتُ استحباب زيارة المؤمن[3]، واستحباب الدعاء لأربعين مؤمنًا قبل طلب الحاجة[4]، بخلاف زيارة الأربعين للإمام الحُسَيْن ﷺ فَإِنَّهُ ورد فيها الحديث السابق المُعتبر سندًا كما تقدّم بيانه. كما يشهد ذكر المُرسل المذكور من قِبل الشَّيْخ في التهذيب في باب فضل زيارة الإمام الحُسَيْن ﷺ على إرادتها منه[5]. بل وكذا فعل «رحمه الله» في مصباح

---

(١) رجال النجاشيّ: ص١٩٨/ رقم٥٢٥.

(٢) تهذيب الأحكام: ج٦/ ص٥٢/ ح٣٧.

(٣) يُنظر: الكافي: ج٢/ ص١٧٥/ باب زيارة الإخوان.

(٤) الكافي: ج٢/ ص٥٠٩/ ح٥. ومستدرك الوسائل: ج٥/ ص١٤٩/ ح١. وجامع أحاديث الشيعة: ج١٥/ ص٣١٧/ ح١٠٣٧. وأَمَّا الاستغفار أو الدعاء لأربعين مؤمناً في صلاة الوتر من نافلة الليل فقد قَالَ فيه صاحب الجواهر «رحمه الله»: (ويستحب أن يقول في الوتر أيضًا: ما كأن يقوله النبي: ﷺ هذا مقام العائذ بك من النار سبع مرات) وعلي بن الحسين ﷺالعفو العفو ثلاثمائة مرة) والدعاء فيه بالمأثور، قيل ولأربعين مؤمنًا وأزيد قبل الدعاء لنفسه، بل قيل: والأولى كونهم من أصحاب النبي ﷺ والأئمة ﷺ، ويزيد عليهم ما شاء، ولم نقف على خبر بالخصوص في الأخير، كما أن الذي عثرنا عليه مطلق استحباب الدعاء للأربعين قبل دعائه لنفسه كي يستجاب له لا في خصوص الوتر، إلا أنه لما كان هذا لطلب العفو والرحمة وغيرهما استحق ذكر كل ما له مدخلية في استجابة الدعاء، بل قد يقال إنَّ اشتهار ذلك بين الأصحاب فتوى وعملا لا يكون إلا عن نص وإن لم يصل إلينا، ولعله للاستغناء بهذه الشهرة عنه كما هو الشأن في كل اجماع لا نص فيه، فالأمر سهل وإن لم نقف فيه على نص. جواهر الكلام: ج٧/ ص٣٥٣٤.

(٥) تهذيب الأحكام: ج٦/ ص٥٢/ ح٣٧، حيثُ ذكر المُرسل المذكور في آخر باب فضل زيارة الإمام الحُسَيْن ﷺ.

المتهجّد[1]، ومثله ابن طاووس -رحمه الله- في الإقبال[2]، المجلسيّ في البحار[3].

هذا، ورُبَّما يُؤيد استحباب زيارة الأربعين بما ذكره الشَّيْخ -رحمه الله- في المُصباح من أنّ يوم العشرين من صفر (هو اليوم الذي ورد فيه جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاريّ صاحب رسول الله ﷺ ورضي عنه من المدينة إلى كربلاء لزيارة قبر أبي عبد الله ﷺ فكان أوّل من زاره من الناس)[4]، ونقل المجلسّي -رحمه الله- في البحار عن عطاء قوله: (كنت مع جابر بن عبد الله يوم العشرين من صفر فلَمّا وصلنا الغاضريّة اغتسل في شريعتها ولبس قميصًا كان معه طاهرًا، ثُمَّ قال لي: أَمَعكَ شيءٌ من الطّيب يا عطا؟ قلتُ: معي سعد، فجعل منه على رأسه وساير جسده، ثُمَّ مشى حافيًا حتّى وقف عند رأس الحُسَين ﷺ وكبّر ثلاثاً ثُمَّ خرَّ مغشيًّا عليه فلَمّا أفاقَ سمعتُهُ يَقُولُ: اَلسَّلامُ عليكم يا آلَ الله، السَّلامُ عليكم يا صَفوةَ الله، اَلسَّلامُ عليكم يا خِيرةَ الله من خَلقِهِ، اَلسَّلامُ عليكم يا سادات السادات...)[5].

---

(١) مصباح المُتهجد: ص ٧٨٧ ٧٨٨.

(٢) إقبال الأعمال: ج٣/ ص١٠٠.

(٣) بحار الأنوار: ج٩٨/ ص٣٢٩.

(٤) مُصباح المُتهجد: ص٧٨٧.

(٥) بحار الأنوار: ج٩٨/ ص٣٢٩.

الزيارة الأربعينية مفهومها، وأبعادها

أ.م. د خليل خلف بشير

مرّت على نهضة الإمام الحسين ﷺ في كربلاء قرونًا عديدة، ونحن نشاهدها كلَّ يوم تزداد رسوخًا وشمولية حتَّى أصبحت القضية عالميّة فرضت نفسها بقوّة على الصُعُد جميعها، والمسألة ليست صدفة بل هي قضية تسير وفق تخطيط إلهي دقيق فالإرادة الربَّانية كانت ومازالت ترعى هذه الثورة بكلِّ تفاصيلها، واتخذت تلك الرعاية الرّبّانية لصالح القضية الحسينية المباركة من خلال ربط الجماهير بالإمام الحسين وثورته بوساطة غرس الحبّ الحسيني في القلوب، وتسخير الطاقات لصالح القضية الحسينية فضلاً عن دفع كافَّة الأخطار التي أحاطت، وقد رأيت أن أبحث في الزيارة الأربعينية مفهومها وأبعادها تلك الزيارة التي أقضّت مضاجع الغرب وأذنابهم، نسأل الله أن يوفقنا فيه ويجعله في ميزان حسناتنا (**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**)[1] .

ولعلّ سر اختصاص المشي بزيارة الحسين ﷺيوم الأربعين يعود الى ثلاثة أمور هي[2]:

١- إنّ أوَّل من زار هو الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري، والناس يزورون الحسين ﷺ في هذا اليوم تأسّيًا بهذا الصحابي الجليل، (ولعل العلّة في استحباب الزيارة في هذا اليوم هو أنَّ جابر بن عبد الله الأنصاري -رضي الله عنه- في مثل هذا اليوم وصل من المدينة إلى قبره الشريف وزاره بالزيارة التي مرّ ذكرها، فكان أوّل من زاره من الإنس ظاهرًا، فلذلك يستحب التأسّي به))[3]، وسمّيت بزيارة الأربعين ((لأنَّ وقتها يوم العشرين من صفر، وذلك لأربعين يومًا من مقتل الحسين ﷺ))[4].

٢- حثّ الأئمة ﷺ على الزيارة في هذا اليوم، وجعلوها من علامات المؤمن. قال الإمام الحسن العسكري ﷺ: ((علامات المؤمن خمس: صلاة الإحدى والخمسين، وزيارة الأربعين، والتّختّم باليمين، وتعفير الجبين،

---

(١) الشعراء/ ٨٨-٨٩.

(٢) ينظر: المشي لزيارة الإمام الحسين ﷺ وباقي الأئمة - دراسة في ضوء الموازين الفقهية، الشيخ حبيب عبد الله الساعدي، مجلة الإصلاح الحسيني، السنة الثانية، العدد ٦، ١٤٣٥ه-٢٠١٤م، ص٢٥٥-٢٥٦.

(٣) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، تحقيق: السيد إبراهيم الميانجي، محمد الباقر البهبودي، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٣ - ١٩٨٣م.٩٨/ ٣٣٤.

(٤) المصدر نفسه ٩/ ٣٠١.

والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم))[1].

٣- في هذا اليوم التقى الإمام زين العابدين ﷺبالصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري بعد رجوع آل البيت من الشام الى كربلاء ولاقوا ما لاقوه من العذاب والعناء والظلم الشديد فالمواسون إنَّما يزورون الإمام الحسين ﷺفي هذا اليوم مشيًا على الأقدام مواساة لما جرى على عيال الحسين ﷺ.

وقد أثبتت تلك الملايين في توجهها الصادق صدق المقولة الشهيرة(الإسلام محمّدي الوجود، وحسيني البقاء)، وهي عبارة حبّ وعاطفة أطلقها عشّاق ومحبو الإمام الحسين ﷺ فقد كانت المسيرة الإسلامية بعد استشهاد أمير المؤمنين ﷺقد اتخذت طابعًا وراثيًّا وانحرفت عن مبادئها التي أراد لها الله سبحانه تعالى، وتوالى على رقاب المسلمين أراذل الخلق وأشرارهم بيد أنَّ الإمام الحسين ﷺبخروجه وثورته المباركة أثبت حيويّة الإسلام وتصدّيه للظلم ورفضه للطاغوت، ولعلَّ خروجه ﷺفي الثامن من ذي الحجة وخلعه ثياب الإحرام للتّوجّه الى الجهاد ونصرة الحق أبلغ دلالة على أهمّيّة النَّهج الحسيني فالحسين في ثورته أصرّ على القيم المحمّديّة في حين أصرّ أعداء الإسلام على نهج الطّاغوت[2].

وقد تفرّدت زيارة الإمام الحسين ﷺبالتّنوّع والتَّعدّد والكثرة التي لا شبيه لها مقارنة بزيارات المعصومين ﷺ جميعًا على أنَّ من الزيارات الموسمية التي يصل عدد الوافدين فيها إلى الملايين كزيارة عاشوراء، وزيارة الأربعين، وزيارة الأوّل من رجب، وزيارة النّصف من رجب، وزيارة النّصف من شعبان، وزيارة ليالي القدر في شهر رمضان، وزيارة عيد الفطر، وزيارة عرفة، وزيارة عيد الأضحى فضلاً عن الزيارات العامّة[3]، ولعلَّ لزيارة الأربعين خصوصية في كثرة الوافدين من مختلف بقاع العالم لذا ينظر المراقبون الدوليون الى هذا المهرجان العباديّ الرّوحيّ التّعبويّ على وجل وخوف؛ لأنَّ هذه الوفود والقدرة في التّعبئة المليونية والسّنويّة لا تمتلكها أيّ دولة عظمى ولا وسطى ولا أخرى ولا الإسلامية بل حتى النّظم الشيعية لا تمتلك هذه القدرة، وإنَّما الذي يمتلك هذه القدرة والوميض والمحرك هو الإمام الحسين ﷺبشكلٍ طوعيّ بلا ترغيب ولا ترهيب بل فيه التَّضحية بالنَّفس والمال ولاسيما والزائرون المشاة في تحدٍّ خطيرٍ تجاه الإرهاب الحاقد الأعمى البغيض[4].

فالإمام الحسين ﷺالذي استشهد قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا مازال مسيطرًا على النّظم البشرية والمجتمع

(١) الحدائق الناضرة، المحقق البحراني، تحقيق وتعليق وإشراف: محمد تقي الإيرواني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، (د.ت).٨/ ١٦٧.

(٢) زيارة الأربعين التاريخية: الإسلام محمدي الوجود حسيني البقاء، سعد خيون العبادي، org.annabaa.m ٨٧٤٢ /ashuraa /bic..

(٣) ينظر: ثقافة الزيارة عند أتباع أهل البيت – مقاربات تأملية في اتجاه فهم الآخر/ محمد عبد الرضا هادي الساعدي، ط٢، دار الهدى، مؤسسة الإمام الحسن ﷺ،(د.ت).٢١٠.

(٤) ينظر: أسرار زيارة الأربعين، تقرير لأبحاث آية الله الشيخ محمد السند، بقلم: إبراهيم حسين البغدادي، ط١، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٣٣ه-٢٠١٢م.١٤.

البشري أقوى من سيطرة أيّ نظام في العالم إذ يخرج زمام الأمر من يد الدّولة، ويكون بيد الحسين ﷺ، وهو ما قاله بعض المسؤولين من أنَّ الحسين ﷺيحكم العراق خلال زيارة الأربعين، ولو أُطلق الفضاء للشعوب الأخرى لرأيناهم ينجذبون وينقادون للحسين وما تمليه مبادئ الحسين وقيمه والجو التربوي لسيد الشهداء لعاشت البشرية في الجنان؛ لأنَّ الإمام الحسين ﷺيحكم القلوب الى الصفاء، وليست البشرية وحدها تنقاد له بل حتى الملائكة[1] فعن الإمام الصادق ﷺأنَّه قال: ((...وليس من ملك ولا نبيّ في السماوات ولا في الأرض إلّا ويسألون الله أن يأذن لهم في زيارة قبر الحسين ﷺففوج ينزل وفوج يعرج))[2].

ولعلّ أبرز ما يظهر العظمة والجلال في الشَّعائر الحسينية بعدان هما:

١- البُعد العقائديّ: ذلك لأنَّ الشَّعائر الحسينيّة محمّدية متَّصلة بسيِّد النّبيين لقوله ﷺ ((حسين منِّي وأنا من حسين أحبَّ الله من أحبَّ حسينًا))[3]، والاتصال بالرسول منطق قرآنّي إذ يقول الله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)[4]، وبذا تكون الشعائر الحسينية محمّديّة إلهية، وتمثّل فعلًا استراتيجيًّا يهدف الى توحيد القلوب في سياق عولمة توحيد الله. قال تعالى: (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)[5].

٢- البعد العاطفي أو الوجداني: وهو بعد لا ينفك عن حركة القلب في خطّ العقل، وهذه الحركة العقلانية هي العقيدة، وهي الحبّ. قال الإمام الباقر ((وهل الدين إلا الحب وهل الدين إلا الحب قال الله تعالى « حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ»[6] وقال «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ»[7] وقال «يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ»[8]))[9].

ويتجلّى هذان البعدان (العقائدي والعاطفي أو الوجداني) في الشعائر الحسينية بالتنقل من الذكر والفكر، والحرارة في القلب، والمعرفة الى اللهج، والدمع، والنشيج والنحيب، والجزع بلا حدود، والتوثب في ساحات

---

(١) ينظر: أسرار زيارة الأربعين: ٣٢.

(٢) الوافي الفيض الكاشاني عني بالتحقيق والتصحيح والتعليق عليه والمقابلة مع الأصل ضياء الدين الحسيني « العلامة » الأصفهاني، ط١، طباعة أوفسيت نشاط أصفهان، مكتبة الامام أمير المؤمنين علي ﷺ العامة، أصفهان، أول شوال المكرم ١٤٠٦ هـ. ق ١٩ / ٣ / ٦٥هـ. ش.١٤/ ١٥١٩.

(٣) بحار الأنوار ٤٣/ ٢٦١.

(٤) الآية ٧ من سورة الحشر.

(٥) من الآية ٣٣ من سورة التوبة، ومن الآية ٢٨ من سورة الفتح، ومن الآية ٩ من سورة الصف.

(٦) من الآية ٧ من سورة الحجرات.

(٧) من الآية ٣١ من سورة آل عمران.

(٨) من الآية ٩ من سورة الحشر.

(٩) الوافي ٥/ ٨٢٦.

(يا ليتنا كنّا معك) وصولاً الى لقاء الله بتاج الشهادة، ووسام السعادة[1].

معطيات

هناك معطيات عديدة في هذه الزيارة المليونية المباركة والمؤيدة إلهيًّا من خلال الآتي:

١- **ثقافة الولاء والبراءة:** وتُعدّ ثقافة الولاء والبراءة من أعظم ثقافات عاشوراء وكربلاء، وهي ثقافة أساسيّة في بناء الشَّخصية الإسلامية فلا نجد في غير الإسلام ثقافة بمثل قوّتها ومتانتها وإحكامها، وهذه الثَّقافة مبثوثة في زيارات أهل البيت عليهم السلام عامّة وفي زيارات الإمام الحسين عليه السلام خاصّة على أنَّ هذه الثقافة هي ثقافة توحيدية منحدرة عن أصل التّوحيد، وتأتي في امتداده الطّولي، وكلّ ولاء مشروع يأتي في امتداد الولاء له سبحانه.

٢- **استعراض القوى المؤمنة:** يقرّ المراقبون الدوليون المترصّدون بأنَّ هذه الزيارة المليونية هي أكبر معهد ومعسكر لتدريب النّفس البشرية على التضحية والفداء والعطاء بحيث لو أرادت أيّ دولة كبرى أن تعبّئ شعبها، ولو لشرائح قليلة استعدادًا لحرب أو حرب طوارئ فلا تستطيع أن تجنّد إلّا القلّة القليلة وبالتّرغيب والتّرهيب في حين زيارة الأربعين نجد الملايين من البشر يزحفون بشكلٍ طوعيّ.

٣- **العمل التّطوّعي:** رَاقَب هذه الظاهرة والمظاهرة الحسينية الغربيّون عبر الأقمار الاصطناعية لمدَّة أسبوع أو أكثر وبث مباشر فانبهروا واعترفوا بأنَّ الشيعة أكثر تحضّرًا بالمقايسة مع الأحداث التي تقع في نيويورك أو باريس.

٤- **الإحساس العبادي الطويل:** تتيح ممارسة زيارة الأربعين فرصة الشعور العبادي المتواصل مثلها مثل الحج، وصيام شهر رمضان إذ تنتظم هذه الممارسات ضمن شوطٍ عباديٍّ طويل وتتآزر نشاطاتها لتمنح الممارس وعيًا وإحساسًا وتفاعلاً عباديًّا مستمرًّا، فالزائر الماشي إلى الإمام الحسين عليه السلام يشعر بالحضور القلبي والعقلي، ويعيش حالة من الوعي المستمر لما يقوم فيه، فقد تعهّدت له النّصوص الشرعيّة بأن يُثاب على كلّ خطوة يخطوها في طريق أبي عبد الله الحسين عليه السلام؛ لهذا تجد الجميع يحثّ الخطى دونما كلل وتعب للاستزادة من اقتطاف الأجر الذي ألمعت إليه النّصوص الشَّرعيّة.

٥- **الرَّاحة النَّفسيّة والعقلية:** تعدّ ظاهرة المشي في أثناء زيارة الأربعين فرصة حقيقيّة لمعالجة الأمراض التي أشرنا إليها، ولاسيّما الأمراض النفسية مثل الكآبة والخوف، ويتميّز علاج المشي في هذه الزيارة بعناصر لا تتوفّر خارج نطاقه إذ يؤدّي السلوك الجمعي دورًا ملحوظًا في فاعلية العلاج فلا شكّ أنَّ مشاركتك للملايين

(١) ينظر: زيارة الأربعين مظهر حب الله تعالى، مقال: الشيخ حسين كوراني، مجلة شعائر، ع٨١، س٧، صفر ١٤٣٨هـ- تشرين الثاني ٢٠١٦م، ص٦.

من الناس في أداء هذه الممارسة سوف تختلف طبيعتها ونتائجها عن ممارستك للمشي بنحوٍ فرديٍّ ومنعزل عن الآخرين، فالمشي ضمن هذه المسيرة المليونية يزيد من ألفة الممارسة، ويمنح الشعور بالأمن، ويرفع من معنويات الممارس ببذل الجهد المضاعف فضلاً عن معطيات الزخم الجماهيري وانعكاساته على الصّحّة النّفسية، إذ تعزز مشاركة المشي مع الآخرين شعور الانتماء الاجتماعي، والألفة، والقرب من الآخرين بدلاً من الانطواء على الذات، والصّراع مع مشاعر الوحدة والعزلة والوحشة، وعادة ما ينجم عن مشاركة المشي مع ذلك الجمهور الكبير صداقات حميمة، وحوارات قصيرة تترك آثارًا طيّبة في النَّفس ما ينعكس على الفرد بأحاسيس الرّضا والسعادة.

سياسة الإمام الرضا عليه السلام مع طغاة عصره

السيد محمد الموسوي

لقد عيّن رسول الله صلى الله عليه وآله وبأمر من الله سبحانه وتعالى، خلفاءه من بعده، وهم أئمة أهل البيت عليهم السلام الاثنا عشر، فجعل صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب عليه السلام ولي عهده، وخليفته من بعده، ووليه في الدنيا والآخرة، آثره على سائر أرحامه وأصحابه، وأنزله منه منزلة هارون من موسى ولم يستثن من جميع المنازل إلا النبوة، وقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وآله الأمر فجعله جليًّا بقوله: « إنَّه لا ينبغي أن أذهب إلاّ وأنت خليفتي»[1].

وهذا نصّ صريح في كون الإمام علي عليه السلام خليفته صلى الله عليه وآله، مضافًا إلى سائر الأدلّة ومنها (حديث الغدير) المتواتر. كما ثبت في تفسير قوله تعالى: **(يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)**[2].

وقد سجّل لنا التاريخ تعاقب الأئمة عليهم السلام من أهل البيت، فسجّل مواقفهم وأدوارهم في إدارة البلاد والعباد، في الأمور العقائدية والجهادية والسياسية وغيرها، واحدًا تلو الآخر، فكان يؤدّي كلّ واحد منهم عليهم السلام دوره ومسؤوليته، وينهض بأعباء الدّين في عصره، ويحمل الرّاية ليسلّمها للإمام الذي يليه.

والإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام هو ثامن أئمة أهل البيت عليهم السلام فهو فرع دوحة النّبوة، والإمام من أهل البيت في زمانه، وقد عاش عليه السلام مع أبيه أربعة وعشرين عامًا، ومضى بعد التاسعة والأربعين عامًا من عمره الشريف، أي بعد خمسة وعشرين عامًا من استشهاد أبيه عليه السلام.

وهو عليه السلام حجّة الله على الأرض، فعلى الناس أن يتّبعوه ويجعلوه إمامًا يقتدون به ويأخذون عنه.

عهد هارون العباسي

كان أهل البيت عليهم السلام أكثر الناس إرهاقًا وظلامة تحت كابوس الحكم العبّاسيّ الظّالم، فقد سفك حكّام بني العباس دماء أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم، وأذاقوهم أشدّ أنواع الظلم والاضطهاد.

.. وفي هذا الجو الإرهابي الفظيع، عاش الإمام الكاظم عليه السلام والد الإمام الرضا عليه السلام.. فكان له النصيب

---

(١) روى أحمد في مسنده: ج١ ص٣٣١.

(٢) سورة المائدة: ٦٧.

الأوفر من ذلك الإرهاب العنيف، حيث المراقبة والتّضييق والاعتقال والسجن والتعذيب، وفي النهاية القتل..

فهارون كان يتوجّس خيفة من الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ـ مضافاً إلى الحسد والحقد ـ وهذه الهواجس كانت تدفعه إلى الشّك أحياناً، وكان هناك من الشياطين من يجعل الشّك عنده يقينًا بالتزوير والدّس اللئيم، فكان هارون يرسل على الإمام عليه السلام العيون والجواسيس، لإرصاد تحرّكاته وحتى كلماته التي كان يلقيها في حلقات درسه، كما كان يتحسّس على جميع تصرّفاته لأنَّه كان يعده أهم منافس له في حكمه.

ولما اجتمعا[1] أمام قبر رسول الله صلى الله عليه وآله قال هارون: (السلام عليك يا بن العم يا رسول الله)، وكان يريد أن يُبيّن للناس أحقّيّته بالخلافة لأنَّه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله، فردّ الإمام الكاظم عليه السلام عليه بقوله: (السلام عليك يا أبتاه يا رسول الله)[2]، فحسده هارون وحمله معه إلى بغداد، وحبسه مقيّدًا فلم يخرج من حبسه إلّا شهيدًا بالسّمّ ودُفن بالجانب الغربي من بغداد.

والإمام الرضا عليه السلام ثامن أئمّة أهل البيت عليهم السلام هو وارث أبيه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام علمًا ومعرفةً وكمالاً وفضلاً، وهو الذي قاد حياة الإمامة من بعده.

ولقد تحمّل الإمام الرضا عليه السلام مسؤولية الإمامة في هذه الفترة الرهيبة، فحياته عليه السلام تُمثّل مرحلة سياسية وتاريخية بارزة في تاريخ الإسلام، وكان له دور هام في قيادة الأمّة.. ففي عصره تفجّرت ثورة محمد بن إبراهيم وأبي السرايا..

ثم ثورة محمد الديباج ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ثم ثورة علي بن محمد الديباج، كما ثار في عهده إبراهيم بن الإمام موسى بن جعفر عليهم السلام وغيرهم من العلويين والشيعة ..

ويستظهر أنَّ المحرّك والموجّه والمخطّط والمؤيّد لمثل هذه الثورات كان عميد أهل البيت وإمامهم علي بن موسى الرضا عليه السلام، نعم بحسب الظاهر كان الإمام عليه السلام بنفسه مشغولاً عنها، وتلك هي السياسة الحكيمة التي اتبعها الإمام عليه السلام.

الاهتمام بشؤون الأمة

ثم إنَّ الإمام الرضا عليه السلام بالإضافة لتوليه شؤون أهل بيت النبوة في المدينة المنورة، كان يهتمّ بمشاكل الأمّة، ويسعى لتوعيتها وتثقيفها، فكان له نشاطه التَّعليمي المكثّف. ولقد حقَّق غايته المتوخّاة، حيث استقطب الإمام عليه السلام خلال تلك الفترة طلّاب المعرفة الإسلامية، وخلق نواة مدرسة فكريّة مميزة، تخرّج فيها قمم فكريّة وقادة

---

(١) أي الإمام الكاظم عليه السلام وهارون العباسي.

(٢) الاحتجاج: ج٢ ص١٦٧.

رأي ورواة ومحدّثون وفقهاء.

- كأحمد بن محمد البزنطي..
- محمد بن الفضل الكوفي..
- عبد الله بن جندب البجلي..
- إسماعيل بن سعد الأشعري.
- حسن بن علي الوشاء..
- محمد بن سليمان الديلمي..
- حسن بن سعيد الأهوازي..
- إبراهيم بن محمد الهمداني..
- ريان بن شبيب..

وغيرهم.

وقد كان الإمام ﷺ مرجع الأمة في ذلك العصر المظلم المليء بالخوف والإرهاب.

وقد استدعى هارون الإمام الرضا ﷺ للتحقيق معه والحد من نشاطه وربما قتله، ولكنه تراجع عما كان ينويه، وأعاد الإمام ﷺ إلى بيته مكرّمًا مبجّلاً[1].

عهد المأمون العباسي

غيّر المأمون العباسي ـ بحسب الظاهر ـ شيئًا من أسلوب بني العباس، وإن لم يختلف في الجوهر شيئاً، فإنَّ الناس لم يتحملوا آنذاك إيذاء أهل البيت ﷺ، وكان الرأي العام مع العترة الطاهرة، فقام المأمون بإظهار المحبَّة والتّودد للإمام الرضا ﷺ.

على عكس سياسة هارون، حيث كان الإمام الكاظم ﷺ يعيش في أشدّ بلاء ومحنة وظلم من هارون، وهكذا هو شأن المتّقين الأبرار في تحمّلهم للبلاء، وقد جاد الإمام ﷺ بنفسه في سبيل الحقّ وإقامة العدل، فلم تزعزع إيمانه المحن، بل زادته إيماناً ويقيناً، فإنَّه غصن من الدوحة النّبوية الطاهرة.

وبقيت إساءة هارون العباسي سببت للعذاب الأخروي الدَّائم، وتلك المظلمة سجلها عليه التاريخ، وأنكرتها عليه الأمم، وغضب عليه ربّ العالمين، ومن ينجو من عقاب تلك المظالم، وسيسأل كلّ طاغية وكل ظالم عمَّا اقترفه من السّيّئات وعن المظالم في حقِّ شعبه وأمّته.

(١) راجع (بحار الأنوار): ج٤٩ ص١١٦.

ضاق هارون ذرعاً بالإمام الكاظم ﷺ ولم يطق عليه صبرًا، فأمر بقتل الإمام ﷺ مسمومًا.

وبهذا انتهت محنة إمامنا موسى بن جعفر ﷺ باستشهاده بالسّمّ، وبقيت المحن تصيب الإمام الرضا ﷺ وسائر أهل بيت النّبوّة ﷺ وشيعتهم الذين أعرضوا عن الحكّام بكليتهم لإعراض الحكام عن الله وعن دينه وشريعته.

ولم تسكت شيعة الإمام الكاظم ﷺ عن الظلم الذي لحق بإمامهم، جراء طيش هارون وسوء تصرّفه بالسلطة، بل راحت تفضح تلك الأساليب الإرهابية التي كان يمارسها الحكم العبّاسي المتسلّط حتى هلك هارون.

ولما وصلت السلطة إلى المأمون، ورأى أنَّ الرَّأي العام ضدّه، أخذ بأساليبه وألاعيبه الشيطانية يتصنّع الود ويتظاهر بالمحبّة لأهل بيت العصمة ﷺ لأنَّه كان يخشى ثورة الشيعة، ويخاف من قيادتهم والتفاف الأمّة حولهم، ويخشى بشكلٍ خاصٍّ قيادة الإمام علي بن موسى الرضا ﷺ والتفاف الناس حوله.

من أهداف المأمون

كان المأمون طموحًا في الملك وخلافة بني العبّاس، وعمل كلّ ما بوسعه للوصول إلى سدّة الحكم، فقد حدّثنا التاريخ أنَّه حارب أخاه الأمين وقتله وقطع رأسه ونصبه في ساحة المدينة مدّة من الزمن حتى يبصق عليه الناس.

وكان أخوه المقتول هو الذي نصّ عليه هارون بالخلافة من بعده، وكان المنافس الأوّل للمأمون.

كما اتخذ المأمون خطّة ماكرة تجاه الإمام الرضا ﷺ وذلك للحد من نشاطه الدّيني والسّياسيّ، والقضاء على الانتفاضات العلوية والتي كانت تحدث في عصره بين فترة وأخرى، فأخذ يتظاهر بالابتعاد عن رؤساء بني العباس والتقرّب إلى الإمام الرضا ﷺ.. ولم يرد به وجه الله والدار الآخرة، ولا عصمة النّفس عن الشهوات، وإنَّما ليضفي على نفسه لقب الخليفة، والشَّخص الأوّل في الدولة الإسلامية في ذلك العصر، وليغطي على جرائمه وموبقاته التي راح ضحيّتها الآلاف وسالت دماؤهم دون وجه حق. وحتى يستطيع هو وزمرته من وراء الستار القضاء على تحرّكات شيعة الإمام الرضا ﷺ بل والإنهاء على حياة الإمام ﷺ، مستغلًّا وجوده ومشاركته في حكم المأمون، وقصد بالمشاركة المذكورة عدة أمور نجملها ملخّصًا:

١: جلب انتباه الأمّة إلى أنَّ أهل بيت النّبوة يتصنّعون ـ والعياذ بالله ـ الزهد ظاهريًّا، لأنَّ السلطة لم تصل إليهم، وما إن وصلت الحكومة دارهم حتى صفّقوا لها باليدين وأقبلوا على الدّنيا.

وقد أفشل الإمام الرضا ﷺ خطّة المأمون بموقفه الدّقيق والحذر والحصيف.

٢: وبما أنَّ عميد العلويين في ذلك العصر هو الإمام الرضا ﷺ فوصوله ومشاركته في حكم المأمون يمنع من قيام أيّ حركة ونهضة ضدّ الحكم القائم.

٣: عندما تصبح ـ حسب الظاهر ـ القوّة المسيطرة بيد الإمام الرضا ﷺ يظهر مخالفو المأمون الذين هم من أتباع الإمام الرضا ﷺ لإحراز السيطرة على المناصب، وبالنتيجة سيعرفهم المأمون بشكلٍ تفصيليّ ويشرع في تصفيتهم وقتلهم.

٤: كما كان المأمون يسعى في تشكيل أكبر المجالس العلميّة، ويدعو مفكري ذلك الزّمان لمباحثة الإمام الرضا ﷺ وطرح أصعب الأسئلة عليه، ربما يتمكن ـ حسب زعمه ـ من إظهار عجز الإمام (والعياذ بالله) وإظهار عدم مقدرته العلميّة، ومن ثم عدم أحقّيّته بخلافة الأمّة.

وهناك أهداف وأفكار أُخر كلّها تصب في بقاء حكم المأمون العبّاسي وسيطرته الكاملة المحكمة على مقدّرات الأمّة.

خيوط المؤامرة

صمّم المأمون على تنفيذ مؤامرة سياسيّة ضدّ الإمام الرضا ﷺ، وحسب لها الحسبان.. فتمثّلت خطّة الاحتيال لدى المأمون بإرسال مجموعة من جلاوزته برئاسة (الرجاء بن أبي الضّحّاك) إلى المدينة المنورة، لإجبار الإمام الرضا ﷺ على ترك موطنه الأصلي (مدينة رسول الله ﷺ) والاتجاه صوب خراسان.

وكان الإمام الرضا ﷺ عالمًا بنوايا المأمون بالعلم اللدنّي وغيره، فشرع الإمام ﷺ بتوديع أهله وأمرهم بالبكاء والنّدب عليه، وعندما سُئل عن سبب ذلك وقيل له بأنَّ البكاء لا يصلح على المسافر، أجاب: ذلك للمسافر الذي يأمل في الرّجوع، وأمّا أنا فلا رجوع لي من هذا السّفر، وسأقتل غريبًا مسمومًا بعيدًا عن الأهل والوطن.

عن الحسن بن علي الوشا قال: قال لي الرضا ﷺ: «إنِّي حيث أرادوا الخروج بي من المدينة جمعت عيالي فأمرتهم أن يبكوا عليَّ حتى أسمع، ثم فرقت فيهم اثني عشر ألف دينار، ثم قلت: أما إنّي لا أرجع إلى عيالي أبدًا»[1].

ثم ذهب الإمام الرضا ﷺ إلى مسجد الرسول ﷺ وقبر جدّه الشريف، ليودعه، وأخذ يبكي بصوتٍ عالٍ، وعندما سُئل عن سبب ذلك أجاب: إنَّه آخر وداع لي، لأنِّي أرحل عن الدنيا في الغربة، وفيها أوارى في التراب بجنب هارون.

عن مخول السجستاني قال: لما ورد البريد بإشخاص الرضا ﷺ إلى خراسان كنت أنا بالمدينة فدخل ﷺ

(١) انظر (إعلام الورى بأعلام الهدى) للشيخ الطبرسي: ج٢ ص٥٩ في ذكر دلالاته ومعجزاته ﷺ.

المسجد ليودّع رسول الله ﷺ فودّعه مرارًا كل ذلك يرجع إلى القبر ويعلو صوته بالبكاء والنّحيب فتقدّمت إليه وسلَّمت عليه فردّ السلام وهنّأته فقال: «زرني فإنّي أخرج من جوار جدّي ﷺ فأموت في غربة وادفن في جنب هارون»[1].

وقد كشف الإمام الرضا ﷺ بهذه المواقف الواضحة والأجوبة الصَّريحة والصَّادقة للأمّة عن تلك الأحابيل الشيطانية التي أقدم عليها المأمون العبّاسي، ولكي يُبيّن للأمّة جمعاء أنَّه ليس له صلة بالحكم المسيطر، وإنَّما أُجبر على الابتعاد عن وطنه والعيش في الغربة، ومن ثم قتله مسمومًا مظلومًا.

رفض الخلافة

كان المأمون قد بنى في وسط بستان دارين متجاورين، وكان بينهما طريق يوصل إحداهما بالأخرى، وكان المأمون يقيم في الأولى، فيما كانت الثانية منزل إجلال الإمام ﷺ، وكان يتشرّف المأمون بحضور الإمام ﷺ ويتظاهر بحبّه له ويقول:

يابن رسول الله، إنِّي أعترف بفضلكَ وعلمكَ وعبادتكَ، وأنت أجدر وأليق للخلافة منِّي، فهلّا سمحت لي بأن أخلع نفسي منها، وأعهدها إليك، وأكون أوّل من يبايعك..

ولكن الإمام ﷺ كان يعلم بالأهداف الحقيقية للمأمون العباسي وخبث نيّته، فما كان منه ﷺ إلاّ أن أجابه جوابًا قاطعًا لم يستطع المأمون الردّ عليه، ولذا اشتدّت ضغوط المأمون على الإمام..

قال الإمام ﷺ في جوابه: (إذا كانت الخلافة من حقّك، والله قد أقرّك عليها، فليس لك أن تتنازل عنها لغيرك، وتخلع القميص الذي ألبسك الله إياه، وإن لم تكن الخلافة لك، فلا يحقّ لك أن تعهد إليّ ما ليس لك)[2].

وهنا قد يتبادر إلى الأذهان سؤال، وهو: لماذا رفض الإمام ﷺ القيادة والخلافة ولم يقبلها، عندما أراد المأمون العباسي خلع نفسه من الخلافة ليعهد بها إلى الإمام الرضا ﷺ؟

والجواب عن ذلك:

إنَّ المأمون لم يكن صادقًا في كلامه، بل كان يريد الحكومة لنفسه دون غيره، وإلاّ فلماذا قتل أخاه الأمين على الحكومة؟

فهو أراد مسرحية وصوريًّا أن يخلع نفسه من الحكم ليمدحه الناس، لا أن يعزل نفسه واقعًا، وكان يريد أن يشوّه سمعة الإمام الرضا ﷺ لتتوجّه السلبيات نحو الإمام.

وكان يريد للإمام ﷺ منصبًا اعتباريًّا صوريًّا فحسب، على أن تكون أزمّة الأمور وشؤون الدّولة بيده،

---

(١) انظر بحار الأنوار: ج٤٩ ص١١٧ .

(٢) علل الشرائع: ج١ ص٢٣٧.

فإذا قام بأيّ عمل وأي ظلم يدّعي أنَّه قد تمّ بإشراف الإمام ورعايته! وذلك لحفظ منافع المأمون الشّخصيّة والسَّعي للقضاء على مكانة الإمام ﷺ بين الناس.

فكان الملاك الحكومي والهيئة الإجرائية كلّهم من الظلمة وعلى خلاف سيرة الإمام ﷺ، وكان القائمون على مجريات الأمور من الذين يتعيشون على موائد المأمون، وكانوا على اختلاف جوهري مع أسلوب حكومة الإمام الرضا ﷺ ولذا كان من المتعذّر قيادة الإمام ﷺ مع هذه التّركيبة الفاسدة.

ثمّ إنَّ تراجع المأمون العبّاسي عن مقام الخلافة والتّصدّي للحكومة، كان من التكتيك السّياسي، ليقول الناس إنَّ الإمام ﷺ إذا التهى بالسلطة والتذّ بها ـ والعياذ بالله ـ لم يسحب يده منها، وترك الزّهد والآخرة، وفعل كما يفعل الطغاة من ظلمٍ وجور.

وإلاّ فالمأمون الذي عشق الملك والحكومة، وأراق دماء الآلاف من الناس في سبيل الوصول إليها، وقتله لأخيه (الأمين) شر قتلة، وقضى عليه بشكلٍ وحشيّ، كيف يتنازل عن الخلافة بهذه البساطة، وهذا ممّا لا يخفى على من له أقل اطلاع فضل عن الملم بالسّياسة، العارف بزمانه، العالم بأساليب الدكتاتوريين.

نعم لو كان المأمون صادقاً في خلع نفسه وجميع أعوان حكومته، وكان يقبل دون منازعة حكومة الإمام الرضا ﷺ، بحيث لم يترتّب على ذلك أي مفسدة، ربما كان الإمام ﷺ يأخذ على عاتقه هذا الحمل، وهو القيادة والمسؤولية الظاهرية مضافًا إلى ما نصّ عليه ربّ العالمين ونبيّه الكريم ﷺ، كما جاءت الخلافة إلى جدّه أمير المؤمنين ﷺ، فأحيى العدالة وأخذ بالحكم وسار به بسيرة الرسول الأكرم ﷺ وسيرة أمير المؤمنين ﷺ.

المأمون وسياسة النِّفاق

أخذ المأمون العبّاسي يتظاهر بالارتياح ويبدي سروره بولاية عهد الإمام الرضا ﷺ، فأمر الكل بمبايعة الإمام، وأودع السجن كل من امتنع عن ذلك، ومن جهة أخرى أمر بضرب السّكّة باسم الإمام الرضا ﷺ في جميع أرجاء الدولة الإسلامية تعظيمًا لذلك اليوم، كما أمر بأن تقرأ الخطبة باسم الإمام ﷺ، وأقام مجالس الفرح، ودعا إليها الشعراء والأدباء لينشدوا الأشعار في مدح الإمام ﷺ ويهنّئوه على ولاية العهد، وأخذ يصرف على ذلك المبالغ الطائلة من بيت المال، ويمنح الجوائز والصلات الكبيرة الثمينة للمدّاحين والمهنّئين.

ومن جهة أخرى تراه ـ أي المأمون ـ يوجّه الدعوة إلى كبار علماء المذاهب المختلفة وأكبر الشخصيات العلمية ليباحثوا الإمام الرضا ﷺ ويطرحوا عليه أصعب الأسئلة في مختلف العلوم، ظناً منه أنَّه سيحرج الإمام ﷺ ليعجز ـ والعياذ بالله ـ ولو مرّة واحدة عن الجواب، ويخسر في المباحثة والمناظرة، ليربح المأمون الورقة

ويستطيع بها أن يجترئ على شخصيّة الإمام عليه السلام من الناحية العلميّة[1]..

وكما هو المشهور: (إذا أراد الله صار العدو سبب الخير)، فالإمام الرضا عليه السلام في مباحثاته أظهر تفوّقه على الجميع وفي جميع المسائل العلمية الدقيقة والعميقة وفي مختلف الأديان والعقائد، وأخذت شخصية الإمام عليه السلام تزدهر يومًا بعد يوم وتشيد الناس بأحقّيّته.

وفي الحديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: (رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليّ عليه السلام معه، فقال صلى الله عليه وآله: يا موسى ابنك ينظر بنور الله عزّوجل وينطق بالحكمة، يصيب ولا يخطئ، يعلم ولا يجهل، قد مُلئ علمًا وحكمًا)[2].

صلاة العيد

وفي أحد أيّام العيد، طلب المأمون من الإمام الرضا عليه السلام أن يؤمّ الناس في صلاة العيد، نيابة عنه، وكان هدف المأمون من ذلك أن يدخل الإمام عليه السلام ولو في بعض الأمور المرتبطة بالحكومة، وأن يقوي حكومته ودولته بذلك، ولكنه قال للإمام عليه السلام: إنَّه يريد تثبيت قلوب الناس والاطمئنان بولاية عهد الإمام، وأن يستفيد المسلمون من فضله ومقامه..

والإمام عليه السلام كان عالماً بجميع تلك الخطط، فكان جوابه عليه السلام للمأمون:

إنَّه من شروط قبوله لولاية العهد الابتعاد عن كلِّ أمرٍ حكوميّ وعدم التّدخّل في الشؤون.

ولكن المأمون أصرّ وأصرّ، وقال: ستتعرّف عموم الناس ورجالات الدولة والعسكر على شخصية الإمام عليه السلام وهذا ضروريّ في نظام الدّولة...

وإزاء هذا الإصرار أجابه الإمام الرضا عليه السلام بقوله: (إذا كان كذلك فأنا أذهب كما كان جدّي نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، ولا أقبل بالتشريفات والآداب الحكوميّة في أداء الصلاة) ... .

وما إن طلعت شمس يوم العيد، وإذا بمجموعة كبيرة من رجالات الدولة، وعموم الناس يجتمعون عند منزل الإمام عليه السلام.

فلبس الإمام عليه السلام عمامة بيضاء، ووضع طرفًا منها على صدره والطَّرف الآخر على حزامه، ومشى حافيًا وبيده عصاة، وهكذا خرج من بيته.

وعندما خرج الإمام عليه السلام على الناس بهيبته هذه، أخذتهم حالة من المعنوية والرّوحية، وتعالت أصواتهم

---

(١) انظر (بحار الأنوار): ج٤٩ ص١٧٣ .

(٢) ينابيع المودة للقندوزي: ج٣ ص١٦٦.

بالبكاء.

وكبّر الإمام ﷺ أربعًا، وكبّر معه الناس، فأخذوا يبكون، وجاء في الرّواية التي نقلها العلّامة المجلسي -رحمة الله عليه-: أنَّ العسكر ارتجلوا عن خيلهم، وتحفّوا كذلك (أي نزعوا أحذيتهم) وبعض الذين كانوا يلبسون الأحذية المشدودة شدًّا محكمًا (الجزات) استعملوا الشفرات والسكاكين لفكّها، ومشوا حفاةً خلف الإمام ﷺ.

وكان الإمام ﷺ يخطو خطوات.. ثم يقف ويكبّر أربعًا بصوتٍ عالٍ، والجماهير تتبعه وتُكبّر وتبكي.. وهكذا دخلت حكومة الإمام ﷺ في قلوب الناس.

وكان خروج الإمام ﷺ لصلاة العيد قد أثّر أكبر التّأثير على الناس.. وعندما اطّلع المأمون على مجريات الأمور خاف من الانقلاب عليه وخروج الأمر من سيطرته، فأرسل فورًا شخصًا إلى الإمام ﷺ يطلب منه العودة وعدم الذهاب لصلاة العيد.. فرجع الإمام ﷺ إلى بيته[1]. وهكذا فشلت خطّة المأمون أيضاً.

جولة الباطل ودولة الحق

للحق دولة ثابتة، وللباطل جولة مؤقّتة، وقد ورد في الأثر: (للحق دولة، وللباطل جولة)، ولهذا نرى للحق وأتباعه المكانة العالية في قلوب الناس، أما الباطل الذي يتوكّأ على القدرة الماليّة أو العسكريّة وإن تسلّم السلطة لبعض الوقت، لكنه لا يدوم طويلاً، ويطوى في صفحات التاريخ، ولنأخذ مثالاً على ذلك من بني أميّة، فإنَّهم تغلّبوا على الأمّة وابتزّوها بالإمرة عليها بغير رضا الله-تعالى- ورضا الناس، وصاروا يتلاعبون بالشّريعة الإسلامية حسب أهوائهم، وجعلوا يتتبّعون شيعة أهل البيت ﷺ ويقتلونهم تحت كلّ حجر ومدر، ويأخذون الناس على الظّنّة والتّهمة.

لكن لم يستمرّ الأمر طويلاً حتى جاء بنو العبّاس وقضوا على بني أميّة، فأخذوا يقتلونهم واحدًا بعد الآخر، بل أخذوا ينبشون قبور موتاهم ويخرجون الجثث منها ويحرقونها، ولم يسلم من عقابهم حتى شيوخهم الطّاعنين في السّنّ، فكانوا يُجلدون أمام الناس، أمّا النساء فكنّ يؤخذنَ كأسرى وجواري.

وهكذا كان الحال بالنسبة إلى بني العباس بعدما سقطوا، واليوم وبعد مضيّ قرون من العهد العبّاسي لا نشاهد ذكرًا أو اسمًا لهارون والمأمون ومن أشبه إلاّ بالخزي والعار في صفحات التاريخ.

في حين أنَّ أهل البيت ﷺ قد خلّدهم التاريخ لفضلهم وعلمهم وأخلاقهم، وسجّل لهم صفحات ناصعة مشرقة على مرّ الدّهور والأجيال، وقد شهد لهم أعداؤهم بذلك قبل محبّيهم وشيعتهم، (والفضل ما شهدت به الأعداء).

---

(١) انظر (بحار الأنوار): ج٤٩ ص١٣٤.

وفي المقابل التاريخ سجّل الفساد والشهوات والظّلم والطّغيان لحكّام بني أميّة وبني العبّاس وأمثالهم، وليس ذلك في زماننا هذا فحسب، بل في زمانهم كان الناس ينفرون منهم ويدعون عليهم ويكرهونهم، ولنأخذ مثالاً على ذلك، من حياة دعبل الخزاعي.

مع دعبل الخزاعي

بعد استشهاد الإمام الرضا ﷺ ودفنه في طوس، مقابل قبر هارون العباسي من جهة القبلة، أنشأ دعبل قصيدته الرّائيّة الشهرية، يصف بها ما أصاب أهل البيت ﷺ ويذكر فيها الإمام الرضا ﷺ بكلّ اعتزاز، ومن أبياته:

أرى أمية معذورين إن قتلـــوا ولا أرى لبنـــي العباس من عذر
أولاد حرب ومروان وأسرتهم بنـــــو معيط ولاة الحقد والوغر
قوم قتلتم على الإسلام أولهـــم حتى إذا استمسكوا جازوا على الكفر
أربع بطوس على قبر الزكي بـــه إن كنت تربع من دين على وطـــــر
قبران في طوس خير الناس كلهم وشر كلهم هذا مـــن العبـــــــر
ما ينفع الرجس من قرب الزكي وما على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كلّ امرئ رهن بما كسبت له يداه فخذ ما شئت أو فـــذر

وهناك قصائد أخرى لدعبل ذكرها المؤرّخون.

المأمون والجناية الكبرى

كان الإمام الرضا ﷺ ينظر إلى الحكومة كما نظر آباؤه وأجداده الطّاهرون (صلوات الله عليهم)، وكان يرى أنَّ على الحكومة تثبيت القيم وخدمة الرّعيّة، إذ ليست الرّعية وسيلة للحكم والسيطرة، بل الحكم لإنصاف الرّعيّة وترسيخ القيم والمبادئ، حكم قوامه العدل، وأساسه الإنسانية، وحليته الشجاعة، أرأيت أجمل وأعظم وأنبل من هذه المبادئ، وبعدها تصوّر ما شئت من عدل ومبدئية وإنسانية، فإنَّك لتجد ذلك كله في منهج الإمام الرضا ﷺ.

ومن الطبيعي أنَّ هذا النَّهج لا يروق للمأمون الذي يريد أن يكون سبعًا ضاريًا على الرعية، يغتنم أُكُلهم، ويرى الإمارة مغنمًا ووسيلة لتحقيق المآرب والشهوات الشخصية، وهكذا أخذ المأمون يُفكّر في القضاء على الإمام الرضا ﷺ الذي كان يراه تهديدًا خطرًا لحكمه وسلطنته، إلاّ أنَّه كان يبحث عن مبرّرات وسبل لتنفيذ فكرته.

وقد اتخذ المأمون من بعض مواقف الإمام الرضا ﷺ الشجاعة في سبيل نصرة الحق مبررًا لذلك، وكان من

تلك المواقف أنَّه بلغ المأمون أنَّ رجلاً سرق وألقي القبض عليه، فأمر المأمون بإحضاره فجيء به، وكانت تظهر عليه علامات الفقر، وعلى جبهته آثار السجود!، فالتفت إليه المأمون قائلاً: أنت تسرق مع هذا المظهر الحسن؟

فقال الرجل: سرقت اضطرارًا لا اختيارًا، لأنَّك حرمتني حقّي.

قال المأمون: وأي حقّ؟

قال الرجل: حقّي من بيت المال، فأنا ابن السّبيل، وأنا فقير، وإنّي أحفظ القرآن، فإذا أردت أن تجري عليّ الحد، فاللازم أن تبدأ بنفسك أوّلاً، فتجري عليك الحد.

فغضب المأمون من حديث هذا الرجل، والتفت إلى الإمام الرضا ﷺ قائلاً: ماذا تقول سيّدي؟

فأجابه الإمام ﷺ: إنَّه يقول إنَّك سارق أيضاً، لأنَّك منعته من حقّه الشَّرعي في بيت المال.

فلم يرتح المأمون لجواب الإمام ﷺ وقال للرجل: أقسم بالله لأقطعنَّ يدكَ.

ولم يخشَ الرجل من تهديد المأمون، وقال له: كيف تجرأ على قطع يدي وأنت عبد لي!

قال المأمون: ويلكَ من أين أصير لك عبداً؟

قال الرجل: لأنَّه عندما اشترى أبوك هارون أمّك مراجل[1] من بيت مال المسلمين، وهو ملك لهم جميعًا، أصبحتَ عبدًا لكلّ المسلمين في المشرق والمغرب، وإذا أعتقك كلّ المسلمين، فأنا إلى الآن لم أُعتقك.

فغضب المأمون لدى سماع هذا الكلام من الرجل، والتفت إلى الإمام الرضا ﷺواستفسر منه عن الإجراء الذي يجب اتخاذه بالنسبة إلى الرجل.

فأجابه الإمام ﷺ: بأنَّ الدنيا والآخرة قائمة على الحجّة والبرهان، وأنا أرى الرجل قد حاججكَ وليس عندك جواب.

فاضطرّ المأمون على إطلاق سراح الرّجل، خلافًا لما كان قد صمّم عليه من قتله.

وربما كانت تهمة السّرقة مفتعلة من قبل جلاوزة المأمون لقتل الرجل.

واعتزل المأمون بعد هذه الحادثة أيّامًا، وفيها أجمع عزمه على قتل الإمام الرضا ﷺ[2].

شمس لا تغرب

غروب الشمس لا يعني انتهاؤها إلى الأبد، بل غروبها يبشّر بميلاد جديد.

---

(١) مراجل أم المأمون وهي إحدى خادمات قصر هارون وقد عهد إليها بطبخ الطعام، ويصفها المؤرخون بأنها كانت أشوه وأقذر جارية في مطبخ هارون، وذكروا أنَّ زبيدة لعبت مع هارون الشطرنج فغلبته، فحكمت عليه أن يطأ أقبح جارية في المطبخ وهي مراجل فأبى هارون ذلك، وبذل لها خراج مصر والعراق لتعفيه، فأبت ولم تقبل وانصاع إلى حكمها فوطأ مراجل فعلقت منه بالمأمون.

(٢) علل الشرائع: ج١ ص٢٤٠ .

لكن في منطق الظلمة والمستبدّين فإنَّهم يزعمون بأنَّهم سيحجبون ضوء الشّمس إلى الأبد، ناسين ومتناسين بأنَّهم بأنفسهم وسلطتهم سيسقطون، ولا يُسجّل لهم التاريخ غير الذّل والعار، وبأنَّه عند كل صبح سوف تشرق الشَّمس من جديد مزيحة من أمامها الظلمات.

فالمأمون العبَّاسي بعد أن جلب الإمام الرضا ﷺ من المدينة إلى خراسان، وفرض عليه الإقامة الجبرية وبقرب منه، كان يتصوّر أنَّ إقدامه على قتل الإمام ﷺ يعني غروب شمسه المشرقة المشعّة وخروج حبّه من قلوب الناس وإنهاء ذكره الطّيّب إلى الأبد. وما ذلك إلاّ ليبقى المأمون في السلطة لفترة أطول.

وكانت سياسة المأمون سياسة الغدر والنّفاق، فالمأمون الذي احتفل بولاية عهد الإمام الرضا ﷺ وأمر بني العباس بارتداء الملبس الأخضر وترك السّواد، وضرب اسم الإمام ﷺ على الدراهم والدَّنانير، وأمر أن ينوه باسم الإمام ﷺ على المنابر، هو نفسه الذي صمّم أن يقدم على أكبر جريمة وهي قتل الإمام الرضا ﷺ بوضع السّمّ في العنب أو شراب الرّمّان، والأغرب من ذلك تظاهره أمام الناس بهيأة العزاء وذرفه الدّموع حزنًا على الإمام ليخفي جريمته البشعة.

ولكن النَّاس عرفوا بأنَّه هو القاتل للإمام ﷺ.

من هنا وقف المأمون على نعش الإمام ﷺ قائلاً: سيّدي.. أقسم بالله إنَّني لا أعرف أيّ المصيبتين أعظم عندي: وفاتك وفراقك، أم اتهام الناس لي بأنِّي قاتلك[1] !.

وبعد استشهاد الإمام الرضا ﷺ اتجه المأمون إلى بغداد، واتخذها مركزًا لإقامته وحكومته، وأخذ يلاحق العلويين في كلِّ مكانٍ ويقتلهم، ولهذا يشاهد في إيران والعراق وأفغانستان وفي وسط الجبال والغابات والنقاط البعيدة مراقد ومقابر لأبناء الأئمة وذراريهم ﷺ الذين استشهدوا على يد جلاوزة بني العباس وماتوا في تلك المناطق غرباء بعيدين عن أوطانهم.

المرقد الطَّاهر

ومع كل هذا الظلم واغتصاب الحق، وبعد تلك الليالي العبّاسيّة الحمراء، تحطّمت أسطورة بني العباس ودُفن ذكرهم معهم، ولم يتركوا شيئاً غير الذّمّ، وأخذت اللعنة تطاردهم كلّ زمان ومكان، وسجّل لهم التاريخ صفحات سوداء جراء ما اقترفت أياديهم الملوّثة.

وفي المقابل نجد المرقد المطهّر للإمام الرضا (صلوات الله عليه) يحتلّ في قلوب مئات الملايين مكانة لا

(١) انظر (الأنوار البهية) للشيخ عباس القمي: ص٢٣٥ في فصل في وفاة الرضا ﷺ وسببها.

تضاهى، ويفد عليه الناس من كلّ مكان للزيارة والتّبرّك.

ثواب الزّيارة

١: عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ستُدفن بضعة منّي بأرض خراسان، لا يزورها مؤمن إلاّ أوجب الله له الجنة وحرّم جسده على النار»[١].

٢: قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: « إنَّ ابني عليًّا مقتول بالسُّمّ ظلمًا، ومدفون إلى جانب هارون بطوس، من زاره كمن زار رسول الله صلى الله عليه وآله»[٢].

٣: قال الإمام الرضا عليه السلام: « من زارني على بُعد داري، أتيته يوم القيامة في ثلاثة مواطن، حتى أخلّصه من أهوالها، إذا تطايرت الكتب يمينًا وشمالاً، وعند الصّراط، وعند الميزان»[٣].

---

(١) العقد النضيد والدر الفريد، للشيخ محمد بن الحسن القمي: ص٣٢ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢ ص٢٩١ .

(٣) كامل الزيارات، للشيخ جعفر بن محمد بن قولويه: ص٥٠٦ .

شهر ربیع الأول

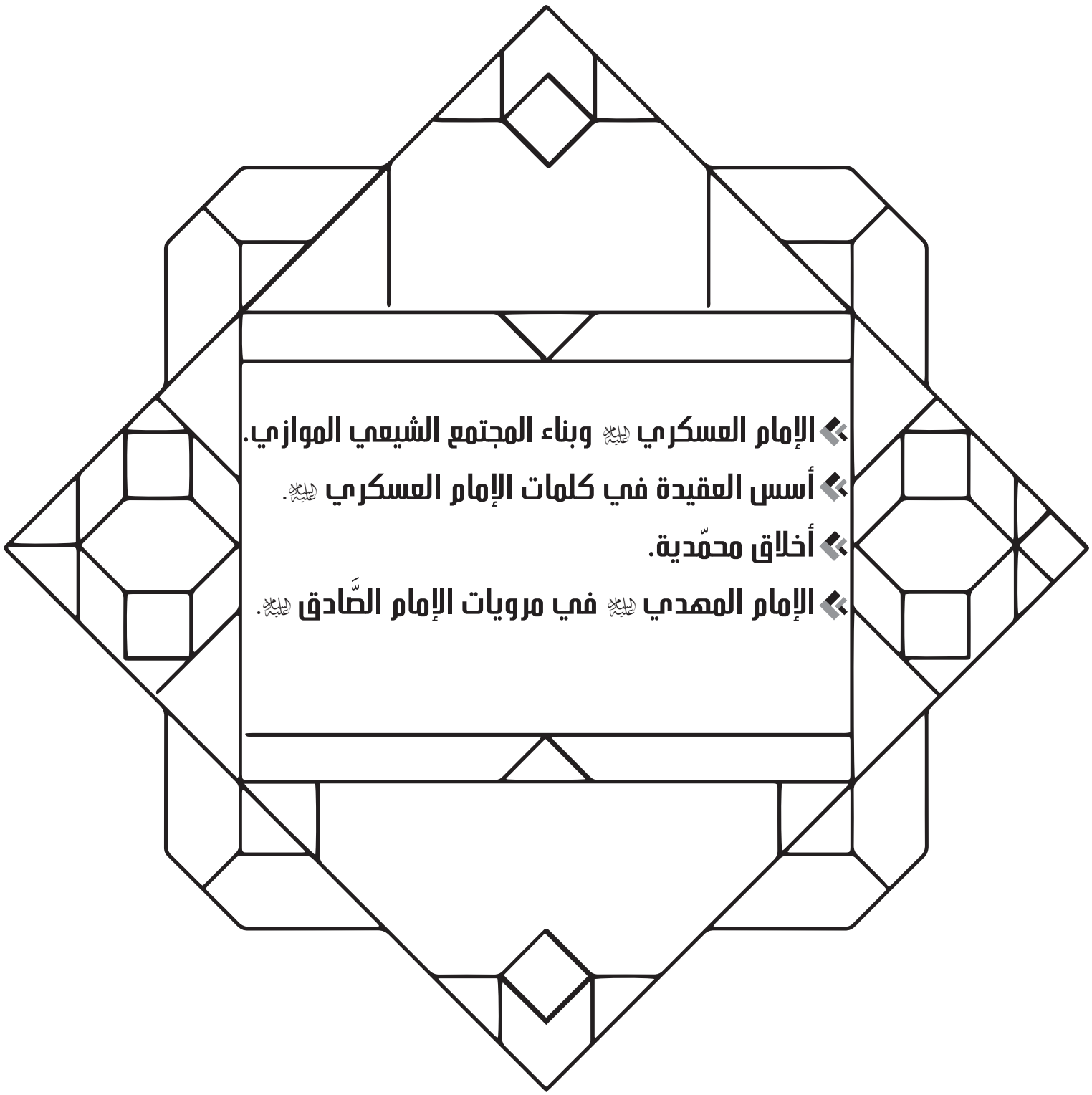
الإمام العسكري عليه السلام وبناء المجتمع الشيعي الموازي.
أسس العقيدة في كلمات الإمام العسكري عليه السلام.
أخلاق محمّدية.
الإمام المهدي عليه السلام في مرويات الإمام الصَّادق عليه السلام.

الإمام العسكري عليه السلام وبناء المجتمع الشّيعي الموازي

الشيخ فوزي آل سيف

رُوِيَ عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: "عَلَامَاتُ الْمُؤْمِنِ خَمْسٌ: صَلَاةُ إِحْدَى وَخَمْسِينَ [1]، وَزِيَارَةُ الْأَرْبَعِينَ[2]، وَالتَّخَتُّمُ فِي الْيَمِينِ، وَتَعْفِيرُ الْجَبِينِ[3]، وَالْجَهْرُ بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ[4]"[5].

هذا الحديث المروي عن الإمام العسكري عليه السلام تارة يذكر في بيان بعض المستحبات، ويستشهد بهذا الحديث على تلك المستحبات مثل: تعفير الجبين والجهر بالبسملة في الصلاة الإخفاتية، وصلاة النوافل والتختم باليمين، وزيارة الأربعين، وهي على القول الراجح الذي عليه القرائن: الزيارة الحسينية المعهودة، لا زيارة أربعين مؤمناً .

وتارة أخرى يُنظر إليه من زاوية اجتماعية وهو أنَّ المجتمع الإمامي الشيعي أصبح -ولا سيما في زمان الإمام العسكري عليه السلام- مجتمعًا له مميزاته وله اختصاصاته، ولم يعد ذائبًا في ذلك المجتمع الكبير المسلم، مع أنَّه يعيش في داخل هذا المجتمع المسلم إلَّا أنَّه له خصائص مميزة عن غيره بحيث عندما ينظر الإنسان لهذه الخصائص في أي مجموعة من المجتمعات يتعرف بسرعة إلى أنَّ هذا المجتمع يتبع أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهذه العلامات التي سمّاها الإمام عليه السلام الخصائص المميزة، يمكن للإنسان أن يتعرف عليها بسرعة فأنت لا تحتاج مثلًا عندما تذهب

(١) أي الصلوات الواجبة اليومية ونوافلها، إذ يكون مجموع ركعاتها إحدى وخمسين ركعة، حيث إنَّ الصلوات الخمس سبع عشرة ركعة، ونافلة الصبح ركعتان، ونافلة الظهر ثمان ركعات، وكذلك نافلة العصر ثمان ركعات، ونافلة المغرب أربع ركعات، ونافلة العشاء ركعتان من جلوس وتُحسب ركعة واحدة لأن كل ركعة من جلوس تعادل ركعة من قيام، ونافلة الليل إحدى عشرة ركعة، فيكون المجموع إحدى وخمسون ركعة .

(٢) أي زيارة الإمام الحسين عليه السلام في يوم الأربعين، أي العشرين من شهر صفر، ويُسمَّى بالأربعين لمرور أربعين يوماً على استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في العاشر من شهر محرم الحرام .

(٣) أي وضع الجبهة وأطرافها حال السجود على الأرض والتراب، و تَعْفِيرُ الجَبِين: تَمْرِيغُهُ فِي التُّرَابِ، والتعفير: أن يمسح المصلي جبينه حال السجود على العفر وهو التراب تذللاً لله عزوجل، والجبين: فوق الصدغ وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها يتصاعدان من طرفي الحاجبين إلى قصاص الشعر فتكون الجبهة بين جبينين.

(٤) أي الجهر في الصلاة بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حتى في الصلوات الإخفاتية .

(٥) المزار الكبير: ٣٥٣، لابن المشهدي، الطبعة الأولى سنة ١٤١٩ هجرية، قم / إيران، ورواه المفيد في مزاره: ٦١، و ابن قولويه في الكامل: ٣٢٥، والشيخ في مصباح المتهجد: ٧٣٠، والتّهذيب ٦: ٥٢، والوسائل ١٤: ٤٧٨، وذكره السّيّد ابن طاووس في الإقبال ٣: ١٠٠، ومصباح الزّائر: ٣٤٧، والكفعميّ في مصباحه: ٤٨٩.

إلى مجتمع ما، أن تسأل أي شخص هل أنت شيعي أم لا ؟ هل أنت على مذهب أهل البيت ﷺ أم لا ؟

يكفي أن تنظر إلى هذه العلامات والتي هي في الغالب علامات مميزة .

التّختّم باليمين على سبيل المثال علامة من العلامات، وكذلك الجهر بالبسملة، والسجود على الأرض أو ما يشبهها وزيارة الإمام الحسين ﷺ، فهذه إذن ينظر إليها على أنّها علامات اجتماعية تميز وتشخّص المجمتع التابع لأهل البيت ﷺ، هذا يجرنا إلى موضوع المجتمع الشيعي الذي سماه بعض الباحثين بالمجمتع الموازي، والجماعة الصّالحة أو غير ذلك من التعابير وحاصل هذه الفكرة أنَّ الأئمة من أهل البيت ﷺ بنوا لشيعتهم مجتمعاً خاصّاً بهم يعيش في داخل المجتمع الإسلامي ولكنه ليس ذائبًا فيه ولا مواجهًا له.

بداية تكون المجتمع الشيعي:

بعدما استشهد الإمام الحسين ﷺ سنة ٦١ هـ كان أمام شيعة أهل البيت ﷺ أحد ثلاثة طرق:

الطريق الأول: أن يذوب مجتمعهم في المجتمع العام، بمعنى أن يكون فقههم هو الفقه الرسمي العام، وأن تكون عباداتهم على طبق ما يقوم به حكّام المسلمين في ذلك الوقت – بني أمية ومن بعدهم بني العباس – وتصير عقائدهم وتشريعاتهم جزءًا من المجتمع العام، وهكذا الحال بالنسبة إلى اقتصادهم وأموالهم وزكواتهم.... وكذلك في إدارتهم الداخلية، فيصير حالهم كحال سائر المذاهب الأخرى وسائر العلماء الآخرين؛ ينسجمون انسجامًا تامًّا مع الوضع الموجود في العبادة والعقائد والفكر، وهذا الاتجاه طبعاً غير مقبول، لماذا ؟

لأنَّ أئمة أهل البيت ﷺ يرون ذلك الفكر فكرًا غير صحيح، ويعتقدون بأنَّ ما كان عليه المجتمع العام لا يُمثّل الصورة الأفضل للدين، فالصورة الأفضل للدين عند آل محمد، فمن غير المعقول أن يأمر الإمام ﷺ أصحابه أن يتركوا هذا الماء الزّلال الصَّافي، ويذهبوا ليأخذوا أفكارهم وعقائدهم وعباداتهم وعاداتهم من أشخاص.

الطَّريق الثاني: أن يواجه شيعة أهل البيت ﷺ كلَّ ما كان خطأ في المجمتع المسلم، فعندما يقول خطيب يوم الجمعة فكرة غير صحيحة يقفون في وجهه، ومفتي يُبيّن فتوى يخطّئونه، وقاضي يحكم بقضاء غير عادل يعارضونه، فيتصدّون لكلِّ شيء خاطئ في المجتمع المسلم العام، وهذا الخيار لو اختاره أئمة أهل البيت ﷺ وشيعتهم من بعدهم فمن الممكن أن تتحوّل حالة الشيعة إلى حالة اصطدام دائم، ولا يستطيعون أن يعيشوا حياتهم الاعتيادية.

الطَّريق الثالث: أن يوجد مجتمع آخر إلى جانب ذلك المجتمع العام، ويكون تحت قيادة أهل البيت ﷺ، له فكره الخاص، وآراءه الخاصّة به، وعلاقاته مع الأئمة ﷺ و له دورته المالية والاقتصادية، وفي الوقت نفسه

هو في داخل المجتمع العام يتعايش معه، فلا يعاديه، ولا يحاربه، يكون فيه ولا يكون معه، ولا يتبعه في آرائه الخاطئة .

نعتقد أنَّ هذا ما صنعه الأئمة ﷺ، وكان أعلى مستويات هذا المجتمع في زمان الإمام الحسن العسكري ﷺ، وقمّة هذا النتاج ونهايته كانت على يد الإمام العسكري ﷺ، فلمّا صار هذا المجتمع مجتمعاً كاملاً من مختلف الجهات آنئذ أصبح من السهل جدًّا أن يبقى ويستمر إذا غاب قائم آل محمد -عجل الله فرجه- .

إذًا قمّة هذا الأمر صار في زمان الإمام العسكري ﷺ بحيث عندما غاب الإمام الحجّة ﷺ لم يحدث انهيار في هذا المجتمع، فالمجتمع علاقاته منظّمة بين قيادته وبين الأتباع، ودورته المالية الاقتصادية - فيما يرتبط بالزكاة والخمس- مرتّبة أيضًا، ثقافته، أفكاره عباداته كلّها كاملة، فلا يحتاج إلى شيء حتى لو غاب الإمام الحجة (عجل الله تعالى فرجه) عن الحضور العلني فلن يحصل انهيار في هذا المجتمع ، وهذا معناه أنَّ طريقة الأئمة ﷺ في ترتيب ذلك المجتمع الشيعي الموازي في غاية الاتقان .

منهج الأئمة ﷺ لحفظ تماسك المجتمع الشيعي:

بيّن أئمة أهل البيت ﷺ لشيعتهم خطوط الإسلام الصّحيحة التي ورثوها عن جدّهم رسول الله ﷺ سواء فيما يرتبط بالعقائد، أو ما يرتبط بالتشريعات والفقه والأخلاق .

نحن نعلم أنَّ التشيع فيما يرتبط بالعقائد وما يرتبط بالله عزّ وجل ومعرفته وما يرتبط بصفات النبي ﷺ وعصمته، وما يرتبط بضرورة وجود الأئمة ﷺ يختلف في هذه الجوانب عن كثير من المذاهب الأخرى . أمّا أئمة أهل البيت ﷺ فقد تميّزوا بأحكام ونظريات خاصّة في العقائد، العبادات كالصلاة والصيام والحج.. وغير ذلك عن باقي المسلمين؛ لأنَّهم ﷺ كانوا يأخذون مما ورثوه عن رسول الله ﷺ فهم يعملون بأحاديث الأصول من رسول الله ﷺ، بينما كان غيرهم يُعملون الرأي، وآراء عقولهم .

الجانب الفقهي والاقتصادي:

أصبح للمجتمع الشيعي منظومة فكريّة عقائدية وتشريعية فقهية خاصّة -وهذا أحد جهات التّميّز- وكذلك فيما يرتبط بالجانب الاقتصادي أيضًا، يقرر الفقهاء - تبعًا لأئمة الهدى ﷺ - أنَّ الزكاة الواجبة يجب أن تُعطى للفقير من أهل الولاية لأهل البيت ﷺ أوّلاً وبالذات، وإذا لم يوجد فينتقل إلى غيره، هذا جزء من دورة المال في داخل هذا المجتمع .

أما موضوع الخُمس، خلافًا لما يراه بعضهم من أنَّ تشريعه كان متأخّرًا، نحن نعتقد أنه من الأيام الأولى أي زمان الإمام الباقر والإمام علي بن الحسين ﷺ .

غاية الأمر أنَّ الموضوع كان شديد الحساسية عند السلاطين والخلفاء في قضيّة المال، فكان يحتاط فيه أئمة أهل البيت ﷺ احتياطًا كبيرًا جدًّا، فقد كانت التهمة الأساسية التي تُوجّه إلى الأئمة ﷺ وأتباعهم من قِبَل جواسيس السلطة الأموية والعبّاسيّة، أنَّ فلانًا كانت تجتمع عنده الأموال والسلاح، وروي عن الإمام الصادق والباقر ﷺ أحاديث فيه ذكر للخمس أي أنَّ هذا الوضع كان من زمان الإمام الباقر ﷺ .

وفيما بعد في زمان الإمام الجواد ﷺ انفتح الموضوع بشكلٍ واسعٍ وعلني، ووصلت إلينا روايات مفصّلة عن الإمام الجواد ﷺ، فأصل هذا النظام الاقتصادي كان موجودًا كما نعتقد من زمان الإمام الباقر ﷺ بل قبله ﷺ أيضًا .

وإلى هذا يشير بعض الباحثين إلى نقطة ملفتة للنظر فيقولون: لو تتبّعنا أحوال أصحاب الإمام الباقر وأصحاب الإمام الصادق ﷺ لوجدنا عددًا كبيرًا من هؤلاء صيرفيين: أمثال إسحاق بن عمار الصيرفي، ومحمد بن عذافر الصيرفي، والحسن بن محمد بن سماعة الصيرفي، مؤمن الطاق الصيرفي، وإذا اطلعنا على كتاب (جامع الرواة) للمولى الأردبيلي -رضوان الله عليه- نراه يعدّد الأشخاص الذين كانوا صيارفة في سوق الكوفة، وكانوا من أصحاب الأئمة ﷺ، وهذا الأمر مقصود ومنظّم فمهنتهم كانت تخدم حركة المال في زمان الإمام الباقر والصادق ﷺ وبعضهم ممن يقوم بهذه الأعمال - كالمعلى بن خنيس - قُتل من قِبل الدولة العبّاسية على يد الحاكم على المدينة لماذا ؟ لم يُذكر السبب، لكن تَبيّن أنَّ هذا الشخص كان أشبه بوزير المالية للإمام الصادق ﷺ، وهذه الأموال كانت من الحقوق الشرعية كالخمس والزكاة التي يوصلها الشيعة للإمام ﷺ .

الجانب الإداري:

قام الأئمة ﷺ بتنظيم العلاقة بينهم وبين شيعتهم المتفرّقين في مختلف الأماكن وتعدّدها من المدينة إلى مكة إلى الكوفة إلى البصرة إلى الري إلى خراسان بتطبيق فكرة الوكلاء، وقد عيّن الأئمة ﷺ وكلاء لهم لإدارة أوضاع الشيعة في تلك الأماكن، وفوّضوا إليهم أمورًا معيّنة، ويتحدّث الباحثون في زمان الإمام العسكري ﷺ عن وجود سبعة عشر وكيلًا للإمام ﷺ في مختلف بلدان العالم الإسلامي، وبعضهم كان في مناصب رسميّة عند العبّاسيين لا يعلمون أنّه وكيل للإمام ﷺ ومدير لشؤون شيعته .

هؤلاء الوكلاء كانوا يديرون أمور الشيعة في مختلف الأنحاء، فصار عندنا نظام إداريّ يدير فيه الأئمة ﷺ هذا المجتمع عبر الوكلاء، وفيما بعد هذا النظام نفسه تطوّر إلى نظام المرجعيّة الدينية الذي إلى الآن لا يزال قائمًا عند شيعة أهل البيت ﷺ، ويُعدّ من أهم نقاط القوّة في الوجود الشيعي في العالم الإسلامي .

إذن هيّأ الأئمة ﷺ لشيعتهم منظومة دينيّة كاملة في العقائد والتشريعات والفقه، وهو الذي نعتقد أنَّه

الإسلام الحقيقي الأصيل الذي جاء به نبيّنا محمد ﷺ .

النّظام القضائي:

النّظام القضائي الجاري في تلك الأيّام زمن بني أميّة وبني العباس إمَّا كان بحسب رأي القاضي نفسه، وإما – لا سيما في زمن العباسيين – بحسب المذهب الغالب، وفي بعض الأحيان كان المذهب الحنفي غالبًا وأحيانًا كان المذهب المالكي، وفي زمان المتوكل ومن بعده كان الحنبلي هو المذهب الغالب، وكان القضاء به يعم كل المنطقة .

أئمَّة أهل البيت عليهم السلام يرون أنَّ منهجهم هو المنهج الصّحيح الأصيل الذي ورثوه عن رسول الله ﷺ لذلك أوصوا شيعتهم بأنَّ التّقاضي إلى من يكون عارفًا بالحلال والحرام طبق قضاء أهل البيت عليهم السلام، وفي الحديث عن الإمام العسكري وهو أيضًا مرويّ عن الإمام الصادق عليه السلام: **(قَالَ أَبُو عَبْدِاللهَ عَلَيْهِ السّلاَمُ: إيّاكُمْ أَنْ يُحَاكِمَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا إلَى أَهْلِ الجُوْرِ ! وَ لَكِنِ انظُرُوا إلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ قَضَآئِنَا فَاجْعَلُوهُ بَيْنَكُمْ، فَإنّى قَدْ جَعَلْتُهُ قَاضِيًا فَتَحَاكَمُوا إلَيْهِ)**[1] –أي لا يصح أن يذهب مثلا إلى قاضي من القضاة الذين ينطبق عليهم قضاة الباطل. وهذه علامة التدين للإنسان المتّقي، ففي بعض الأحيان بعض الناس يذهب إلى قاضٍ على غير مذهبه؛ لأنَّ ذلك القاضي يوفّر له المال أو يقضي بالحكم الذي يريده.

التّقية في المجتمع العام:

التّقيّة نظام انسجام وطريقة تعايش بين أتباع أهل البيت عليهم السلام، وبين سائر المسلمين .

إنَّ التّقيّة –كما أدَّبنا عليها القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام– هي النَّهي عن كلِّ فعل أو قول يؤدِّي إلى إراقة الدماء أو تشويه المعتقد وهدمه أو إيجاد الفرقة والخلاف بينك وبين أخيك الإنسان بأن تتقي كل ما يؤدي إلى الاختلاف والتنازع بينك وبين من يختلف معك في المعتقد أو الجنس والعيش معه بسلام ما دام هو لم يعتد عليك. لكن الفكر الظلامي الجاهل شوّه هذه العقيدة الإسلامية بما يحمله من جهل وعصبية وحقد وبما تعلمه من أئمة الضلال فنزع هذه الكلمة من قاموسه وأسس لفكر التكفير والقتل وتجاوز ذلك لينشر الرعب في جميع بلدان العالم وبذلك فقد قدّموا صورة مشوّهة عن الإسلام وقدّموه على أنّه دين يقوم على القتل والتدمير.

والتّقيّة أمر عقلائي أكَّدته الشّريعة، وله نماذج كثيرة في تاريخ الرّسل والأنبياء، وعليه شواهد كثيرة في القرآن الكريم والسّنّة الشّريفة وأقوال علماء الفريقين.

وفي هذا المجال حديث عن الإمام العسكري عليه السلام يُعدّ من أصول توجيهاته في هذا المجال: كتاب إلى شيعته،

---

(١) فروع الكافي/ ج٤/ ص٤١٢.

فيه وصايا مهمّة، نذكره بنصّه لما فيه من جوامع الكلم وجملة مبادئ الإسلام، قال عليه السلام: « أوصيكم بتقوى الله، والورع في دينكم، والاجتهاد لله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة إلى من ائتمنكم من برّ أو فاجر، وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد صلى الله عليه وآله.

صلوا في عشائرهم واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم وأدوا حقوقهم، فإنَّ الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق في حديثه، وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا شيعي فيسرّني ذلك..

اتقوا الله وكونوا زينًا ولا تكونوا شينًا، جروا إلينا كلّ مودّة، وادفعوا عنّا كلّ قبيح، فإنَّه ما قيل فينا من حسن فنحن أهله، وما قيل فينا من سوء فما نحن كذلك. لنا حقّ في كتاب الله، وقرابة من رسول الله، وتطهير من الله لا يدعيه أحد غيرنا إلا كذّاب. أكثروا ذكر الله وذكر الموت وتلاوة القرآن والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله، فإنَّ الصلاة على رسول الله عشر حسنات. احفظوا ما وصّيتكم به، واستودعكم الله، وأقرأ عليكم السلام »[1].

فهذه التوصيات المهمّة من الإمام العسكري لشيعته بالمشاركة الاجتماعية في الأفراح والأتراح، وبحسن الأخلاق، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، والالتزام بالآداب الإسلامية كلّها مفردات مهمّة في البناء الاجتماعي، كما أنَّها مصاديق عملية في الانفتاح على الآخرين والاندماج في المجتمع مع بقيّة الطّوائف والمذاهب، ولكن بدون الذوبان فيها، بل التفاعل والتّأثير الإيجابي بما يساعد على نشر علوم ومعارف أهل البيت عليهم السلام وسيرتهم المشرقة إلى الآخرين.

لقد كان أئمة الهدى يعاملون مخالفيهم بالأخلاق الحسنة والاحترام والإحسان إليهم وغض الطرف عن ما يصدر منهم من الإساءات، ويتجنَّبون المقابلة بالمثل والرّدّ عليهم، بل ويتجنَّبون كلّ ما يُسبّب التخاصم والنزاع والتفرقة، بل كانوا مصرين على حفظ وتقوية أواصر المحبّة والتعايش والتآلف والوحدة بين المسلمين، كلّ ذلك عملاً بتعاليم القرآن الكريم حيث يقول: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾[2]، لذلك نجد كثيرًا من مخالفيهم قد تأثّر بأخلاق أهل البيت عليهم السلام حتى انقلب كثير من مخالفيهم وأعدائهم إلى محبّين وموالين لهم.

في زمان الإمام العسكري عليه السلام وصلت الأمور لأرقى درجاتها وتكاملت الفكرة الشيعيّة، وتكاملت النظرية في العقائد والفقه حسب روايات أهل البيت عليهم السلام التي توارثوها من النبي محمد صلى الله عليه وآله بدءًا من زمان أمير المؤمنين

(١) تحف العقول: ٣٦١..

(٢) القرآن الكريم: الآية: ٣٣ و ٣٤.

علي ﷺ إلى زمان الإمام العسكري ﷺ الذي استشهد عام ٢٦٠ هـ أي حوالي ٢٥٠ سنة من الزمان خلالها كان الأئمة ﷺ يُبيّنون الأحكام والتشريعات حسب إرادة الله ويفيضون فيها، فهم حجج الله .

بدأ المجتمع الشيعي يتعوّد على فكرة الوكلاء ونوّاب الإمام ﷺ وأن يرجع إلى أحد العلماء الثّقات الورعين العارفين بأمور الدين، هذا بدأ من زمان الإمامين الباقر والصادق ﷺ، وتكرّس هذا الاتجاه في زمان الإمام العسكري ﷺ، وهناك عدد كبير من الروايات عن الإمام العسكري ﷺ في كيفية التعامل بين الوكلاء وبين سائر الناس .

فتعود المجتمع الشيعي على هذا النظام لذلك وعندما يتوفى أحد النواب يكون انتقال إلى عالِم آخر بوصفهم نوابًا عامّين للأئمة ﷺ فكانت العملية سلسة وطبيعيّة جدًّا .

إلى أن وصل المجتمع إلى زمان الغيبة الصغرى وما بعدها بشكلٍ يُعدّ أمرًا طبيعيًّا، وفي الوقت نفسه استمرّوا بالتعايش مع الناس – غير الشيعة الإمامية – بالتّقيّة والمداراة والمعاملة الحسنة .

وقد رأينا تأثير ذلك في المجتمع الشّيعيّ التابع لأهل البيت ﷺ، فقد استطاع أن يحافظ على شعائره وأخلاقه وعباداته وأن يحسّن معاملته مع غيره، ولم يصطدم مع الآخر .

هذا كلّه ببركات تخطيط أئمّة أهل البيت ﷺ وكان نتيجة ذلك وقمّة ذلك في زمان سيّدنا ومولانا الإمام الحسن العسكري ﷺ بالرغم من أنَّ مدّة بقائه محدودة، فعمر الإمام صغير بين من قائل ثلاثين أو ثمانية وعشرين عامًا، وإمامته بين من قائل ستة أو ثمانية أعوام، وهذا شيء مثير للدهشة أنَّ الإمام ﷺ يتولّى الإمامة مدّة ست سنوات فقط، ومع ذلك الحاكم العبّاسي الذي بيده الطول والقوّة والجنود لا يتحمّل بقاءه أكثر من هذا، هذا ملفت للنظر .

عادة إذا كانت هناك فئة تُعارض السلطة والحاكم؛ تارة لا يلتفت إليها ولا يهتمّ لأمرها، وتارة أخرى لا يتحمّل وجودها فيواجهها بقوّة، فيسعى للقضاء عليها .

يتبيّن أنَّ هذا الحاكم العبّاسي، فشل في إدارة الصّراع مع الإمام العسكري ﷺ ولذلك رأى أنَّه لا سبيل أن يتجاهله، ولا أن يقاوم مخطّطاته، لا سبيل إلا أن يقتله ويقضي عليه، لأنَّ الإمام ﷺ كان يدير هذا المجتمع الكبير بذكاءٍ منقطع النظير، وبصورة مثالية كاملة وفي الوقت نفسه لا يُعطي للسلطة الحاكمة أيّ مستند أو مدرك، وهذا ما لا يتحمّله المعتمد العباسي فسعى للقضاء على الإمام الحسن العسكري –صلوات الله عليه–.

أسس العقيدة في كلمات الإمام العسكري عليه السلام

السيد مجتبى الصافي

على الرغم من الحصار والإقامة الجبرية التي تعرَّض لها الإمام العسكري عليه السلام لأجل إبعاده عن موقع قيادة الأمّة فقد استطاع أن ينشر علوم القرآن الكريم وعلوم أجداده الطاهرين -صلوات الله عليهم- وأن ينهض بدوره الرسالي في هداية الناس إلى طريق الحقّ والفلاح حيث استمر في نشر وتجذير أسس مدرسة آبائه المعصومين-صلوات الله عليهم-، وإعداد وصنع جملة من حملة العلم والمعرفة من الفقهاء والمحدثين من أصحابه، فكان له الدّورُ البارز في رفد تلك المدرسة بالمادّة العلمية اللازمة على مختلف الأصعدة، وخاصّة في مجال ترسيخ أصول العقيدة، كما تصدى عليه السلام لبعض الدعوات المنحرفة والشبهات الباطلة وبيّن بطلانها، فأنقذ الأُمة من الدخول في كهف الضّلال والانحراف. وفيما يلي نذكر بعض كلماته الشريفة في هذا المجال:

أوّلاً: كلماته في أصل التوحيد

لقد بيّن الإمام عليه السلام التوحيد الخالص، وبيّن حقيقة الشّرك والتّحذير من رواسبه، ولعلَّ أبرز المسائل التي كانت مثيرة للجدل هي مسألة الرّؤية والتجسيم، وكان منهج الأئمة عليهم السلام هو أنَّهم يتحدّثون بلغة القرآن وبأُسلوبه وبمفرداته في العقيدة، ليوجّهوا الناس إلى الأخذ بالعناوين الكبرى في العقيدة من القرآن الكريم لا من غيره.

فعن يعقوب بن إسحاق، قال: « كتبت إلى أبي محمد عليه السلام أسأله: كيف يعبد العبد ربَّه وهو لا يراه؟ فوقّع عليه السلام: يا أبا يوسف، جل سيدي ومولاي والمنعم عليّ وعلى آبائي أن يُرى».

قال: وسألته: « هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ربَّه ؟ فوقّع عليه السلام: إنَّ الله تبارك وتعالى أرى رسوله بقلبه من نور عظمته ما أحبّ»[1] .

وعن سهل بن زياد، قال: « كتب إلى أبي محمد عليه السلام...: قد اختلف يا سيدي أصحابنا في التوحيد»: « فمنهم من يقول هو جسم، ومنهم من يقول: هو صورة، فإن رأيت يا سيدي أن تعلّمني من ذلك ما أقف عليه ولا أجوزه، فعلت متطولاً على عبدك؟» والعبودية هنا من باب التّواضع.

(١) أصول الكافي ١: ٩٥، التوحيد / الشيخ الصدوق: ١٠٨.

« فوقّع بخطّه عليه السلام: سألت عن التوحيد، وهكذا منكم معزول، الله واحد أحد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، خالق وليس بمخلوق، يخلق تبارك وتعالى ما يشاء من الأجسام وغير ذلك وليس بجسم، ويصور ما يشاء وليس بصورة جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه أن يكون له شبه، هو لا غيره، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»[1].

فلقد أراد عليه السلام أن يقول للسائل بأن لا يستغرق في الجدل الكلامي عندما يتحدّث عن الله سبحانه وتعالى، ولكن طلب إليه أن يقرأ كتاب الله فيما أنزله من آياته، فهو أعرف بنفسه من مخلوقاته كلّها؛ لأنَّ المخلوق لا يستطيع أن يعرف من ربّه إلا ما عرّفه ربّه.

وعن أبي هاشم الجعفري، قال: « سأل محمد بن صالح الأرمني أبا محمد عليه السلام عن قول الله تعالى: **(يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ)**[2] فقال: هل يمحو إلا ما كان، وهل يثبت إلا ما لم يكن. فقلت في نفسي: هذا خلاف ما يقول هشام: إنَّه لا يعلم الشيء حتَّى يكون. فنظر إليَّ أبو محمد عليه السلام فقال: تعالى الجبّار العالم بالأشياء قبل كونها، الخالق إذ لا مخلوق، والرّبّ إذ لا مربوب، والقادر قبل المقدور عليه، فقلت: أشهد أنَّك وليّ الله وحجّته والقائم بقسطه، وأنَّك على منهاج أمير المؤمنين»[3] .

ثانياً: كلماته في أصل الإمامة

من خصائص أئمّة أهل البيت عليهم السلام، أنَّهم الهداة والدليل إلى الله تعالى بعد الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله فهم حبل الله المتين وصراطه المستقيم، ومثلهم في هذه الأمّة كسفينة نوح عليه السلام من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق وهوى، وهم الصراط المستقيم المتّصل بالله عزّ وجلّ بعد النبي صلى الله عليه وآله، وهم كهف الأنام.

وقد أكَّد الإمام العسكري عليه السلام في كثير من كلماته والرّوايات الواردة عنه على فرض الولاية لأهل البيت عليهم السلام وضرورة التّمسّك بهديهم وأداء حقوقهم التي جعلها الله لهم.

ومن ذلك ما جاء في كتابٍ له عليه السلام إلى إسحاق بن إسماعيل النيسابوري: « ... إنَّ الله بمنّه ورحمته لمّا فرض عليكم الفرائض، لم يفرض ذلك عليكم لحاجةٍ منه إليكم، بل برحمة منه ـ لا إله إلا هو ـ عليكم؛ ليميز الخبيث من الطّيّب، وليبتلي ما في صدوركم، وليمحص ما في قلوبكم، لتتسابقوا إلى رحمته، ولتتفاضل منازلكم في جنّته.

ففرض عليكم الحج والعمرة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والولاية، وجعل لكم بابًا تستفتحون به أبواب الفرائض، ومفتاحًا إلى سبيله، لولا محمد صلى الله عليه وآله والأوصياء من ولده لكنتم حيارى كالبهائم، لا تعرفون

(١)أصول الكافي ١: ١٠٣، التوحيد / الشيخ الصدوق: ١٠١ / ١٤.

(٢) سورة الرعد: ١٣ / ٣٩.

(٣) إثبات الوصية: ٢٤٩، الغيبة / الشيخ الطوسي: ٤٣٠ / ٤٢١، الثاقب في المناقب: ٥٦٦ / ٥٠، الخرائج والجرائح٢: ٦٨.

فرضاً من الفرائض، وهل تدخل مدينة إلا من بابها، فلمّا مَنَّ عليكم بإقامة الأولياء بعد نبيّكم، قال الله في كتابه: (**اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**)[1] **وفرض عليكم لأوليائه حقوقًا أمركم بأدائها ليحلَّ لكم ما وراء ظهوركم من أزواجكم وأموالكم ومآكلكم ومشاربكم، قال الله تعالى: (قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَىٰ)** [2] ... »[3].

وفي حديث أبي هاشم الجعفري: « أنَّ الإمام العسكري ﷺ قال له مبيّنًا منزلة أهل البيت: ... ما ظنّك بقومٍ من عرفهم عرف الله، ومن أنكرهم أنكر الله، ولا يكون مؤمناً حتى يكون لولايتهم مصدّقاً، وبمعرفتهم موقناً» [4].

قال أبو هاشم: «وقلت في نفسي: اللهمّ اجعلني في حزبك وفي زمرتك. فأقبل عليّ أبو محمد ﷺ فقال: أنت في حزبه وفي زمرته إن كنت بالله مؤمنًا ولرسوله مصدقًا وبأوليائه عارفًا، ولهم تابعًا، فابشر ثم أبشر» [5].

وفي حديث آخر عن الحسن بن ظريف بيّن فيه الإمام العسكري ﷺ المصداق البارز لحزب الله عند اختلاف الكلمة، قال: « كتبت إلى أبي محمد ﷺ أسأله: ما معنى قول رسول الله لأمير المؤمنين ﷺ: من كنت مولاه فعلي مولاه ؟ فقال: أراد بذلك أن جعله علمًا يعرف به حزب الله عند الفرقة»[6].

ثالثًا: التّمهيد لغيبة ولده الحجة ﷺ

إنَّ قضية الإمام المهدي ﷺ في عصر الإمام العسكري ﷺ تُعدّ قضية أساسية للمسلمين بشكلٍ عام، ولأتباع أهل البيت ﷺ بشكلٍ خاص، والظّروف التي كانت تحيط بالإمام العسكري ﷺ كانت تزداد حراجة كلّما اقتربت أيَّام ولادة الإمام المهدي ﷺ وغيبته.

كانت سياسة العبّاسيين تجاه أئمة أهل البيت ﷺ تتمحور حول دمجهم بالجهاز الحاكم لامتصاص ثورة الشيعة من جهة ولضمان مراقبة الأئمة مراقبة دقيقة من جهة ثانية ولعزلهم عن قواعدهم ومحبّيهم من جهة ثالثة، وكانت هذه السياسة قائمة منذ عهد الإمام الرضا ﷺ الذي أجبره المأمون على قبول ولاية العهد، وكانت هذه السياسة العامة لا تمنع العبّاسيين من سجن الأئمة ودس السّم لهم كلّما أحسّوا بالخطر.

ولقد بقيت هذه السياسة متبعة حتى عهد الإمام الحسن العسكري ﷺ فكان كوالده مجبرًا على الإقامة في

---

(١) سورة المائدة: ٥ / ٣.

(٢) سورة الشورى: ٤٢ / ٢٣.

(٣) تحف العقول: ٣٥٨، علل الشرائع / الشيخ الصدوق ١: ٢٩١ / ٦.

(٤) الثاقب في المناقب: ٥٦ / ٥٠٨، إثبات الوصية: ٢٤٩.

(٥) إعلام الورى ٢: ١٤٣.

(٦) كشف الغمة / الاربلي ٣: ٣٠٣، بحار الأنوار ٥٠: ٢٩٠ / ٥٠.

سامراء، ملزمًا بالحضور إلى بلاط الخليفة كل يوم اثنين وخميس.

فتميّز موقف الإمام العسكري ﷺ من الحكّام بالاحتراس الشّديد والحذر التام، والاحتراس الشديد من هؤلاء الطغاة وعدم إثارة حفيظة هؤلاء، وإعطائهم أيّ مبرّر للهجوم عليه، وإن كان مجرد وجود إمام من أئمة أهل البيت سينغّص عيش هؤلاء الحكّام ويثير حفيظتهم، فكيف بتخيّل وجود شيعة له يحبّونه ويميلون إليه، ويطيعونه، فكيف لا تتأجج نار الغيرة منه والحقد عليه في قلوبهم؟! وخاصة مع وجود الواشين عليه، والساعين لدى السلطان بالشر والوقيعة بالإمام، وما أكثرهم!!

لقد جرى الإمام العسكري ﷺ على طريقة آبائه وأجداده ﷺ في استعراض فكرة الغيبة وإمكانها ثبوتاً، ثم تطبيقها على ولده القائم. وكان الحث والتركيز على الثبات في غيبته. بما أنَّ الإمام المهدي يُمثّل عنصرًا من عناصر الغيبة، فكان يسهل عليهم قبول فكرة الغيبة، لأنَّ الإيمان بعالم الغيب هو توأم الإيمان بعالم الشهادة.

وكان يخاطب الغائبين فضلاً عن المعدمين، ومن هم لا يزالون في أصلاب الرّجال، عن طبيعة مرحلة الغيبة وما يقع فيها من بلاءات ومصائب، وفي الوقت نفسه يدعوهم الى التّصبّر والتّجلّد والاحتساب، ويزرع فيهم الأمل بالظهور وأنَّ المنتظر له هو في عبادة وكالمتشحّط في دمه بين يدي رسول الله ﷺ، كما جاء في بعض الروايات.

وكانت المهمة التي نهض بها الإمام العسكري ﷺ في هذا السبيل صعبة للغاية؛ ذلك لأنَّه والد الإمام الثاني عشر ﷺ ويقع عليه العبء الأكبر في ترسيخ مبدأ الغيبة التي بدأت تباشيرها وأوشك زمانها في وقت عصيب عملت فيه السلطة الحاكمة على عزل الإمام ﷺ عن أصحابه ومواليه وشدّدت الرقابة عليه، ووقفت ضدّه وضدّ فكرة الغيبة بالذات، ويمكن تلخيص نشاط الإمام العسكري ﷺ في هذا الاتجاه:

أوّلاً: اتخذ الإمام العسكري ﷺ ومن قبله أبوه ﷺ أُسلوبًا شبيهًا بمنهج الإمام المهدي ﷺ في الاحتجاب عن الناس وإيكال أمر تبليغ الأحكام وقبض الحقوق المالية وإيصال التواقيع الصادرة عن الإمام إلى الوكلاء الذين يختارهم من خاصّة أصحابه، لغرض تهيئة الذهنية العامة كي تستسيغ هذا الأسلوب ويحسن تقبّلها له.

وكان من بين الوكلاء الذين اعتمدهم الإمام العسكري ﷺ للنهوض بهذا الأمر: إبراهيم بن عبدة النيسابوري، وأحمد بن إسحاق الأشعري، وأيوب بن نوح بن دراج، وجعفر بن سهيل الصيقل، وحفص بن عمرو العمري، وأبو عمرو عثمان بن سعيد العمري، وعلي بن جعفر الهمّاني، والقاسم بن العلاء الهمداني، ومحمد بن أحمد بن جعفر القمي، وأبو جعفر محمد بن عثمان بن سعيد العمري، ومحمد بن صالح بن محمد الهمداني وغيرهم.

ويمكن القول إنَّ وكالة عثمان بن سعيد للإمام العسكري ﷺ كانت بمثابة التمهيد للسفارة المهدوية؛ لأنَّ عثمان بن سعيد كان السفير الأوّل للإمام الحجة ﷺ، وذلك مما يزيد من ثقة الشيعة به، ولاسيما وإنّه منصوص على ثقته وأمانته وعدالته وصلاحه لهذا الأمر من قبل الإمامين العسكريين ﷺ.

وكانت أداة الإمام ﷺ في الاتصال بشيعته هي المكاتبات والتواقيع التي يتحمّل الوكيل العبء الأكبر في إيصالها من وإلى الإمام، فكان الأصحاب يكتبون إلى الإمام ﷺ بعض المسائل التي تُشكل عليهم في أُمور دينهم ودنياهم، والإمام ﷺ يجيب عليها عن طريق التّواقيع.

ثانياً: نصّ الإمام على ولده المهدي ﷺ وعرضه على أصحابه الذين يتوقّع منهم صلابة الإرادة وقوّة الإيمان وعمق الإخلاص، وحمّلهم أمانة الوصيّة ومسؤولية النّص على ولده الحجة ﷺ بعد عرضه عليهم.

ورد في الحديث أنَّه ﷺ كان يتخيَّر لهذه المهمّة الأقرب لقرابته والأولى لولايته وذوي الكرامة عند الله سبحانه، ومع ذلك يأخذ عليهم بالكتمان ويوصيهم بالستر والسّرّيّة.

ففي كتابٍ له ﷺ بخطّه بعثه إلى أحمد بن إسحاق بن سعد الأشعري، جاء فيه: « ولد لنا مولود، فليكن عندك مستورًا، وعن جميع الناس مكتومًا، فإنا لم نظهر عليه إلا الأقرب لقرابته والولي لولايته ... »[1].

وجاء في حديث آخر: « يا أحمد بن إسحاق، لولا كرامتك على الله عزّوجل وعلى حججه، ما عرضت عليك ابني هذا إنَّه سمي رسول الله ﷺ وكنيّه الذي يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلِئت جورًا وظلمًا».

إلى أن قال: « يا أحمد بن إسحاق هذا أمر من أمر الله، وسرّ من سرّ الله، وغيب من غيب الله، فخذ ما آتيتك واكتمه، وكن من الشاكرين تكن معنا في علّيين»[2].

لقد استطاع الإمام العسكري ﷺ أداء التكليف المتعلّق به، وهو التبليغ لولده الحجة ﷺ بعرضه على أصحابه والإشهاد على ولادته والنّصّ عليه، بالقدر الذي تقوم به الحجّة على الناس مع الضّمان الكامل لنجاته من تطلّب الجهاز الحاكم.

ثالثاً: عرض الإمام العسكري ﷺ ولده على بعض أصحابه الذين تقدّم ذكرهم وغيرهم من خدم الدّار؛ ليكون أبلغ في تأكيد الحجة وتبليغ النّص، فتشرف بعضهم برؤيته في يومه الأول، وبعضهم في اليوم الثالث، وبعضهم حينما بلغ السّنة الثّالثة أو الخامسة من عمره الشّريف، وكان من بينهم: أحمد بن إسحاق بن سعد الأشعري الذي رآه في سنته الثالثة، وحكيمة ابنة الإمام محمد الجواد ﷺ وهي عمّة أبيه الإمام الحسن العسكري

---

(١) إكمال الدين: ٤٣٣ / ١٦.

(٢) المصدر نفسه: ٣٨٤ / ١.

عليه السلام وكانت قابلته، وحمزة بن أبي الفتح، وحمزة بن نصر غلام أبي الحسن عليه السلام، وأبو نصر ظريف الخادم، وجارية أبي علي الخيزراني، وأبو عمرو عثمان بن سعيد العمري، وعمرو الأهوازي، وأبو غانم الخادم، وكامل بن إبراهيم المدني، ومارية ونسيم وكانتا من خدم الدار، ويعقوب بن منقوش رآه حينما كان خماسياً [1].

رابعًا: قام الإمام ببيان التَّكليف في زمان الغيبة ففي حديث محمد بن عثمان العمري، قال: « سمعت أبي يقول: سئل أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام وأنا عنده عن الخبر الذي روي عن آبائه: أنَّ الأرض لا تخلو من حجّة لله على خلقه إلى يوم القيامة، وأنَّ من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية. فقال عليه السلام: إنَّ هذا حقّ كما أنَّ النّهار حقّ. فقيل له: يابن رسول الله، فمن الحجة والإمام بعدك؟ فقال: ابني محمد، هو الإمام والحجة بعدي من مات ولم يعرفه مات ميتة جاهلية، أما إنَّ له غيبة يحار فيها الجاهلون، ويهلك فيها المبطلون، ويكذب فيها الوقّاتون، ثم يخرج فكأنِّي أنظر إلى الأعلام البيض تخفق فوق رأسه بنجف الكوفة » [2].

وفي حديث الحسن بن محمد بن صالح البزاز، قال: « سمعت الحسن بن علي العسكري عليه السلام يقول: إنَّ ابني هو القائم من بعدي، وهو الذي تجري فيه سنن الأنبياء: بالتّعمير والغيبة حتى تقسو القلوب لطول الأمد، فلا يثبت على القول به إلّا من كتب الله عزوجل في قلبه الإيمان وأيّده بروح منه»[3].

خامسًا: حذَّر الإمام العسكري عليه السلام في أكثر من مناسبة أصحابه من أن تميل بهم الأهواء أو تعصف بقلوبهم الفتن لطول الغيبة وشدّة الرّيبة، وأكَّد ضرورة التَّمسّك بالإمام من بعده وطاعته، كما ورد في حديث موسى بن جعفر بن وهب البغدادي، قال: « سمعت أبا محمد الحسن بن علي عليه السلام يقول: كأنِّي بكم وقد اختلفتم بعدي في الخلف منِّي، أما إنَّ المقرّ بالأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله المنكر لولدي، كمن أقرّ بجميع أنبياء الله ورسله ثمّ أنكر نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله، والمنكر لرسول الله صلى الله عليه وآله كمن أنكر جميع أنبياء الله؛ لأنَّ طاعة آخرنا كطاعة أوّلنا، والمنكر لآخرنا كالمنكر لأوّلنا، أما إنَّ لولدي غيبة يرتاب فيها الناس إلا من عصمه الله عزّوجل» [4].

سادساً: أكَّد الصَّبر وانتظار الفرج في أيَّام الغيبة لربط الأمّة بقائدها المنتظر حتى يأذن الله بظهور دولته وانطلاق دعوته، ومن ذلك ما كتبه الإمام العسكري عليه السلام إلى أبي الحسن علي بن الحسين بن بابويه القمي «عليك بالصبر وانتظار الفرج، قال النبي صلى الله عليه وآله: أفضل أعمال أُمّتي انتظار الفرج، ولا تزال شيعتنا في حزن حتى يظهر ولدي الذي بشّر به النبي صلى الله عليه وآله يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت جورًا وظلمًا، فاصبر يا شيخي يا أبا الحسن

---

(١) راجع أصول الكافي ١: ٣٢٩، إثبات الوصية: ٢٥ .

(٢) إكمال الدين: ٤٠٩ / ٩ .

(٣) المصدر نفسه: ٥٢٤ / ٤.

(٤) المصدر نفسه: ٤٠٩ / ٨.

علّي، وأمر جميع شيعتي بالصبر، فإنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ...»[1].

(١) المناقب / لابن شهر آشوب ٤: ٤٥٩، بحار الأنوار ٥٠ .

أخلاق محمّدية

فاطمة كامل المسعودي

لم يحصل لأحد من البشر ما حصل لرسول الله ﷺ من توفّر صفات الكمال وبلوغ الحدِّ الأعلى والغاية القصوى التي يمكن أن يبلغها إنسان، فكان ﷺ مضرب المثل في الكمال الإنساني والسّمو الخلقي قبل البعثة وبعدها، وقد خصّه الله بخصائص وميزات امتاز بها على البشر في الدنيا والآخرة فجعله أفضل المرسلين الذين هم خير البشر وجعله خاتمهم وسيّدهم.

لقد حثَّ الرسول الأعظم ﷺ على مكارم الأخلاق، وكان أفضل الخلق أخلاقًا وأحسنهم آدابًا.

الزّهد

كان رسول الله ﷺ زاهدًا في الدنيا وزخارفها، بما للكلمة من معنى.

عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: "نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال له: ربك يقرئك السلام ويقول لك: هذه بطحاء مكة تكون لك رضراضة ذهب ولا تنقص مما ادّخرت لك شيئًا. قال: فنظر رسول الله إلى البطحاء فقال: لا يا رب، ولكن أشبع يومًا فأحمدك وأجوع يومًا فأسألك"[1].

وعن ابن عباس، قال: إنَّ رسول الله ﷺ دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبيه. فقال: يا نبي الله، لو اتخذت فراشًا. فقال: "ما لي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلّا كراكب سار في يوم صائف فاستظلّ تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها"[2].

الرّحمة المهداة

من صفات رسول الله ﷺ الرّحمة المهداة، فكان ﷺ رحمةً للعالمين بأجمعهم، قال تعالى: **(وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)**[3].

---

(١) مشكاة الأنوار: ص٢٦٤.

(٢) بحار الأنوار: ج١٦ ص٢٣٩.

(٣) سورة الأنبياء: ١٠٧.

عن أبان الأحمر، عن الصادق جعفر بن محمد ﷺ، قال: "جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقد بلى ثوبه، فحمل إليه اثني عشر درهمًا.

فقال: يا علي، خذ هذه الدّراهم فاشتر لي ثوبًا ألبسه.

قال علي ﷺ: فجئت إلى السوق فاشتريت له قميصًا باثني عشر درهمًا، وجئت به إلى رسول الله ﷺ فنظر إليه.

فقال: يا علي، غير هذا أحب إليَّ، أترى صاحبه يقيلنا؟.

فقلت: لا أدري.

فقال: انظر.

فجئت إلى صاحبه فقلت: إنَّ رسول الله ﷺ قد كره هذا، يريد ثوبًا دونه فأقلنا فيه. فردَّ عليَّ الدراهم وجئت به إلى رسول الله ﷺ، فمشى معي إلى السّوق ليبتاع قميصًا، فنظر إلى جارية قاعدة على الطَّريق تبكي، فقال لها رسول الله ﷺ: ما شأنكِ؟.

قالت: يا رسول الله، إنَّ أهل بيتي أعطوني أربعة دراهم لأشتري لهم بها حاجة فضاعت فلا أجسر أن أرجع إليهم.

فأعطاها رسول الله ﷺ أربعة دراهم، وقال: ارجعي إلى أهلكِ. ومضى رسول الله ﷺ إلى السوق فاشترى قميصًا بأربعة دراهم ولبسه وحمد الله، وخرج فرأى رجلاً عريانًا يقول: من كساني كساه الله من ثياب الجنة. فخلع رسول الله ﷺ قميصه الذي اشتراه وكساه السائل، ثم رجع إلى السوق فاشترى بالأربعة التي بقيت قميصًا آخر فلبسه وحمد الله ورجع إلى منزله، وإذا الجارية قاعدة على الطريق، فقال لها رسول الله ﷺ: ما لكِ لا تأتين أهلكِ؟.

قالت: يا رسول الله، إنِّي قد أبطأت عليهم وأخاف أن يضربوني.

فقال رسول الله ﷺ: مري بين يدي ودلّيني على أهلكِ.

فجاء رسول الله ﷺ حتى وقف على باب دارهم، ثم قال: السلام عليكم يا أهل الدّار.

فلم يجيبوه، فأعاد السلام فلم يجيبوه، فأعاد السلام، فقالوا: عليك السلام يا رسول الله ورحمة الله وبركاته.

فقال لهم: ما لكم تركتم إجابتي في أوّل السلام والثاني؟.

قالوا: يا رسول الله، سمعنا سلامك فأحببنا أن تستكثر منه.

فقال رسول الله ﷺ: إنَّ هذه الجارية أبطأت عليكم فلا تؤاخذوها.

فقالوا: يا رسول الله، هي حرّة لممشاك.

فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله، ما رأيت اثني عشر درهمًا أعظم بركة من هذه، كسا الله بها عريانين وأعتق بها نسمة"[1].

وهكذا كان النبي ﷺ رحمةً للجميع حتى للأمّة التي لم يعتنوا بها في المجتمع الجاهلي.

الشّعائر الدِّينيّة

كان رسول الله ﷺ يؤكِّد على الشعائر الدينية بمختلف أنواعها، من الصلاة والصّيام والحج وسائر العبادات، وحتَّى مجالس البكاء وما أشبه، بل وحتى الشّعائر الحسينية حيث أشار النبي ﷺ إليها وحبَّذها.

وهذا ما قد رواه الفريقان في كتبهم.

عن جابر قال: لما جرد رسول الله ﷺ حمزة عليه السلام بكى، فلمّا رأى أمثاله[2] شهق[3].

وعن أنس بن مالك، قال: لما رجع رسول الله ﷺ من أُحُد سمع نساء الأنصار يبكين، فقال: «لكن حمزة لا بواكي لـه»!، فبلغ ذلك نساء الأنصار فبكين لحمزة عليه السلام...، ثم قال: وهو أشهر حديث بالمدينة فإنَّ نساء المدينة لا يندبنَ موتاهنَّ حتى يندبنَ حمزة عليه السلام وإلى يومنا هذا[4].

وعن جابر بن عبد الله، قال: فقد رسول الله ﷺ يوم أحد حمزة حين فاء الناس من القتال، قال: فقال رجل: رأيته عند تلك الشَّجرة وهو يقول: "أنا أسد الله وأسد رسوله، اللهم أنِّي أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء لأبي سفيان وأصحابه، وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء من انهزامهم". فسار رسول الله ﷺ نحوه فلمّا رأى جبهته بكى، ولما رأى ما مُثّل به شهق، ثم قال: «ألا كفن»، فقام رجل من الأنصار فرمى بثوب. قال جابر: فقال رسول الله ﷺ: «سيّد الشهداء عند الله تعالى يوم القيامة حمزة»[5].

وعن جابر، قال: لما بلغ النبي ﷺ قتل حمزة بكى، فلمّا نظر إليه شهق. وعن جابر، قال: لما جرد رسول الله ﷺ حمزة بكى فلمّا رأى مثاله شهق[6].

وعن أسماء بنت يزيد، قالت: لمّا توفِّي ابن رسول الله ﷺ إبراهيم بكى رسول الله ﷺ، فقال لـه المعزي: أنت أحق من عظم الله حقه. قال رسول الله ﷺ: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، لولا أنّه وعد

---

(١) بحار الأنوار: ج١٦ ص٢١٤-٢١٥ .

(٢) أي ما مثل به.

(٣) المستدرك على الصحيحين: ج٣ ص٢١٨ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٤) المصدر نفسه: ج١ ص٥٣٧.

(٥) المستدرك على الصحيحين: ج٣ ص٢١٩.

(٦) مجمع الزوائد: ج٦ ص١١٨ وص١١٩، طبع دار الريان للتراث ـ القاهرة.

صادق وموعود جامع وأنّ الآخر تابع الأوّل لوجدنا عليك يا إبراهيم أفضل مما وجدنا وإنَّا بك لمحزونون»[1].

تحمّل الصِّعاب

لقد تحمّل رسول الله ﷺ الصِّعاب والمشاكل والأذى في سبيل الله تعالى، حتى قال: "ما أوذي نبيّ مثل ما أوذيت"[2].

وهو ﷺ أسوة لكلِّ العاملين في سبيل الله، فعليهم أن يتحمّلوا الصّعاب لكسب رضا الله تعالى.

وعن عكرمة قال: سمعت عليًّا عليه السلام يقول: "لما انهزم الناس يوم أحد عن رسول الله ﷺ لحقني من الجزع عليه ما لم يلحقني قط، ولم أملك نفسي وكنت أمامه أضرب بسيفي بين يديه، فرجعت أطلبه فلم أره فقلت: ما كان رسول الله ﷺ ليفر وما رأيته في القتلى وأظنه رفع من بيننا إلى السماء، فكسرت جفن سيفي وقلت في نفسي: لأقاتلنَّ به عنه حتى أُقتل، وحملت على القوم فأفرجوا عني وإذا أنا برسول الله ﷺ قد وقع على الأرض مغشيًّا عليه!! فقمت على رأسه فنظر إليّ فقال: ما صنع الناس يا علي؟ فقلت: كفروا يا رسول الله وولّوا الدّبر من العدو وأسلموك، فنظر النبي ﷺ إلى كتيبة قد أقبلت إليه فقال لي ردّ عنّي يا علي هذه الكتيبة فحملت عليها أضربها بسيفي يمينًا وشمالاً حتى ولّوا الأدبار، فقال النبي ﷺ: أما تسمع يا علي مديحك في السماء إنَّ ملكًا يقال لـه رضوان ينادي: لا سيف إلَّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي.

فبكيت سرورًا وحمدتُ الله سبحانه وتعالى على نعمته[3].

في متناول الفقراء

كان رسول الله ﷺ في متناول الفقراء، ومع جميع طبقات شعبه دائمًا، حتى عندما شكل الحكومة الإسلامية في المدينة وكان قائدًا عامًّا لها.

عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: قال جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: "أنَّ رسول الله ﷺ كان يأتي أهل الصّفة وكانوا ضيفان رسول الله ﷺ، كانوا هاجروا من أهاليهم وأموالهم إلى المدينة، فأسكنهم رسول الله ﷺ صُفة المسجد وهم أربعمائة رجل، يسلّم ﷺ عليهم بالغداة والعشي، فأتاهم ذات يوم فمنهم من يخصف نعله ومنهم من يرقع ثوبه ومنهم من يتفلى، وكان رسول الله ﷺ يرزقهم مدّاً مدّاً من تمر في كلّ يوم. فقام رجل منهم فقال: يا رسول الله، التمر الذي ترزقنا قد أحرق بطوننا !.

فقال رسول الله ﷺ: "أما إنّي لو استطعت أن أطعمكم الدنيا لأطعمتكم، ولكن من عاش منكم بعدي

(١) مصباح الزجاجة: ج٢ ص٤٧ و٤٨، طبع الدار العربية ـ بيروت.

(٢) المناقب: ج٣ ص٢٤٧.

(٣) راجع الارشاد: ج١ ص٨٦-٨٧.

فسيغدى عليه بالجفان ويراح عليه بالجفان، ويغدو أحدكم في قميصه ويروح في أخرى، وتنجدون بيوتكم كما تنجد الكعبة".

فقام رجل فقال: يا رسول الله، إنَّا إلى ذلك الزمان بالأشواق فمتى هو؟.

قال ﷺ: "زمانكم هذا خير من ذلك الزمان، إنَّكم إن ملأتم بطونكم من الحلال توشكون أن تملؤوها من الحرام"[1].

مخالفة الهوى

من أهم ما يوجب الفوز بسعادة الدَّارين مخالفة الهوى، وقد أكَّد رسول الله ﷺ ذلك. وكان النبي ﷺ أوّل من يخالف هواه، كما سبق في بعض أخلاقياته.

قال رسول الله ﷺ: "جاهدوا أهواءكم تملكوا أنفسكم"[2].

وقال النبي ﷺ لأصحابه عند عودته من غزوة تبوك: "مرحبًا بقوم قضوا الجهاد الأصغر! وبقي عليهم الجهاد الأكبر!". قيل: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟. قال ﷺ: "جهاد النفس"[3].

وقال رسول الله ﷺ: "جاهدوا أنفسكم على شهواتكم تحل قلوبكم الحكمة"[4].

وقال ﷺ: "الكيّس من الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنّى على الله عزوجل الأماني"[5].

التَّعامل مع الكفّار

كان رسول الله ﷺ نموذجًا في علاقته الطّيّبة مع الإنسان بما هو إنسان، فكان يحترم الجميع حتى الكفّار ويسعى في هدايتهم إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فإن لم يهتدوا لم يبدأهم بحرب بل يتركهم وشأنهم.

إنَّ الإسلام قد جعل في علاقة المسلمين بغيرهم أصولاً كلّها عقليّة، وهي على أتمّ وجه، قال تعالى: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**"[6]. ولم يخصّص الله سبحانه وتعالى هذا الحكم بالنسبة إلى المسلمين فحسب، بل يشمل المسلمين والكفّار حيث قال: "يا أيّها الناس...".

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٥٦ .

(٢) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ج٢ ص١٢٢.

(٣) بحار الأنوار: ج٦٧ ص٦٥.

(٤) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ج٢ ص١٢٢.

(٥) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص١١٢ .

(٦) سورة الحجرات: ١٣.

وفي حديث عن رسول الله ﷺ، إنَّه قال: "من ظلم ذمّيًّا أو معاهدًا فأنا خصمه يوم القيامة، ومن كنت خصمه خاصمته"[1].

وقال تعالى: **"لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"**[2].

وقد أراد رسول الله ﷺ اختلاط المسلمين بغير المسلمين ليطلع غير المسلمين على عقائد المسلمين وحسن أخلاقهم وأعمالهم وشعائرهم حتَّى يرغبوا في الإسلام عقيدة وعملاً، حيث إنَّ الإسلام جميل في كلِّ شؤونه، فإذا رآه غير المسلم انجذب إليه، ومن مقتضيات العلاقة بينهما المخالطة وتبادلهم المصالح والمنافع وتقوية الصّلات، سواء كانوا كفّارًا ذميين أم محايدين أم معاهدين، وإنَّما المستثنى من ذلك الكفّار المحاربون في الجملة.

وكان الأمر في حسن العلاقات وحسن التعامل وحسن المعاشرة بين المسلمين ومختلف الكفّار منذ فجر الإسلام، والأمر المشهور بأنَّ غير الكتابي يخيّر بين قبول الإسلام أو المحاربة لا دليل قوي عليه، كما لا أثر لـه في مرحلة التطبيق الخارجي في مختلف عصور المسلمين، كما يلاحظ ذلك بالنسبة إلى حكّام المسلمين الذين استولوا على الهند وغير الهند، ومن القديم كان فيها المسلمون وغير المسلمين، الكتابيون وغير الكتابيين، من عبدة الأصنام، وعبدة النار، وعبدة الماء، وعبدة البقر، وغير ذلك من الأديان المتعددة التي لا تمت إلى أهل الكتاب (اليهود والنصارى والمجوس) بشيء.

فمن حقّ غير المسلمين ـ في حدودهم وأطُرهم ـ أن يمارسوا شعائرهم ويظهروا عقائدهم، ولا تهدم لهم كنيسة ولا بيعة ولا صلوات ولا سائر المعابد، ولا يكسر لهم صليب أو ما يدل على شعاراتهم ومقدّساتهم، ولا يهضم لهم حق، ولا ينتقص من حقوقهم ما داموا ملتزمين بالولاء للدولة الإسلامية، محترمين لعقيدتها، غير متعاونين مع أعداء الدولة على صفة الجواسيس وما أشبه ضدّ المسلمين.

ولذا نشاهد في التاريخ أنَّ الذين دخلوا في الإسلام لم يدخلوا فيه عن سيف وإكراه، وإنَّما كان السيف لأجل تغيير الحاكم الظالم فقط وإنقاذ المظلومين، ولكن الناس دخلوا بأنفسهم في الإسلام رغبة، وذلك لما رأوا فيه من الحسن والواقعية والمنطق والبرهان والتسامح واللاعنف، ثمَّ إنَّ أخذ الجزية من غير المسلمين هو في مقابل أخذ الزكاة من المسلمين وإنَّما الفرق في اللفظ، فالجزية أخذ جزء من مال الكفّار في مقابل الزّكاة التي هي التزكية

---

(١) راجع لسان الميزان لابن حجر: ج٣ ص٣٩٨ .

(٢) سورة الممتحنة: ٨-٩.

والتطهير للنفس والمال.

ثمّ إنَّ الإسلام شرّع للمسلم أن يتزوّج بالكتابيّة كما أحلّ طعامهم، قال سبحانه: "**الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآْخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**"[1].

وقال تعالى: "**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنَا وَإِلهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لـه مُسْلِمُونَ**"[2].

وقال عزّوجلّ: "**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ**"[3].

حيث تدلّ هذه الآيات على غاية الحنان واللطف والعطف بما لا يجد الإنسان مثلها في أيّ دين ومبدأ.

وقد حرّض رسول الله ﷺ على زيارة الكفار وعيادة مرضاهم وتقديم الهدايا لهم ومبادرتهم البيع والشراء وسائر المعاملات، وهكذا عمل المسلمون طول التاريخ الإسلامي مع غير المسلمين، سواء كانوا من أهل الكتاب أم غير أهل الكتاب، وقد ثبت أنَّ النبي ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهوديّ في دَين على الرسول ﷺ لليهودي. كما ثبت أنَّ الرسول ﷺ زار ذلك اليهودي الذي كان يصبّ على رأس الرسول ﷺ الرماد.

وفي حديث صفوان أنَّ النبي ﷺ استعار منه أدرعًا يوم حنين، وقد كان صفوان بمثابة وزير الدفاع للكفّار، ولما أراد الرسول ﷺ أن يذهب إلى حرب حنين طلب منه أن يعيره أربعمائة من الدروع. فقال صفوان: أغصبًا يا محمّد؟! فقال ﷺ: "بل عارية مضمونة"[4]. مع العلم أنَّ النبي ﷺ كان هو المسيطر والغالب وكان يتمكّن أن يأخذ الدروع.

كما أنَّ رسول الله ﷺ كان يقبل الهدايا من الكفّار والمشركين، وقصّة قبوله للشاة المشوية المسمومة من تلك اليهودية مشهورة[5].

ومن جانب آخر ترك رسول الله ﷺ الكفّار ولم يحاسبهم إذا ارتكبوا المحرمات في بيوتهم ولم يتظاهروا

---

(١) سورة المائدة: ٥.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٦.

(٣) سورة سبأ: ٢٤.

(٤) راجع الكافي: ج٥ ص٢٤٠ .

(٥) راجع الأمالي للصدوق: ص٢٢٤ .

بذلك في المجتمع الإسلامي، وذلك لقانون الإلزام، حيث قال ﷺ: "ألزموهم بما ألزموا أنفسهم"[1].

فالحرية التي منحها رسول الله ﷺ للمسلمين منحها أيضًا لغير المسلمين كل في إطاره وموازينه على تفصيل ذكر في التاريخ والتفسير والفقه الإسلامي.

ولذا نشاهد أنَّ الآيات القرآنية على الأغلب تميل إلى خطاب كل طوائف البشر، مثلاً قال سبحانه: **"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُما رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَائَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً"**[2]، وهكذا في آيات أخر وأحاديث عن النبي ﷺ وآله الطاهرين عليهم السلام.

وفي حديث رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: "أيّها الناس، إنَّ ربَّكم واحد وإنَّ أباكم واحد، كلّكم لآدم وآدم من تراب، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلاّ بالتقوى، ألا فليبلغ الشاهد الغائب"[3].

لا للعصبيّات

من الأسس التي سنَّها رسول الله ﷺ هي إبعاد الناس عن العصبيّات القومية واللغوية واللونية والعرقية والجغرافية الخاصّة التي تُسمّى بالملية والوطنية بالمعنى الضّيّق، وكذلك عن سائر العصبيات التي تنافي إنسانية الإنسان، وهذا من أهمّ أسس السّلم والسّلام في المجتمع، وارتفع بالجماعة أن يكونوا مرتبطين بعضهم ببعض أو منفصلين بعضهم عن بعض بهذه الرّوابط الضّيّقة، فالموجود البديع الذي هو أبدع موجودات الله سبحانه وتعالى أرفع وأسمى من أن يكون بعضهم يواصل بعض أو يقاطع بعض في لغة أو لون أو جغرافية أو ما أشبه ذلك ممّا يسبّب مختلف التّنازع والتّدابر والتّهاجر، وممّا يوجب الحقد والشّحناء والبغضاء وظهور العداوات والمخاصمات والتي بالآخرة تنتج انفصام عرى الإنسانية الكاملة وتقويض السّلام وتقضي على روح التّعاون والأخوّة.

قال سبحانه: **"وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ"**[4].

وقال تعالى: **"وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ**

---

(١) تهذيب الأحكام: ج٩ ص٣٢٢.

(٢) سورة النساء: ١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج١ ص١٢٦.

(٤) سورة آل عمران: ١٠١-١٠٢.

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً"[1].

وقال عزوجل: "وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ"[2].

وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُما رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَائَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً"[3].

لذا فالمهم في الإسلام هو الإنسان والعمل الصالح، كما قال سبحانه: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ"[4].

نعم ورد النهي عن اتخاذ الكفّار أولياء وذلك نشراً للفضيلة وردعاً عن المنكرات، حيث يجب في شرع الله سبحانه أن يُتّخذ الأولياء أولياء والأعداء أعداءً، واتخاذ الأعداء أعداءً ليس لذاته، بل لقطع دابر الظالم والظالمين، والمنحرف والمنحرفين، قال سبحانه: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ"[5].

وفي آية أخرى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"[6].

وفي آية ثالثة: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"[7].

وفي آية رابعة: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ"[8].

ومن الواضح أنَّ معاداة الأعداء ـ إلاّ ما خرج بالدليل ـ إنَّما يكون بقدر، فهو كالعملية الجراحية التي لا

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٥.

(٣) سورة النساء: ١.

(٤) سورة آل عمران: ١١٠.

(٥) سورة آل عمران: ١١٨.

(٦) سورة المائدة: ٥١.

(٧) سورة التوبة: ٢٣.

(٨) سورة الممتحنة: ١.

تكون إلا بقدر الضرورة، وإلا فالأصل ما قاله سبحانه: "**لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**"[1].

كما يستثنى من عدم جواز الموالاة، ما كان في صورة التقية والضرورة، فإنه كما في الحديث: "ليس شيء مما حرمه الله إلا وقد أحله لمن اضطرّ إليه"[2].

وقد قال سبحانه: "**لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ**"[3].

وهناك قسم ثالث بين الكافرين والمؤمنين: وهم المنافقون، فالإسلام يعاملهم معاملة حسنة، فمعاداتهم تكون بقدر، لا بقدر الكفار في الابتعاد ولا بقدر المؤمنين في الاقتراب، فقد قال سبحانه: "**بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً. الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لله جَمِيعاً. وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً. الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً. إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً. مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لاَ إِلَى هؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هؤُلاَءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لله عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً**"[4].

ثمَّ إنَّ الإسلام لم يحكم على المنافقين حكمًا قاضيًا، بل تركهم وشأنهم، وفي قصّة مسجد ضرار مع أنَّه وصفهم الله سبحانه وتعالى بأوصاف شديدة، لم يرتب عليهم حكمًا قاضيًا، فلم يُقتلوا ولم يُسجنوا ولم يُغرموا...

وهذا أمر يدل عليه العقل أيضًا، فإنَّه يرى باتخاذ الأهم وترك المهم، قال سبحانه في سورة التوبة: "**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ. أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ**

(١) سورة الممتحنة: ٨.

(٢) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٢٥٨ .

(٣) سورة آل عمران: ٢٨.

(٤) سورة النساء: ١٣٨-١٤٤.

بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"[1].

وأما قوله تعالى: **"يَا أَيّهَا النّبِيّ جَاهِدِ الْكُفّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ"**[2]. فإنَّه لا يراد بذلك جهاد المنافقين كجهاد الكفار بل للمنافقين جهادٌ خاصّ، كما أنَّ للكفار جهادًا خاصًّا، والجامع هو الجهد والاجتهاد.. نعم في الآخرة مصيرهم جهنَّم كما في الآية.

ثمَّ إنَّ الإسلام بما أنَّه لم يكن دين تفرقة وتشتيت، بل دين جمع شمل ووحدة كلمة وسلام وهداية، نشاهد أنَّه يجلل الدِّيانات السماوية والأنبياء جميعًا فقد قال سبحانه: **"قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لـه مُسْلِمُونَ"**[3].

وقال سبحانه: **"آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ"**[4].

وقال تعالى بالنسبة إلى موسى عليه السلام: **"إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ"**[5].

وقال سبحانه عن النبي عيسى عليه السلام: **"وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ"**[6].

وقال سبحانه عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى: **"يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ"**[7].

ولذلك نشاهد أنَّ المسلمين من يومهم الأول لم يحاربوا اليهود ولا النصارى أما بالنسبة إلى النصارى فقد صالحهم النبي صلى الله عليه وآله في قصّة نصارى نجران[8].

---

(١) سورة التوبة: ١٠٧-١١٠.

(٢) سورة التوبة: ٧٣.

(٣) سورة البقرة: ١٣٦.

(٤) سورة البقرة: ٢٨٥.

(٥) سورة المائدة: ٤٤.

(٦) سورة المائدة: ٤٦.

(٧) سورة المائدة: ٦.

(٨) راجع بحار الأنوار: ج٢١ ص٢٧٦.

وأمّا اليهود فقد كتب النبي ﷺ معهم معاهدة احترام وتعامل طيب، والتزم ﷺ بها.. ولكنّهم نقضوا العهد وخانوا المسلمين فحدث بين المسلمين وبين اليهود بعض المناوشات والحروب، وبمجرد أن انتهت أكرمهم الرسول ﷺ أيّ إكرام لم يعرف في التاريخ لا قبله ولا بعده مثله، حيث تزوج رسول الله ﷺ بنت ملكهم صفيّة بعد أن أسلمت بينما كانت أسيرة بيد النبي ﷺ وكان يتمكّن أن يتصرّف فيها تصرّف الغزاة الفاتحين مع الأرقاء المأسورين..

وذات مرّة تعرّضت لها بعض نساء النبي ﷺ بشيء من الكلام الخشن، فسألت منها: من أبوكِ ومن عمكِ؟. ولما عرفت صفيّة أنَّها مغرضة أخذت تبكي، فلمّا جاءها الرسول ﷺ نقلت القصة، فقال لها الرسول ﷺ: "إذا سألوكِ بعد ذلك فقولي: جدّي موسى كليم الله، وعمّي هارون نبي الله، وزوجي محمد رسول الله"[1].

أمّا بعض القضايا الخشنة في التّعامل مع أهل الكتاب، الواردة في بعض التواريخ فإنّها دسّ في التاريخ الإسلامي، والشواهد تدل على أنَّها مدسوسة فإنَّه لم ير العالم دينًا كدين الإسلام في العفو والتسامح واللاعنف. وحتى النصارى واليهود ليس بينهم مثل هذا التسامح الذي جعله الإسلام إليهم، فالعداوة بين اليهود والنصارى شديدة؛ لأنَّ اليهود يدينون بأنَّ بني إسرائيل شعب الله المختار، ويزعمون أنَّ عيسى عليه السلام كاذب والعياذ بالله وأتباعه ضالّون، بل ينسبون إلى عيسى عليه السلام وأمّه الطاهرة عليها السلام بعض الموبقات الكبيرة، كما قال القرآن الحكيم: "**وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً**"[2]، والمسيحيون وإن كانوا يقرّون بنبوّة موسى عليه السلام ونزول التوراة، ولكنّهم ينقمون على اليهود أنَّهم يتّهمون عيسى عليه السلام في نسبه ويجحدون رسالته، كما ينقمون عليهم في قصّة الصّليب، كما ينقمون على المسلمين أيضًا لأنَّ الإسلام في زعمهم دين افتراه رجل عربي. أمّا عداوة اليهود للمسلمين فأشد، ومع كلّ ذلك فالإسلام احترمهم وأكرمهم.

وقد ظهر مما سبق أنَّ نظر اليهود والنصارى أحدهما إلى الآخر، وكذلك نظرهما للمسلمين نظر سوء وافتراء وعداء، أمّا نظر الإسلام إليهما فهو نظر هداية وإرشاد وتسامح وعفو وإصلاح.

قال تعالى: " **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدّينِ قَد تّبَيّنَ الرّشْدُ مِنَ الْغَيّ**"[3].

وقال سبحانه: "**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**"[4].

---

(١) راجع تفسير القمي: ج٢ ص٣٢١.

(٢) سورة النساء: ١٥٦.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٤) سورة العنكبوت: ٤٦.

حقّ الحيوان

لم يُحرم من رحمة رسول الله ﷺ حتى الحيوان، حيث ورد عنه ﷺ التأكيد على حقوق الحيوان وحرمة إيذائه.

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يحب الرّفق ويعين عليه، فإذا ركبتم الدّواب العجف فأنزلوها منازلها، فإن كانت الأرض مجدبة فانجوا عنها، وإن كانت مخصبة فأنزلوها منازلها»(١).

وعن رسول الله ﷺ، قال: "للدابة على صاحبها خصال: يبدأ بعلفها إذا نزل، ويعرض عليها الماء إذا مرّ به، ولا يضرب وجهها فإنَّها تُسبّح بحمد ربها، ولا يقف على ظهرها إلّا في سبيل الله عزوجل، ولا يحملها فوق طاقتها، ولا يكلّفها من المشي إلّا ما تطيق"(٢).

وعن النبي ﷺ أنَّه أبصر ناقة معقولة وعليها جهازها، فقال ﷺ: "أين صاحبها؟، مروه فليستعد غدًا للخصومة"(٣).

وقال ﷺ: "لا تتوركوا على الدّواب، ولا تتخذوا ظهورها مجالس"(٤).

وقال ﷺ: "لا تسبّوا الديك؛ فإنَّه يوقظ للصلاة"(٥).

وقال ﷺ «لا تسبّوا الديك فإنَّه صديقي وأنا صديقه وعدوّه عدوّي، والذي بعثني بالحق لو يعلم بنو آدم ما في قترته لاشتروا ريشه ولحمه بالذهب والفضة وأنّه يطرد مذمومة من الجن"(٦).

وقال ﷺ: "لا تسبّوا الدّيك؛ فإنَّه يدل على مواقيت الصلاة"(٧).

وقال ﷺ: "دخلت امرأة النار في هرّة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض"(٨).

وقال ﷺ: «أكثروا من الدّواجن في بيوتكم تتشاغل بها الشياطين عن صبيانكم» (٩).

وقال ﷺ: «الإبل عزّ لأهلها» (١٠).

وعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ لعمّته: ما يمنعك من أن تتخذي في بيتك بركة!،

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٢٠ .

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج٢ ص٢٨٦.

(٣) بحار الأنوار: ج٦١ ص٢٠٣.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ج٢ ص٢٨٧ .

(٥) بحار الأنوار: ج٦٢ ص٩ .

(٦) مكارم الأخلاق: ص١٣٠.

(٧) مكارم الأخلاق: ص١٣٠.

(٨) مستدرك الوسائل: ج٨ ص٣٠٣ .

(٩) المصدر نفسه: ج٨ ص٢٨٥ .

(١٠) المحاسن: ج٢ ص٦٣٥ .

قالت: يا رسول الله ما البركة؟ فقال: شاة تحلب، فإنَّه من كانت في داره شاة تحلب أو نعجة أو بقرة فبركات كلهنّ»[1].

النبي ﷺ خير البشر

كان رسول الله ﷺ خير البشر، بل خير الكائنات بأجمعها، ولِنوره ونور عترته الطاهرة عليهم السلام خلق الله عز وجل الكون والكائنات.

عن سماعة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: هل صام أحد من آبائك شعبان؟.

قال: "خير آبائي رسول الله ﷺ صامه"[2].

وعن ابن عباس، قال: أتاه رجل يسأله عن الصيام؟. فقال: إن كنت تريد صوم داود عليه السلام فإنَّه كان من أعبد الناس ـ إلى أن قال ـ وقال رسول الله ﷺ: "إنَّ أفضل الصيام صيام أخي داود عليه السلام"، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وإن كنت تريد صيام سليمان عليه السلام فإنَّه كان يصوم من أوّل الشهر ثلاثة ومن وسط الشهر ثلاثة ومن آخره ثلاثة، وإن كنت تريد صوم عيسى عليه السلام فإنَّه كان يصوم الدّهر كله لا يفطر منه شيئًا وإن كنت تريد صوم مريم عليها السلام فإنَّها كانت تصوم يومين وتفطر يوماً، وإن كنت تريد صوم خير البشر العربي القرشي أبي القاسم ﷺ فإنَّه كان يصوم ثلاثة أيام من كلّ شهر ويقول: "هي صيام الدهر"[3].

وجاء في تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ثم قال الله عزّوجل: "وإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ والْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"[4] قال الإمام عليه السلام: "واذكروا إذ آتينا موسى الكتاب وهو التوراة الذي أخذ على بني إسرائيل الإيمان به والانقياد لما يوجبه، والفرقان آتيناه أيضًا فرق به ما بين الحق والباطل، وفرق ما بين المحقين والمبطلين، وذلك أنَّه لمّا أكرمهم الله تعالى بالكتاب والإيمان به والانقياد له، أوحى الله بعد ذلك إلى موسى عليه السلام: يا موسى، هذا الكتاب قد أقروا به، وقد بقي الفرقان فرق ما بين المؤمنين والكافرين والمحقين والمبطلين، فجدد عليهم العهد به فإنِّي قد آليت على نفسي قسمًا حقًّا لا أتقبّل من أحد إيماناً ولا عملاً إلا مع الإيمان به.

قال موسى عليه السلام: ما هو يا رب؟.

قال الله عزوجل: يا موسى، تأخذ على بني إسرائيل أنَّ محمّدًا خير البشر وسيّد المرسلين، وأنّ أخاه ووصيه علياً خير الوصيين، وأنَّ أولياءه الذين يقيمهم سادة الخلق، وأن شيعته المنقادين له المسلّمين له ولأوامره

---

(١) الكافي: ج٦ ص٥٤٥ .

(٢) المصدر نفسه: ج٤ ص٩٠.

(٣) وسائل الشيعة: ج١٠ ص٤٣٩.

(٤) سورة البقرة: ٥٣.

ونواهيه ولخلفائه نجوم الفردوس الأعلى وملوك جنّات عدن"[1].

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص٢٥٢-٢٥٣ .

الإمام المهدي عليه السلام في مرويات الإمام الصَّادق عليه السلام

الشيخ حيدر حسن

كان الإمام الصادق عليه السلام يحدِّث الناس ويثيرهم حول قضايا متعلّقة بالإمام المهدي عليه السلام وحول غيبته، وما تتعرض من شبهات، ثمَّ يجيبها، وفق ما بيّنها القرآن الكريم.

ويمكن لنا أن نختار بعض الشبهات التي أجاب عنها عليه السلام:

أوّلاً- شبهة طول العمر: من المسائل الجدلية التي تُسجّل حضورًا قويًّا في الساحة العلمية للنقاش على مستوى الباحثين والمفكّرين بشأن الإمام المهدي عليه السلام هو ما يُطرح من وجود شخص مخلّص ولد قبل ألف ومئة سنة تقريبًا، ولا يزال حيًّا إلى الآن، وسيبقى حيًّا إلى أن يظهر ويخرج فيحقّق العدل والسلام في الأرض بإقامة الدَّولة الإلهية الكاملة العادلة.

فمن الناحية العملية قد يتعسّر على المنكرين لمسألة طول عمر الإمام المهدي -عجل الله تعالى فرجه الشريف- تصوّر إمكانية العيش لفترة زمنية طويلة.

على الرغم من وجود مثالين واضحين في القرآن الكريم عن وجود حالات كهذه عاشت في العصور السالفة؛ أحدهما امتداد عمر النبي نوح على نبيّنا وآله وعليه السلام لفترة زمنية طويلة، والآخر لا نزال نعيشه نحن الآن وهو طول عمر النبي عيسى على نبيّنا وآله وعليه السلام الذي يعتقد جميع المسلمين أنَّه حيّ، وإنْ كانت حياته ليست على وجه الأرض كما هو حال الإمام المهدي -عجل الله تعالى فرجه الشريف - وأنّه سيهبط إلى الأرض كما يقول القرآن، وبالتزامن مع ظهور الإمام الثاني عشر عليه السلام كما جاء في الروايات المستفيضة والمتواترة.

فقضيّة طول عمر الإمام الحجة بن الحسن العسكري عليه السلام هذه يمكن الإقرار بها ببساطة، في حال الإذعان إلى حقيقة كون الإمام المهدي -عجل الله تعالى فرجه الشريف- هو وصيّ من أوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله وهو خليفة الله في أرضه وإنَّ الله -تعالى- ادّخره لأمر اقتضت المصلحة أن يكون غائبًا حتى يأذن في خروجه.

والدليل الذي سنذكره وإنْ كان لا يتعلّق بالإمام المهدي -عجل الله تعالى فرجه الشريف- بالخصوص

ولكنّه سوف يدعم طول عمر الإمام المهدي -عجل الله تعالى فرجه الشريف-، وبذا يتبدّد أيّ شكّ يتسرّب إلى ذهن أحد عن إنكار طول عمر الإمام الثاني عشر-عجل الله تعالى فرجه الشريف- حتى وإنْ لم نأخذ بنظر الاعتبار أنّه وصيّ وطول عمره أمر طبيعيّ كونه يتعلّق بإرادة إلهية.

والدليل القرآنيّ قوله تعالى: (**كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ**)[1].

ففي هذه الآية يؤكّد القرآن الكريم أنَّ المخلوقات من غير الجماد سواء كانت من البشر أم من غير البشر مهما طال عمرها سوف تموت بالنّهاية.

ومقابل هذا التأكيد على النهاية الحتمية للإنسان عند نقطة زمنيّة معينة، فإنَّ القرآن ترك الإشارة إلى تحديد الحد الأقصى لعمر الإنسان بزمنٍ معيّن ليجعل النّهاية مفتوحة إلى لحظة الموت المحدّدة في علم الله تعالى.

فالقرآن الكريم نظر إلى النهاية المحتومة فقط، غير أنَّ هذا السّير إلى هذه النّهاية قد يطول أو يقصر، بحسب الإرادة الإلهية لكن ليس بشكلٍ لا نهائيّ.

وإنَّ قوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) يشمل الجميع؛ سواء كان الإمام المعصوم ﷺ أو من دونه من البشر.

فإذا طال عمر الإنسان أكثر من المألوف فلا يكون ذلك غريبًا على الإطلاق حتى وإنْ كان ذلك مستغربًا من الناحية الطّبيّة كون الخلايا المخلوقة في جسد الإنسان تستهلك شيئًا فشيئًا بسبب العوامل الخارجية بالإضافة إلى التقدم في العمر، وقد تضعف قوّة الخلايا في الإنسان، فيؤدّي هذا الضعف إلى بعض الحالات الخاصّة وبالنتيجة يتوقّف عمر الإنسان ويموت بموت الخلايا المهمّة والحيّة في جسده.

وهذا الدليل ليس القصد منه إفحام المخالف لفكرة طول عمر الإمام المهدي -عجل الله تعالى فرجه الشريف- عبر توصيل فكرة بديهية غير قابلة للجدل من أجل ردعه؛ بل هو دليل واضح قد يضع حدًّا للجدل بخصوص طول عمر الإمام -عجل الله تعالى فرجه الشريف-.

إنَّ هذه الآية بل كلّ آية تتضمّن معنى النّهاية تصلح في حقيقة الأمر كدليل على المطلوب وهو طول عمر الإمام الحجة المنتظر -عجل الله تعالى فرجه الشريف-؛ والسَّبب هو فقدان أيّ إشارة قرآنيّة مضادّة تضع الحدود الزَّمنيّة للوصول إلى هذه النهاية وهو (طول عمر الإنسان).

وهناك ثلاثة أنواع متصورة للإمكان:

الأوّل: ما يصطلح عليه بالإمكان العملي، ويُراد به ما هو ممكن فعلاً وواقعًا. أي له تحقّق ووجود ظاهر

---

(١) العنكبوت:٥٧

ومتعيّن.

الثّاني: ما يصطلح عليه بالإمكان العلمي، ويُراد به ما هو غير ممتنعٍ من الناحية العلمية الصِّرفة، أي أنَّ العلم لا يمنع وقوعه وتحقّقه ووجوده فعلاً.

الثّالث: ما يصطلح عليه بالإمكان المنطقي، ويُراد به ما ليس مستحيلاً عقلاً، أي أنَّ العقل لا يمنع وقوعه وتحقّقه.

وقضيّة امتداد العمر فوق الحدِّ الطّبيعيّ أضعافاً مضاعفةً ليست في دائرة المستحيل، كما هو واضح بأدنى تأمّل. نعم هو ليس مألوفاً ومشاهداً، ولكن هناك حالات، نقلها أهل التّواريخ، وتناقلتها بعض النشرات العلميّة، تجعل الإنسان لا يستغرب ولا ينكر، على أنَّ الغرابة ترتفع تمامًا عندما يقرع سمعَ المسلم صوتُ الوحي ومنطوق القرآن في النبي نوح ﷺ **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا)**[1]

القرآن قد أخبر: أنَّ نوحًا ﷺ لبثَ في قومه ألف سنةٍ إلّا خمسين عامًا، وهذا غير عمره قبل النّبوّة! وأنَّ عيسى ﷺ لم يمت وإنَّما رفعه الله إليه كما في قوله تعالى: **(وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)**[2] .

فإذا كان نبيُّ الله نوح تستوجب ظروفه أن يحيا هذا العمر كلّه، أفلا يستحقُّ تحقيق الوعد الإلهيّ بالنصر النهائيِّ، وتحقيق العدالة على الأرض، وغلبة جند الله، ورفعة دينه... كلّ ذلك ألا يستوجب المدَّ في عمر صاحب الزمان ليحقِّق هذا المشروع العظيم على يديه؟!

ومن المعروف أنَّ الخضر ﷺ من المعمِّرين، وأنَّ عمره تطاول لآلاف السنين، وفي رواية عن الإمام عليّ بن موسى الرضا ﷺ قال: «إنَّ الخضر ﷺ شرب من ماء الحياة فهو حيٌّ لا يموت حتَّى ينفخ في الصُّور، وإنَّه ليأتينا فَيُسَلِّمْ علينا، فَيُسْمَعُ صوته ولا يُرى شخصُه، وإنَّه ليحضر حيث ما ذكر، فمن ذكره منكم فليُسَلِّمْ عليه، وإنَّه ليحضر الموسم كلّ سنة، فيقضي جميع المناسك ويقف بعرفة، فيُؤَمِّن على دعاء المؤمنين وسيؤنس الله به وحشة قائمنا في غيبته ويصل به وحدته»[3].

فالخضر ﷺ لا يزال حيًّا حتَّى الآن وبالتالي فعمره حتَّى الآن أضعاف عمر الإمام المهديِّ -عجل الله فرجه الشريف-. وسيبقى حيًّا حتَّى ينفخ في الصُّور. وتنقل لنا النصوص الشرعيَّة أحداثًا حصلت مع الخضر ﷺ

---

(١) العنكبوت: ٢٩ / ١٤.

(٢) النساء: ٤ / ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٣) الميرزا محمَّد تقي الأصفهاني، مكيال المكارم، ج ١، ص ١٧١.

خلال هذه السنين المتطاولة، كالقصّة التي ينقلها القرآن الكريم عند لقائه لنبيِّ الله موسى ﷺ، ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[1]، وكذلك ورد في الرواية عن أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا ﷺ: «لَمَّا قبض رسول الله ﷺ جاء الخضر ﷺ فوقف على باب البيت وفيه عليّ وفاطمة والحسن والحسين ﷺ ورسول الله ﷺ قد سُجِي بثوبه فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمَّد ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2]، إنَّ في الله خلفًا من كلِّ هالك، وعزاءً من كلِّ مصيبة، ودركًا من كلِّ فائت، فتوكَّلوا عليه، وثقوا به، وأستغفر الله لي ولكم. فقال أمير المؤمنين ﷺ: هذا أخي الخضر ﷺ جاء يعزِّيكم بنبيِّكم ﷺ»[3].

وتشير الروايات إلى وجود الارتباط الوثيق بين طول عمر الخضر ﷺ وعمر الإمام المهديِّ -عجل الله فرجه الشريف-، فعن الإمام جعفر بن محمَّد الصادق ﷺ أنَّه قال:

«وأمَّا العبد الصالح الخضر، فإنَّ الله تبارك وتعالى ما طوَّل عمره لنبوَّة قدَّرها له، ولا لكتاب ينزله عليه، ولا لشريعة ينسخ بها شريعة من كان قبله من الأنبياء، ولا لإمامة يلزم عباده الاقتداء بها، ولا لطاعة يفرضها له، بلى، إنَّ الله تبارك وتعالى لمَّا كان في سابق علمه أن يقدِّر من عمر القائم ما يقدِّر من عمر الخضر وما قدَّر في أيّام غيبته ما قدَّر وعلم ما يكون من إنكار عباده بمقدار ذلك العمر في الطول، طوَّل عمر العبد الصالح من غير سبب يوجب ذلك إلا لعلَّة الاستدلال به على عمر القائم -عجل الله فرجه الشريف-، وليقطع بذلك حجَّة المعاندين لئلَّا يكون للناس على الله حجَّة»[4].

وقد ركّز الإمام الصادق ﷺ على هذا الدليل القرآني وأشار إليه ببيانات متقاربة في أكثر من رواية:

١ ـ إنَّ في الإمام المهدي ﷺ: « سنة من نوح وهو طول عمره »[5] ـ

وقوله ﷺ: « والله لو بقي في غيبته ما بقي نوح في قومه لم يخرج من الدنيا حتى يظهر، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلمًا وجورًا »[6].

٣ ـ وقوله ﷺ: « .. يمدّ الله لصاحب هذا الأمر كما مدّ لنوح ﷺ في العمر»[7].

---

(١) الكهف: ٦٥-٦٦

(٢) آل عمران: ١٨٥

(٣) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ص ٣٩١

(٤) الميرزا محمَّد تقي الأصفهاني، مكيال المكارم، ج ١، ص ١٧١

(٥) الخرائج والجرائح ٢: ٩٣٦ باب ١.

(٦) إكمال الدين ٢: ٣٤٢/ ٢٣ باب ٣٣.

(٧) كتاب الغيبة / الشيخ الطوسي: ٤٢١ / ٤٠٠.

٥ ـ وقوله ﷺ: « وما ينكرون لصاحب هذا الأمر؟ فإنَّ لصاحب الزمان شبهًا من موسى ورجوعه من غيبته بشرخ الشباب»[١] .

٦ ـ وقوله ﷺ: « لو قد قام قائمنا لأنكره الناس ـ يعني: معظمهم ـ لأنه يرجع إليهم شاباً، موفّقاً لا يثبت عليه إلاّ من قد أخذ الله ميثاقه في الذرِّ الأوّل »[٢].

لأنَّهم يحسبون أنَّه ﷺ لو بقي حيّاً في تلك الفترة الطويلة لكان شيخًا هرمًا كبيرًا، ويؤيّد هذا.

وقد نبّه الإمام الصادق ﷺ على هذه الشبهة، وأكّد حياة الإمام المهدي واستمرار وجوده الشريف، بقوله: « .. وينزل روح الله عيسى ابن مريم فيصلّي خلفه.. وذلك بعد غيبة طويلة »[٣] .

وهذا يتضمّن استمرار وجوده الشريف في غيبته وإلّا كيف يصلّي عيسى ﷺ خلفه؟

وقوله ﷺ: في الصّحيح لحازم بن حبيب: « يا حازم إنَّ لصاحب هذا الأمر غيبتين يظهر في الثانية، فمن جاءك يقول أنَّه نفض يده من تراب قبره فلا تصدّقه »[٤]، وفي هذا تأكيد على استمرار وجوده الشريف في غيبته مهما طال بها الزّمان.

وغيرها من الأحاديث التي سبقت في تأكيده ﷺ على أنَّ للمهدي ﷺ غيبتين.

كما أنَّ الأحاديث المتقدّمة في طول العمر كلّها تصبّ في الجواب على هذه الشبهة أيضاً.

ثانيًا ـ شبهة سيولد بعد ذلك:

إنَّ وجود هذا الكم الهائل من الرّوايات عندهم، مع عدم تعرّضها إلى لفظة: (سيولد)، وإنَّما عبَّرت (يظهر) في آخر الزمان، ومن الواضح أنَّ الظهور صفة يسبقها الخفاء، فمن هنا جاء التَّأكيد على كلمة (الظهور) في كلام المعصومين ﷺ للتدليل على أنَّ من صفات الموعود هو الغيبة بدلالة (الظهور) في تعابيرهم.

وتهدف هذه الشبهة إلى عد العامّة في البقاء على الاعتقاد بمهدي مجهول يخلقه الله في آخر الزمان.

إنَّ الاعتقاد بمهديٍّ لم يُخْلَق بعد! إما أن يكون هو إمام الزمان، أو لا يكون، والأوّل لا يعقل لخلو زماننا منه؛ إذ لم يُخْلَق، والثاني لا يفيد طاعته ولا نصرته ولا انتظاره.

إنَّ شرط الإيمان بالمهدي ﷺ أن يكون في حياته لا بعد ظهوره كما سيأتي.

ومع فرض كون المهدي هو المجهول جدلاً، فسيكون الإيمان به فاقدًا للشرط المذكور، وهو الحياة؛ لأنَّه معدوم لم يخلق بعد.

---

(١) منتخب الأنوار المضيئة: ١٨٨ فصل ١٢.

(٢) كتاب الغيبة / النعماني: ١٨٨ / ٤٣ باب ١٠، و: ٢١١ / ٢٠ باب ١٢.

(٣) مختصر اثبات الرجعة / الفضل بن شاذان: ٢١٦ ـ ٢١ / ١٨.

(٤) كتاب الغيبة / الشيخ الطوسي: ٥٤ / ٤٦.

ومع القول بأنَّه الحجة ابن الحسن العسكري ﷺ وهو الحق، فسوف لن يقبل من جاحديه اعتقادهم بخرافة لا أصل لها ولا واقع، كما لن يقبل منهم توبتهم عند ظهوره لو أدركوه ﷺ.

ويدلُّ على ما ذكرناه:

١ ـ قول الصادق ﷺ: « قال رسول الله ﷺ: طوبى لمن أدرك قائم أهل بيتي وهو معتقد به في حياته، يتولّى وليّه، ويتبرّأ من عدوّه، ويتولّ الأئمّة الهادية من قبله، أولئك رفقائي، وذوو ودّي وأكرم أُمّتي عليّ ـ وفي رواية أُخرى ـ وأكرم خلق الله عليَّ »[١].

٢ ـ وفي حديث آخر عنه ﷺ عن رسول الله ﷺ: « من أنكر القائم من ولدي في زمان غيبته، مات ميتة جاهلية»[٢].

٣ ـ وعن هشام بن سالم، عن الإمام الصادق ﷺ، وعن آبائه: عن رسول الله ﷺ في حديث في شمائل وأوصاف وسيرة المهدي ﷺ جاء فيه: « ومن أنكره في غيبته فقد أنكرني»[٣].

٤ ـ وفي الصحيح عن علي بن رئاب، عن الإمام الصادق ﷺ في قول الله –عزّوجلّ–: (**يوم يأتي بعضُ آيات ربّكَ لا ينفعُ نفسًا إيمانُها لم تكنْ آمنت من قبلُ**)[٤]، قال ﷺ: « والآيات: هم الأئمة، والآية المنتظرة: القائم ﷺ، فيومئذٍ لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل قيامه بالسيف وإن آمنت بمن تقدم من آبائه »[٥].

وإذا ما أُضيف إلى هذا أحاديث الانتظار الواردة عن الإمام الصادق ﷺ من قبيل قوله: « .. المنتظرين لظهوره في غيبته والمطيعين له في ظهوره أولئك أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» وغيره من الأحاديث المتقدِّمة، علمنا من أصحاب هذه المقولة ـ وهم لم يضمنوا بقاءهم على قيد الحياة إلى زمان الظهور ـ لم يحصدوا سوى الخسران المبين.

ثالثًا ـ شبهة أنَّه سيأتي بدينٍ جديد:

وردت في أحاديث المهدي ﷺ عند الإمامية ما هو صريح بسيرته ﷺ عند ظهوره، وأنَّه يأتي بعملٍ جديد. وقد زعم بعضهم أنَّ معنى هذا من مهديّ الشيعة سينسخ بسيرته الدين المحمّدي!

وهذه ليست شبهة في الواقع وإنَّما كلام فارغ هدفه التّشنيع لا أكثر، ومهما يكن الهدف فقد أجاب الإمام الصادق على هذا الافتراء:

١ ـ عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله ﷺ، عن آبائه: عن رسول الله ﷺ قال: « القائم من ولدي

---

(١) إكمال الدين ١: ٢٨٦ / ٣ ب ٢٥؛ وكتاب الغيبة / الشيخ الطوسي: ٤٥٦ / ٤٦٦.

(٢) المصدر نفسه ٢: ٤١٢ ـ ٤١٣ / .

(٣) المصدر نفسه ٢: ٤١١ / ٦ .

(٤) سورة الأنعام: ٦ / ١٥٨.

(٥) إكمال الدين: ١٨، و ٣٠ .

اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، وشمائله شمائلي، وسنّته سنّتي، يقيم الناس على ملّتي وشريعتي ويدعوهم إلى كتاب ربي عزّوجلّ .. »[1] .

٢ ـ وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « إنَّ في صاحب هذا الأمر سننًا من الأنبياء: سنّة من موسى، وسنّة من عيسى، وسنّة من يوسف، وسنّة من محمد صلوات الله عليهم ـ إلى أن قال ـ وأما سنّة من محمد صلى الله عليه وآله فيهتدي بهداه ويسير بسيرته » .

والإطالة في هذا إطالة في الواضحات.

رابعًا ـ شبهات حول الغيبة:

لماذا الغيبة؟

وما هو وجه الحكمة فيها؟

وكيف يتحقّق انتفاع الأمّة من الإمام المهدي الغائب وهي لا يمكنها أن تصل إليه؟

وأصل كلّ هذا مبنيّ على أنَّ الغاية من نصب الإمام لا تتحقّق إلّا بمشاهدته لأخذ معالم الدّين عنه!

وقد خفي على هؤلاء بأنَّ الثَّمرة من وجود الإمام لا حصر لها بأخذ المسائل عنه، وإنَّما هناك ثمرات أُخر تترتّب على وجوده الشَّريف.

ويمكن إدراكها من خلال علمنا بأنَّ هناك جملة من الأمور المطلوبة منّا شرعًا لذاتها إزاء الإمام المهدي عليه السلام، بغضّ النَّظر عن إمكانية الوصول إليه أو عدمه، ومنها على سبيل المثال:

السَّعي الدّؤوب وراء معرفة هويّته الشّخصية، وإلّا فلن يتحقّق ركن الإيمان بالاعتقاد بأنَّه إمام الزمان الذي من لا يعرفه سوف لن يغادر الدنيا إلّا بميتة جاهلية، كما نطقت بذلك أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله عند الفريقين، وأكدها الإمام الصادق عليه السلام بأحاديث شتّى كما مرّ.

التصديق بوجود الإمام المهدي عليه السلام نفسه أمر مطلوب لذاته بغضّ النظر عن مشاهدته أو لا.

لا فرق بين هذا وبين وجوب التصديق بوجود النبي صلى الله عليه وآله بالنسبة للمسلمين الذين عاشوا في عصره صلى الله عليه وآله ولم يلتقوا به ولم يشاهدوه.

ومن ثَمَّ ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت: ما يشير إلى عدم انحصار الفائدة من وجود الإمام بالتّصرّف في الأمور، وفيما يأتي جملة من الأحاديث الشّريفة الدّالّة على ذلك:

١ ـ عن أبي ذر الغفاري -رضوان الله عليه-، قال: « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنَّما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق، ومثل باب حطّة يحطّ الله بها الخطايا »[2].

وهذا صريح بأنَّ الدخول بولاية أهل البيت، والتمسّك بحبلهم قد جعله الله طريقًا لرضوانه ومغفرته،

---

(١) إكمال الدين ٢: ٤١١ / ٦ .

(٢) أمالي الشيخ الطوسي: ٣٣ / ١٥٣٢ (٢) .

وهذا أمر عظيم أعمّ من نفع مشاهدتهم والسّؤال مباشرة منهم.

٢ ـ وعن جابر بن عبد الله، وأبي موسى الأشعري، وابن عبّاس، قالوا: « قال رسول الله ﷺ: النّجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأُمّتي، فإذا ذهبت النّجوم ذهبت أهل السماء، وإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض »[١].

٣ ـ وعن أياس بن سلمة، عن أبيه، قال: « قال رسول الله ﷺ: النّجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأُمّتي »[٢].

٤ ـ وعن سليمان بن مهران الأعمش، عن الإمام الصادق، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، قال: « نحن أئمة المسلمين وحجج الله على العالمين، وسادة المؤمنين، وقادة الغرّ المحجّلين، وموالي المؤمنين، ونحن أمان أهل الأرض كما أنّ النّجوم أمان لأهل السماء، ونحن الذين بنا يمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه، وبنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا يُنزِل الغيث، وبنا ينشُر الرحمة، ويخرج بركات الأرض، ولولا ما في الأرض منّا لساخت بأهلها، ولم تخلُ الأرض منذ خَلَق الله أدمَ من حُجّة لله فيها، ظاهر مشهور أو غائب مستور، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجّة الله فيها، ولولا ذلك لم يُعْبَد الله.

قال سليمان: فقلت للصادق ﷺ: فكيف ينتفع الناس بالحجّة الغائب المستور؟

قال ﷺ: كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السَّحَاب »[٣].

٥ ـ وعن الإمام الباقر ﷺ قال: « ... ونحن الذين بِنا تُنَزَّل الرحمة، وبِنا تُسْقَون الغيث، ونحن الذين بِنا يصرف الله عزّوجلّ عنكم العذاب، فمن أبصرنا، وعرف حقّنا، وأخذ بأمرنا فهو مِنَّا وإلينا »[٤].

٦ ـ وقال الإمام الصادق ﷺ: « ... كان أمير المؤمنين ﷺ صلوات الله عليه باب الله الذي لا يؤتى إلّا منه، وسبيله الذي من سلك بغيره هلك، وبذلك جرت الأئمة: واحدًا بعد واحد، جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بهم، والحجّة البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثّرى »[٥].

وكل هذا يدلُّ بما لا يقبل الشّكّ على أنَّ نفس وجودهم: تترتّب عليه فوائد أعظم من فائدة مشاهدتهم والوصول إليهم؛ لمن في هذا الوجود ضمان لبقاء العالم «فإذا ذهب أهل بيتي، ذهب أهل الأرض».

(١) أمالي الشيخ الطوسي: ٣٩ / ٨١٢ (٦٣).

(٢) المصدر نفسه: ٢٥٩ / ٤٠ (٨) مجلس رقم / ١٠، والمعجم الكبير / الطبراني: ٢٢ / ٦٢٢٠.

(٣) أمالي الشيخ الصدوق: ٢٥٢ ـ ٢٥٣ / ٢ (١٥) مجلس رقم / ٣٤، وإكمال الدين ١: ٢٠ / ٢٢ باب ٢١، وراجع ما تقدم في بيان الإمام الصادق ﷺ لكيفية الانتفاع بالحجة الغائب: ص ١٠٢.

(٤) أمالي الشيخ الطوسي: ٦٥٤ / ١٣٥٤ (٤).

(٥) أُصول الكافي ١: ١٩، وأمالي الشيخ الطوسي: ٢٠٥ ـ ٢٠٦ / ٣٥٢ (٢). وإكمال الدين ١: ٢٠٥ ـ ٢٠٦ / ٢٠، وبصائر الدرجات: ٨٢ ـ ٨٣ / ١٠، وفرائد السمطين/ الجويني الشافعي ٢: ٢٥٣ ـ ٢٥٤ / ٥٢٣ .

ويؤكّد هذا المعنى قول الإمام الصادق عليه السلام: «لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت»[1]، وغيره من الأحاديث الأخر التي تقدَّمت في القاعدة الرّابعة من قواعد الفصل الأوّل من الباب الأوّل.

ولهذا قرّب الإمام الصادق عليه السلام صورة الانتفاع بالإمام الغائب عليه السلام بمثال الشمس وهو مثال محسوس لا ينكر صحّته أحد، وقد مرّ في حديث الأعمش، عنه عليه السلام.

هذا زيادة على وجود منافع أُخر مترتبة على وجود الإمام عليه السلام لها ارتباط مباشر بحياة الناس جميعًا، كعدم المؤاخذة بالعقاب العاجل، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة مبيّنًا أهمّيّة الحجّة وهي في زمان نزول القرآن منحصرة برسول الله صلى الله عليه وآله، وبعده بأهل بيته، قال تعالى: (وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون)[2]، فجعل سبحانه وجود النبي صلى الله عليه وآله سببًا في تأجيل عقاب المستحقّين للعقوبة، فكذلك الحال في وجود الإمام المهدي عليه السلام.

اكتسبت غيبة الإمام المهدي عليه السلام أهمّيّة خاصّة بوصفها واحدة من أُمّهات المسائل الكبرى في تاريخ الفكر الشيعي؛ لارتباطها العضوي بعقيدة النصّ والتعيين من جهة، واتّصالها الوثيق بحياتنا المعاصرة من جهة أُخرى، فضلاً عمّا تركته من مسائل تعبّديّة محضة تقوم على أساس فكرة الانتظار، مما انعكس هذا بطبيعته على سلوك المنتظر وتصرّفه، واطّراد هذا على مجمل علاقاته بالفرد والمجتمع والدولة.

ومن هنا قام الإمام الصادق عليه السلام بمسؤوليّته ـ كإمام مفترض الطاعة ـ خير قيام، فبيّن، ودفع مضنّة الاختلاف في الإجمال في دلالته على شخص، معيّن، فثبّت أوّلاً أصل القضيّة المهدية، ثم بيّن حكم من أنكر هذا الأصل، وأكَّد وقوع الغيبة بالإمام الثاني عشر من أهل البيت عليهم السلام، وأمر بعدم إنكارها، ونهى عن الانحراف في زمانها، ولزوم التصديق بها، ووجوب الثبات على الولاية في زمن الغيب.

---

(١) كتاب الغيبة / الشيخ الطوسي: ٢٢٠ / ١٨٢.

(٢) سورة الأنفال: ٨ / ٣٣.

شهر ربيع الثاني

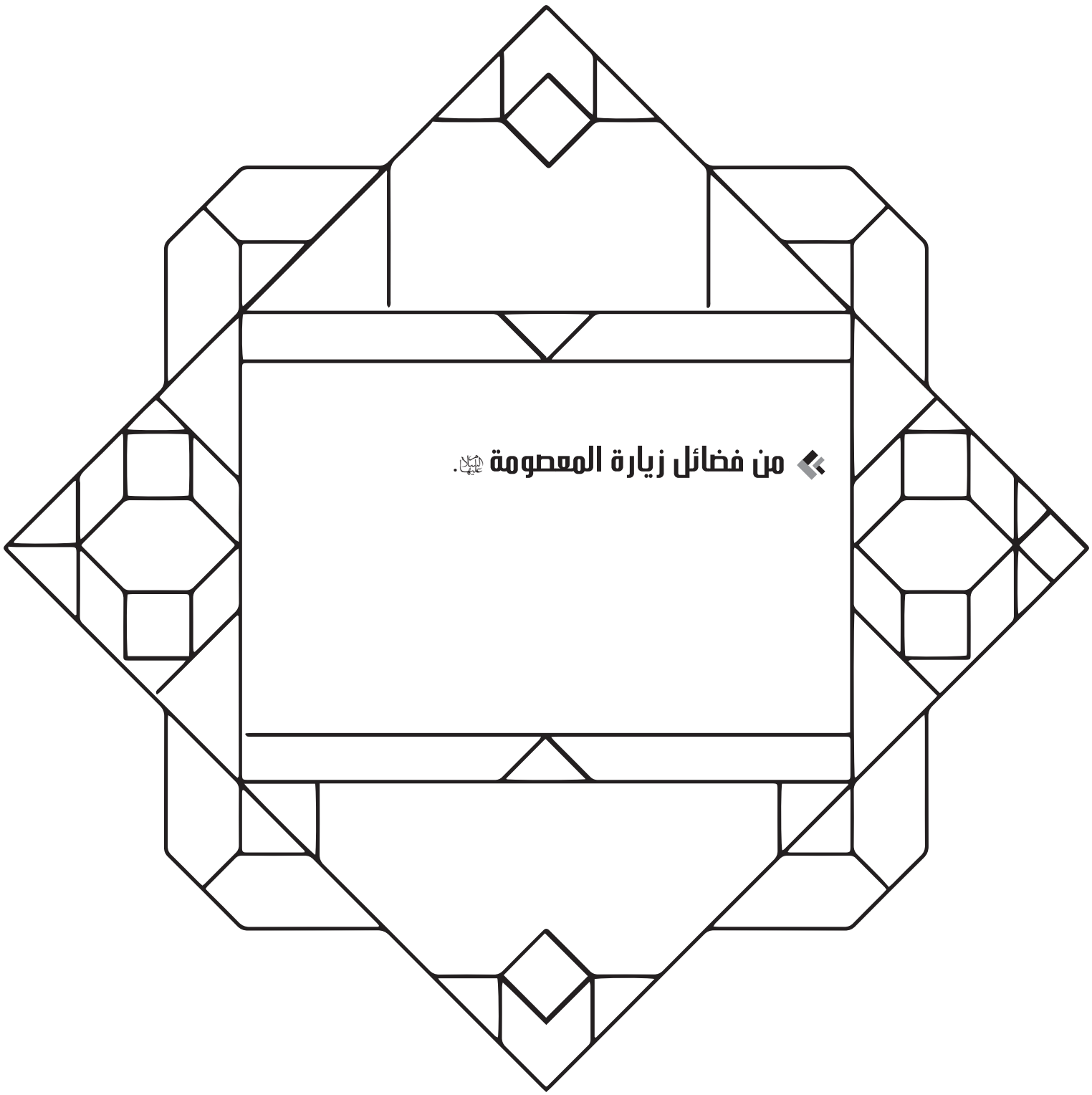
من فضائل زيارة المعصومة عليها السلام.

من فضائل زيارة المعصومة عليها السلام

الشيخ محمد المعلم

قال الله (تعالى): (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)[1] .

إنَّ أهم ما يميز الشيعة الإمامية عن سواهم ولاؤهم لأهل البيت عليهم السلام وصدقهم فيه، وحفظهم المودة ورعايتهم للود، ذلك؛ لأنَّهم علموا وتيقّنوا أنَّ طريق النّجاة والخلاص منحصر في اتباعهم واقتفاء خطاهم، والسير على هديهم وهداهم، وربطوا مصيرهم بأئمّتهم عليهم السلام، لا يحيدون عن ذلك ولا يبغون عنه بدلاً.

وقد قامت الأدلّة عندهم من العقل والنّقل على انحصار الهداية فيهم وبهم دون سواهم، في العقيدة والفقه والأخلاق، وقد تكفّلت كتبهم الكلامية[2] ببيان ذلك والدلالة عليه، فأهل البيت عليهم السلام وهم الأئمة المعصومون عليهم السلام هم ذوو القربى الذين أمر الله(تعالى) بمودّتهم وطاعتهم، وهم الأمناء على دين الله وشريعة نبيه صلى الله عليه وآله، وهم حملة القرآن، وورثة علم الرسول صلى الله عليه وآله.

أضف إلى ذلك ما تجلّى من سيرتهم عليهم السلام التي كانت مثالاً لسيرة جدّهم رسول الله صلى الله عليه وآله، فكانوا بذلك مهوى الأفئدة وملتقى القلوب، فإنَّهم القادة إلى الصّراط المستقيم.

غير أنَّ الأمّة -ويا للأسف - تنكرت لهم وتنكبت طريقهم، فما عرفت لهم فضلاً، ولا رعت لهم حقًّا، وعاشوا غرباء، ورحلوا غرباء، وهكذا شأن الأولياء والصّدّيقين يعيشون في غربة ويرحلون في غربة لا يعرف لهم قدرًا ولا مقامًا.

ولم يكن هناك إلّا ثلّة قليلة حظيت بشرف الاعتقاد بإمامتهم، والاقتداء بهم والسّير على خطاهم، وهم شيعتهم الذين استنارت بصائرهم بولايتهم ومحبّتهم، فكانوا هم الفائزون.

ثمّ إنَّ من أجلى مظاهر الود ومراعاة المودّة لدى الشيعة الإمامية تجاه أئمّتهم عليهم السلام تعاهد مواطنهم ومواضع مراقدهم بالزيارة، وتجديد العهد بالولاء والمحبَّة يستسهلون في الوصول إليهم كلّ عسير، ويستمرئون كل

(١) سورة النور الآية ٣٦.

(٢) لاحظ - على سبيل المثال - تلخيص الشافي للشيخ الطوسي، والطرائف للسيد ابن طاووس، وكشف المراد للعلامة الحلي.

خطير، فقد جعل الله تعالى تلك المواطن المطهّرة بيوتًا أذن أن ترفع ويُذكر فيها اسمه.

ومع أنَّ الزيارة تتحقّق من البعد، فقد ورد أنَّهم يبلغهم السلام[1]، إلاّ أنَّ الأئمة عليهم السلام قد أكّدوا لشيعتهم السعي إلى مقاماتهم المشرفة لما يترتّب على ذلك من الفوائد العظيمة.

فقد حرص الأئمّة عليهم السلام شفقة ورأفة منهم بشيعتهم - أن لا تفوتهم تلك المغانم الجليلة حيث جعل الله تعالى مواضع قبورهم مواطن الرحمة، ومهابط الملائكة، ومظان إجابة الدّعاء وغفران الذنوب، والقربة لله والوفاء لرسوله، وإظهار المودّة لذوي القربى.

روى الكليني بسنده عن زيد الشّحّام قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام ما لمن زار واحدًا منكم؟ قال: كمن زار رسول الله صلى الله عليه وآله [2].

وقال الشيخ المفيد وروي عن الصادق عليه السلام أنَّه قال: من زارنا بعد مماتنا فكأنَّما زارنا في حياتنا[3]...

روى الشَّيخ في التهذيب بسنده عن أبي عامر الساجي واعظ أهل الحجاز، قال: أتيت أبا عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام، وقلت له: يا ابن رسول الله ما لمن زار قبره - يعني أمير المؤمنين عليه السلام وعمّر تربته؟ قال:

يا أبا عامر حدثني أبي، عن أبيه، عن جدّه الحسين بن علي عليهم السلام، عن علي عليه السلام، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: والله لتُقتلَنَّ بأرض العراق، وتُدفن بها، قلت: يا رسول الله ما لمن زار قبورنا وعمّرها وتعاهدها؟ فقال لي: يا أبا الحسن إنَّ الله تعالى جعل قبرك وقبر ولدك بقاعًا من بقاع الجنّة، وعرصة من عرصاتها، وإنَّ الله جعل قلوب نجباء من خلقه وصفوة من عباده تحنّ إليكم، وتحتمل المذلّة والأذى، فيعمّرون قبوركم ويكثرون زيارتها، تقرّبًا منهم إلى الله، ومودّة منهم لرسوله، أولئك يا علي المخصوصون بشفاعتي الواردون حوضي، وهم زوّاري غدًا في الجنة.

يا علي من عمَّر قبوركم وتعاهدها فكأنَّما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس، ومن زار قبوركم عدل ذلك ثواب سبعين حجّة بعد حجّة الإسلام، وخرج من ذنوبه حتّى يرجع من زيارتكم كيوم ولدته أمّه، فأبشر وبشّر أولياءك ومحبّيك من النعيم، وقرّة العين بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ولكن حثالة من الناس يعيرون زوار قبوركم كما تعير الزّانية بزنائها، أولئك شرار أمّتي، لا أنالهم الله

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٤ - ص ٣٣٢.

(٢) جامع أحاديث الشيعة، ج ٢١ - ص ٠٧٢.

(٣) المقنعة ص ٤٨٥ - ٤٨٦.

شفاعتي، ولا يردون حوضي[1] .

إلى غير ذلك من الرّوايات الكثيرة.

وإضافة إلى كون الزيارة إحدى القربات والعبادات، فيها من المنافع الدِّينيّة والدّنيويّة ما لا يخفى، بحيث لو لم يرد أيّ نصٍّ في الترغيب فيها والحثِّ عليها لكانت في نفسها جديرة بالاغتنام.

ولمّا كانت السيدة فاطمة المعصومة ﷺ غصنا من تلك الشَّجرة الطّيّبة، وفرعًا من ذلك الأصل الزاكي، ولها من الشَّأن والمقام ما قد عرفت، ورد التَّرغيب في زيارتها، والحثِّ على قصد بقعتها، قربة لله (تعالى) ووفاء لرسوله ﷺ.

ولم يتوان الشيعة الإمامية عن ذلك، بل صاروا يسعون أفواجًا ووحدانًا، من شتّى بقاع الأرض، متحمّلين مشاق السّفر وأخطاره في محبّة صادقة وولاء عميق، معظّمين بذلك إحدى شعائر الله تعالى.

وقد ورد في روايات عدّة التأكيد على زيارتها، وأنَّ الله تعالى قد جعل الجنّة ثوابًا لمن زارها، ومن تلك الرّوايات عن أهل الري أنَّهم دخلوا على أبي عبد الله ﷺ وقالوا: نحن من أهل الرّيّ، فقال ﷺ: مرحبًا بإخواننا من أهل قم، فقالوا: نحن من أهل الرَّيّ، فأعاد الكلام، قالوا ذلك مرارًا وأجابهم بمثل ما أجاب به أوّلاً، فقال ﷺ: إنَّ لله حرمًا وهو مكّة، وإنَّ للرسول حرمًا وهو المدينة، وإنَّ لأمير المؤمنين حرمًا وهو الكوفة، وإنَّ لنا حرمًا وهو بلدة قم، وستدفن فيها امرأة من أولادي تُسمّى فاطمة، فمن زارها وجبت له الجنة، قال الراوي: وكان هذا الكلام منه ﷺ قبل أن يولد الكاظم [2].

ومنها: ما روي عنه ﷺ أيضًا أنَّه قال: إنَّ زيارتها تعدل الجنة [3].

ومنها: ما رواه الصدوق بسنده عن سعد بن سعد، قال: سألت أبا الحسن الرضا ﷺ عن فاطمة بنت موسى بن جعفر ﷺ، فقال ﷺ: من زارها فله الجنة[4] .

ومنها: ما روي عن سعد عن علي بن موسى الرضا ﷺ قال: قال: يا سعد عندكم لنا قبر، قلت: جعلت فداك قبر فاطمة بنت موسى ﷺ، قال: نعم، من زارها عارفًا بحقّها فله الجنة[5] .

ومنها: ما روي عنه ﷺ أيضًا أنَّه قال: من زار المعصومة بقم كمن زارني [6].

---

(١)جامع أحاديث الشيعة ، ج ٢١ – ص ٢٣٣.

(٢) تاريخ قم ص ٢١٥ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٦ – ٢١٧.

(٣) المصدر نفسه ج ١٠٢ ص ٢٦٧.

(٤) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٢٦٧.

(٥) بحار الأنوار ج ١٠٢ ص ٢٦٦.

(٦) رياحين الشريعة ج ٥ ص ٣٥.

ومنها: ما روي عن أبي جعفر محمد بن علي الجواد عليه السلام أنَّه قال:

من زار قبر عمّتي بقم فله الجنة [1].

وغيرها من الرّوايات الدَّالّة على فضل زيارتها، وما أعدّه الله تعالى ثوابًا لزائرها وهو الجنة، وقد ورد أنَّ للجنة ثمانية أبواب ثلاثة منها لأهل قم.

نص الزّيارة:

ومع كفاية حضور الزائر عند المزور والسلام عليه في تحقّق الزيارة، إلا أنَّه قد ورد نصّ خاصّ عن الإمام الرضا عليه السلام في كيفية زيارة السيدة المعصومة، كما ذكر ذلك العلّامة المجلسي (قدس سره) في البحار، قال: رأيت في بعض كتب الزيارات: حدّث علي بن إبراهيم عن أبيه، عن سعد، عن علي بن موسى الرضا عليه السلام، قال: قال: يا سعد عندكم لنا قبر، قلت: جعلت فداك قبر فاطمة بنت موسى عليه السلام، قال: نعم، من زارها عارفًا بحقّها فله الجنة، فإذا أتيت القبر فقم عند رأسها مستقبل القبلة، وكبّر أربعًا وثلاثين تكبيرة، وسبّح ثلاثًا وثلاثين تسبيحة، واحمد الله ثلاثًا وثلاثين تحميدة، ثمّ قل:

السَّلامُ عَلَىٰ آدَمَ صَفْوَةِ الله السَّلامُ عَلَىٰ نُوحٍ نَبِيِّ الله السَّلامُ عَلَىٰ إِبْراهِيمَ خَلِيلِ الله السَّلامُ عَلَىٰ مُوسىٰ كَلِيمِ الله السَّلامُ عَلَىٰ عِيسىٰ رُوحِ الله، السَّلامُ عَلَيْكَ يا رَسُولَ الله السَّلامُ عَلَيْكَ يا خيْرَ خَلْقِ الله السَّلامُ عَلَيْكَ يا صَفِيَّ الله السَّلامُ عَلَيْكَ يا مُحَمَّد بْنَ عَبْدِ الله خاتَمِ النَّبِيِّينَ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طالِبٍ وَصِيَّ رَسُولِ الله، السَّلامُ عَلَيْكِ يا فاطِمَة سَيِّدَةَ نِساءِ العالَمِينَ، السَّلامُ عَلَيْكُما يا سِبْطَي نَبِيّ الرَّحْمَةِ وَسَيِّدَيْ شَبابِ أَهْلِ الجَنَّةِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ سَيِّدَ العابِدِينَ وَقُرَّةَ عَيْنِ النَّاظِرِينَ السَّلامُ عَلَيْكَ يا مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ باقِرَ العِلْمِ بَعْدَ النَّبِيِّ السَّلامُ عَلَيْكَ يا جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقَ البارَّ الأَمِينَ السَّلامُ عَلَيْكَ يا مُوسىٰ بْنَ جَعْفَرٍ الطَّاهِرَ الطُّهْرَ السَّلامُ عَلَيْكَ يا عَلِيَّ بْنَ مُوسىٰ الرِّضا الْمُرْتَضىٰ السَّلامُ عَلَيْكَ يا مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ التَّقِيَّ السَّلامُ عَلَيْكَ يا عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ النَّقِيَّ النَّاصِحَ الأَمِينَ السَّلامُ عَلَيْكَ يا حَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ السَّلامُ عَلَىٰ الوَصِيِّ مِنْ بَعْدِهِ اللهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ نُورِكَ وَسِراجِكَ وَوَلِيِّكَ وَوَصِيِّ وَصِيِّكَ وَحُجَّتِكَ عَلَىٰ خَلْقِكَ.

السَّلامُ عَلَيْكِ يا بِنْتَ رَسُولِ الله السَّلامُ عَلَيْكِ يا بِنْتَ فاطِمَةَ وَخَدِيجَةَ السَّلامُ عَلَيْكِ يا بِنْتَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ السَّلامُ عَلَيْكِ يا بِنْتَ الحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، السَّلامُ عَلَيْكِ يا بِنْتَ وَلِيِّ الله السَّلامُ عَلَيْكِ يا أُخْتَ وَلِيِّ الله السَّلامُ عَلَيْكِ يا عَمَّةَ وَلِيِّ الله السَّلامُ عَلَيْكِ يا بِنْتَ مُوسىٰ بْنَ جَعْفَرٍ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكاتُهُ. السَّلامُ عَلَيْكِ عَرَّفَ الله بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ فِي الجَنَّةِ وَحَشَرَنا فِي زُمْرَتِكُمْ وَأَوْرَدَنا حَوْضَ نَبِيِّكُمْ وَسَقانا بِكَأْسِ جَدِّكُمْ مِنْ يَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طالِبٍ صَلَواتُ الله

(١) كامل الزيارات ص ٥٣٦.

عَلَيْكُمْ.

أَسْأَلُ الله أَنْ يُرِينا فِيكُمُ السُّرُورَ وَالفَرَجَ وَأَنْ يَجْمَعَنا وَإِيَّاكُمْ فِي زُمْرَةِ جَدِّكُمْ مُحَمَّدٍ صَلّىٰ الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَنْ لايَسْلُبَنا مَعْرِفَتَكُمْ إِنَّهُ وَلِيُّ قَدِيرٌ، أَتَقَرَّبُ إِلىٰ الله بِحُبِّكُمْ وَالبَراءةِ مِنْ أَعْدائِكُمْ وَالتَّسْلِيمِ إِلىٰ الله راضِيا بِهِ غَيْرَ مُنْكِرٍ وَلا مُسْتَكْبِرٍ وَعَلىٰ يَقِينٍ ما أَتىٰ بِهِ مُحَمَّدٌ وَبِهِ راضٍ نَطْلُبُ بِذلِكَ وَجْهَكَ يا سَيِّدِي، اللهُمَّ وَرِضاكَ وَالدَّارَ الآخِرَةَ يا فاطِمَةُ اشْفَعِي لِي فِي الجَنَّةِ فَإِنَّ لَكَ عِنْدَ الله شَأْنا مِنَ الشَّأْنِ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَخْتِمَ لِي بِالسَّعادَةِ فَلا تَسْلُبْ مِنِّي ما أَنا فِيهِ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِالله العَلِيِّ العَظِيمِ، اللهُمَّ اسْتَجِبْ لَنا وَتَقَبَّلْهُ بِكَرَمِكَ وَعِزَّتِكَ وَبِرَحْمَتِكَ وَعافِيَتِكَ وَصَلّىٰ الله عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ[1].

خصائص الزيارة وبعض مميزاتها:

تعدّ هذه الزيارة من الزيارات الجامعة حيث اشتملت على السلام على أبي البشر آدم عليه السلام، وأولي العزم من الرسل عليهم السلام، ثمّ السلام على المعصومين من أهل البيت عليهم السلام وهم الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام، والأئمة الاثنا عشر عليهم السلام، وذكرهم واحدًا واحدًا، ثم السلام على فاطمة المعصومة، ثم الإشارة إلى بعض مقامات أهل البيت عليهم السلام، ومنزلتهم عند الله تعالى، وما أعدّه لهم من المنزلة في الدّار الآخرة، والشأن العظيم، ثم الإقرار لهم بالمحبّة والولاية والبراءة من أعدائهم، والتسليم إلى الله تعالى، وإعلان الرضا بكلِّ ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله والاعتقاد اليقيني به، ثم الابتهال إلى الله تعالى وطلب الثبات على ذلك.

وجميع هذه المضامين العالية واردة في روايات أهل البيت عليهم السلام، فهي في حدّ ذاتها - بغض النظر عن سندها - موافقة لما ورد من أصول المعارف الحقة عن أئمة الهدى عليهم السلام.

ثمّ إنَّ في هذه الزيارة أمورًا تلفت النظر وتسترعي الانتباه، نشير إجمالاً إلى ثلاثة منها:

الأوَّل: الالتفات في السلام من الغيبة إلى الخطاب، فإنَّ الزيارة تبدأ بالسلام على آدم في صورة الغيبة، حتى إذا بلغ السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله تحوّل إلى صورة المخاطبة.

الثّاني: ذكر في الزيارة أنَّ السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام بنت الحسن عليه السلام، حيث ورد فيها: السلام عليكِ يا بنت الحسن والحسين.

ومن المعلوم أنَّ فاطمة المعصومة عليها السلام تنحدر من سلالة الإمام الحسين عليه السلام، فهي فاطمة بنت موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

(١) بحار الأنوار ج ١٠٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٧.

الثَّالث: اشتمال الزيارة على أنَّ للسيدة فاطمة المعصومة عليها السلام شأنًا من الشأن، وبه تشفع في الجنّة.

أمَّا الأمر الأوَّل فلِأنَّ من الثابت بالكتاب والسّنّة أنَّ النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام شهداء على الخلق، وأنَّهم في جميع الحالات يسمعون الكلام ويردّون السلام، من دون اختصاص بمكان دون مكان أو زمان دون آخر، ولذا فإنَّ جميع ما ورد من الزّيارات – إلا القليل – كان في صورة الخطاب والحضور، حتى أنَّ التسليم المستحب في آخر كلّ صلاة كذلك، وهو قول المصلّي (السلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته).

وأمَّا في خصوص المقام فقد ذكر بعض العلماء أنَّ في ذلك إشارة إلى منزلة قم ومكانتها عند أهل البيت عليهم السلام، وقد أثنى الأئمة عليهم السلام على أرض قم وأهلها، ووردت عنهم عليهم السلام أحاديث كثيرة في ذلك، وسيأتي ذكر بعضها في محلّه.

ويؤيد ذلك ما ورد في الرّواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: إنَّ لله حرمًا وهو مكّة، وإنَّ للرسول حرمًا وهو المدينة، وإنَّ لأمير المؤمنين حرمًا وهو الكوفة، وإنَّ لنا حرمًا وهو بلدة قم[1]....

وفي رواية أخرى: ألا إنَّ قم الكوفة الصغيرة، ألا إنَّ للجنة ثمانية أبواب ثلاثة منها إلى قم[2]...

ففي العدول من الغيبة إلى الخطاب إشعار بحضورهم عليهم السلام في هذا المكان المقدّس فإنَّه حرمهم، وموطن شيعتهم، وورد في الرّوايات أنَّهم عليهم السلام لا يغيبون عن شيعتهم.

وقد أصبح لبلدة قم ميزة أخرى تضاف إلى مميزاتها وهي أنَّها مثوى السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام، الأمر الذي زاد في ارتباط الأئمة عليهم السلام بقم، وقد أخبر عنه الإمام الصادق عليه السلام قبل ولادتها، بل قبل ولادة أبيها عليه السلام حيث قال: وستدفن فيها امرأة من أولادي تُسمّى فاطمة فمن زارها وجبت له الجنة[3].

وفي رواية أخرى: تقبض فيها امرأة هي من ولدي، واسمها فاطمة بنت موسى، تدخل بشفاعتها شيعتنا الجنة بأجمعهم[4] وبه ينسجم العدول في السلام من الغيبة للخطاب فإنَّ الزائر يخاطب النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام وهم حاضرون.

وأمّا الأمر الثَّاني فيظهر معناه بالرّجوع إلى نسب الإمام الباقر عليه السلام من جهة أمّه عليها السلام، وهي فاطمة بنت الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، فتكون جدّة للإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام، وبذلك تكون السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام بنتًا للإمام الحسن عليه السلام من طرف الأم.

وقد ذكر الرواة أنَّ أمّ الإمام الباقر عليه السلام كانت على مرتبة عالية من الجلال والكمال.

---

(١) تاريخ قم ص ٢١٥ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٦ – ٢١٧.

(٢) بحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢٢٨.

(٣) تاريخ قم ص ٢١٥ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٦ – ٢١٧.

(٤) بحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢٢٨.

يقول المحدث القمي في منتهى الآمال: أمّه – أي الإمام الباقر عليه السلام – الماجدة فاطمة بنت الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، وقيل لها: أمّ عبد الله، فأصبح عليه السلام ابن الخيرتين، وعلويًّا بين العلويين.

روي في دعوات الراوندي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنَّه قال:

كانت أمّي قاعدة عند جدار، فتصدّع الجدار وسمعنا هدة شديدة، فقالت بيدها: لا وحق المصطفى، ما أذن الله لك في السقوط، فبقي معلّقًا حتى جازته، فتصدّق عنها أبي عليه السلام بمائة دينار.

وذكرها الصادق عليه السلام يومًا فقال: كانت صديقة لم يدرك في آل الحسن امرأة مثلها[1].

وعلى هذا فيكون الإمام الحسن أبًا للسيدة فاطمة المعصومة عليها السلام لأنَّه جدّ الإمام الباقر عليه السلام لأمّه، بل هو أب لسائر الأئمة عليهم السلام.

وأما الأمر الثَّالث فيعلم ممّا تقدّم من الأبحاث السَّابقة، فإنَّ شأن السّيّدة فاطمة المعصومة هو الشَّأن الشَّامخ، والمنزلة العالية عند الله تعالى على ما نطقت به الرّوايات، ومن ذلك أنَّ لها شأن الشفاعة لجميع الشيعة، كما قال عنها جدّها الإمام الصادق عليه السلام: «تدخل بشفاعتها شيعتنا الجنة بأجمعهم».

والشفاعة من المسائل التي أكّدتها النصوص القرآنية وروايات أهل البيت عليهم السلام، وتكفّلت الكتب الكلامية ببيان تفاصيلها حكمًا وموضوعًا.

والذي نود الإشارة إليه أنَّ المستفاد من جملة «يا فاطمة اشفعي لي في الجنة فإنَّ لكِ عند الله شأنًا من الشأن» أنَّ هذا الشَّأن ليس هو شأن الشفاعة فقط، وإنَّما الشفاعة هي أحد مصاديق ذلك الشَّأن.

ويؤيِّد هذا المعنى ما ورد من الرّوايات الدَّالة على أنَّ الشفاعة ثابتة لجملة من الأفراد على اختلاف مراتبهم منهم النبي الأعظم صلى الله عليه وآله فإنَّ له المقام المحمود، وهو أعلى مراتب الشَّفاعة على ما ورد في كثير من الرّوايات[2]، ومنهم الأئمة المعصومون عليهم السلام والصديقة الزهراء عليها السلام، ومنهم الشهداء، ومنهم القرآن الكريم، فإنَّه يشفع لقرّائه، ومنهم السقط فإنَّه يشفع لأبويه، ومنهم المؤمن الشيعي، فإنَّ الله تعالى قد جعل له الشفاعة يوم القيامة كما ورد في صحيحة ابن أبي نجران، قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: من عادى شيعتنا فقد عادانا، ومن والاهم فقد والانا، لأنَّهم مِنَّا خلقوا من طينتنا، من أحبَّهم فهو منَّا، ومن أبغضهم فليس منَّا...، والله إنَّ أحدهم ليشفع في مثل ربيعة ومضر، فيشفعه الله تعالى فيهم، لكرامته على الله عزّ وجلّ[3].

وغيرها من الرّوايات. أقول: إنَّ مقام الشفاعة وإن كان شامخًا إلّا أنَّ للسيدة فاطمة المعصومة مقامًا آخر

---

(١) منتهى الآمال ج ٢ ص ١٣١.

(٢) تفسير نور الثقلين ج ٣ ص ٢٠٦ – ٢١١

(٣) صفات الشيعة، ص ٨٢.

عبر عنه بالشأن. .... فما يردّده بعض الحمقى والمغفلين من أنَّ فاطمة المعصومة لا تعدو أن تكون امرأة، مثلها مثل سائر النساء، ولا شأن لها، إن هو إلا دليل على الجهل واللامبالاة والتطاول على المقدَّسات، ويكشف عن الحرمان وسلب التوفيق والتقصير في معرفة مقامات الأولياء والصالحين والصالحات من أهل البيت ﷺ، فإنَّ كونها امرأة لا يقعد بها عن تسنّم أرفع الدّرجات، وأنَّها من فضليات البشر، ولا يدانيها في الفضل والمنزلة أكثر الرجال وهي من التاليات للمعصومين من أهل البيت ﷺ في الفضل والشَّأن والمنزلة عند الله تعالى وعند الأئمة ﷺ، وحسبك ما تقدَّم في الرّواية الصّحيحة السند عن أبي الحسن الرضا ﷺ أنَّه قال: من زارها فله الجنة.

هذا، وقد ذكر أنَّ للزيارة آدابًا وسننًا تكفّلت كتب الفقه والزيارات ببيان تفاصيلها.

إيقاظ:

أود أن أشير إلى ضرورة الالتفات إلى أمر له مساس بما ذكرناه، وهو أنَّه ظهرت في الآونة الأخيرة فئة من الناس قد اكتفت من العلم بالقشور دون اللباب، وبالاسم دون المسمّى، وبالشكل دون المحتوى، -وهنا تكمن الخطورة - وسوّغت لنفسها القفز على ثوابت العقيدة، أو التّشكيك في مسلّماتها، والجدال في بديهيّاتها، - تحت شعارات التجديد والانفتاح ومقتضيات العصر - بل تعدّت الحدود لتقدح في أصول المذهب وركائزه بإلقاء الشبه، أو إنكار الحقائق، فأحدثت بذلك الفوضى والاضطراب في نفوس البسطاء من الناس، الذين بهرتهم تلك الشعارات الجوفاء، وانساقوا وراءها يردّدونها في سذاجة وغفلة أو تغافل عمّا تنطوي عليه، وسيصحون يومًا ليجدوا أنفسهم مفلسين، إلا أن يتداركوا أمرهم قبل فوات الأوان.

وبلغ الأمر إلى أنَّه بدلاً عن تصدّي المعنيّين بشؤون العقيدة والدّفاع عنها، لخصومها الخارجين عنها، اضطرّوا للتصدّي لخصومها الدّاخلين فيها الذين هم أشدّ خطرًا وأسوأ أثرًا، لأنَّهم يُشكّلون حجر العثرة في المسار، (**وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**)[1].

وليعلم هؤلاء أنَّ للبيت ربًّا يحميه، وأنَّ للسفينة رُبَّانًا يجنبها الأخطار.

ومهما حاولوا في زعزعة العقيدة فلن تزداد عقيدة الناس إلَّا رسوخًا وصلابة، وأنَّ محاولاتهم يائسة فاشلة «ولا يحيق المكر السّيّء إلا بأهله».

وستبقى العقيدة المقدَّسة - التي غرس بذرتها النبي محمد ﷺ، وتعاهد شجرتها أئمة الهدى ﷺ، وصان ثمرتها علماء الشيعة - سليمة نقيّة، وهي أعلى وأجل من أن يخدش فيها جاهل أو متجاهل أو مشكّك أو مشبوه.

---

(١) سورة الكهف/ الآية: ١٠٤.

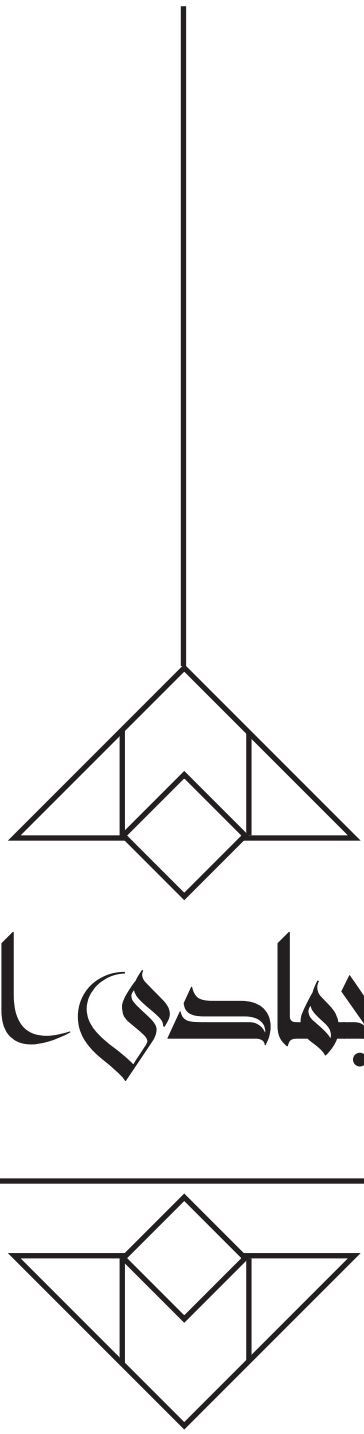

شهر جمادى الأولى

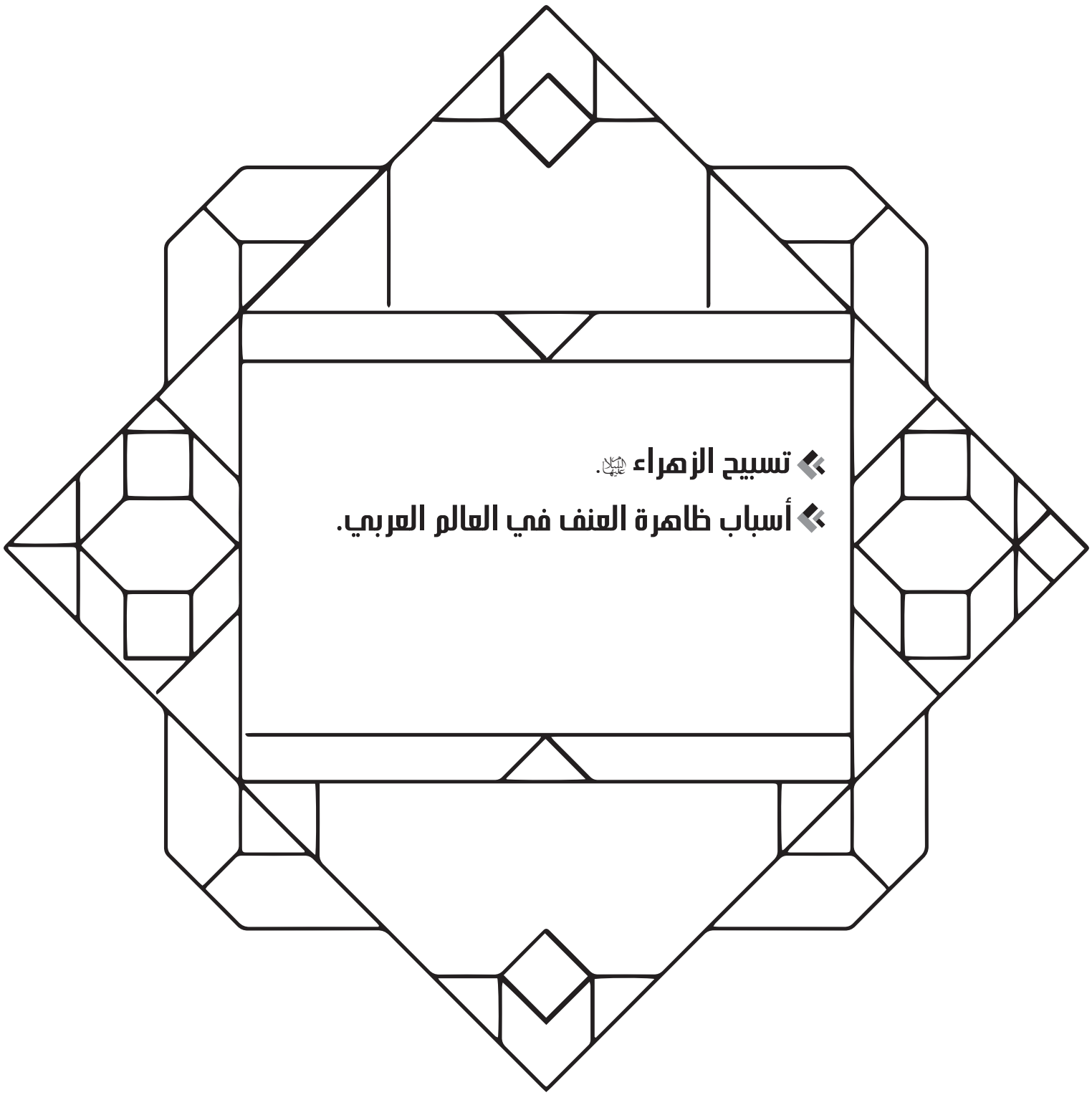
تسبيح الزهراء عليها السلام.
أسباب ظاهرة العنف في العالم العربي.

تسبيح الزهراء عليها السلام

السيد محمد الحسيني

يعد تسبيح الزهراءعليها السلام من أفضل تعقيبات الصلاة، ويستحسن المداومة عليه بعد الصلاة الواجبة، وقبيل النّوم، وقبل زيارة الأئمة المعصومين عليهم السلام، بل في كلِّ زمان ومكان، والأحاديث متواترة في فضله وعلوّ مرتبته، فقد ورد عن أهل بيت العصمةعليهم السلام من أنَّه يوجب غفران الذّنوب، ويرضي الرحمن، وأفضل من صلاة ألف ركعة مندوبة، ويوجب ثقل الميزان لأعمال الإنسان، كما أنَّه ومع تركيبته السهلة يُعدّ سبيل المؤمن إلى الجنّة.

إنَّ تسبيح سيدة النساء: فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله يُعد ثروة إيمانية، وعبادية لا يستغني عنها الإنسان المؤمن المتعبّد خلال عبادته اليومية، فينبغي المواظبة عليها وتعليم الناس بها، وعدم الاستغناء عنها في أيّ حالٍ من الأحوال.

ولهذا التسبيح أبعاد عظيمة وفضائل جمّة وهو في الحقيقة هديّة من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى لابنته فاطمة الزهراء -سلام الله عليها-.

منشأ تسبيح الزهراءعليها السلام

قال الإمام علي عليه السلام: «لما رأيت ما أصاب فاطمة الزهراء من العناء في خدمة البيت وقد جاء سبي إلى النبي صلى الله عليه وآله قلت لها هلّا أتيتِ أباكِ تسألينه خادمًا يكفيك مشقّة خدمة البيت؟، فأتت النّبيّ وإذا عنده جماعة فانصرفت، وعلم أبوها أنَّها جاءت لأمر أهمّها فغدا إلى دارها صباحًا وسألها: عمّا جاءت له؟، فاستحت أن تذكر له.

فقلتُ له أنّك تعلم ما تلاقيه فاطمة من القيام بشؤون البيت من الاستقاء، والطحن، والكنس، وقد أثّر ذلك عليها، فقلت لها لو سألتِ أباكِ يُخدمك من يكفيك مشقّة ما أنتِ فيه من العمل؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفلا أدلّك يا فاطمة على ما خير لكِ من الخادم ومن الدّنيا؟».

فقالت: «بلى يا رسول الله»، فعلّمها هذا التسبيح المعروف عند النوم وبعد كلِّ صلاة»[1].

---

(١) كشف الغمة في معرفة الأئمة: ٢ / ٩٩، فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ١١ / ١١٨.

سبب التّسمية:

نسبة العمل أو الدّعاء أو الرواية إلى الراوي مسألة معروفة في كتب الحديث والأدعية فمثلاً هناك أدعية سمّيت باسم راويها كدعاء كميل ودعاء أبي حمزة الثمالي، وهناك روايات تُسمّى بأسماء رواتها الأوائل عن المعصومين فكذلك الحال عن تسبيح الزَّهراء عليها السلام فالنبي صلى الله عليه وآله علمه بالخصوص إلى فاطمة الزهراء كبديل عن رغبة لم تُبدها وهي حاجتها لخادمة، فالنبي صلى الله عليه وآله علّمها هذا التسبيح كبديل عن تلك الرغبة التي لم يحقّقها لها لذا نسب إليها عليها السلام.

كيف تطلب الزهراء عليها السلام خادماً؟

إنَّ تسبيح الزهراء عليها السلام: الذي هو: قول الله أكبر أربعاً وثلاثين مرة، والحمد لله ثلاثاً وثلاثين مرّة، وسبحان الله ثلاثًا وثلاثين مرّة، هذا التسبيح قد تضمّن الإعلان بتنزيه الله سبحانه عن كلّ تعب، ونقص، وحاجة، وفقر وجهل.. و.. فهو سبحانه الكمال المطلق.. وهذا يعطي للمسبح شعورًا بكمال الله سبحانه المطلق، وبقدراته، وغناه، وعلمه، و.. و. . .

ثم إنَّه لا بُدَّ لهذا المسبِّح من أن يتذكّر حاجته إليه سبحانه، ونقصه بدونه، وفقره، وتعبه، وجهله.. وسيتضاءل أمام عظمته تعالى.. وسيعطيه ذلك المزيد من الخشوع والسمو الروحي.

وإذا قال: الحمد لله، فإنَّه إنَّما يثني على الله بملاحظة ما هو فيه من نعم لا تُعد، وهي من تجلّيات صفاته، فإنَّه الخالق، الرَّازق، الرّؤوف، الرّحيم الشافي، والقوي العزيز، وهكذا سائر صفات الفعل، تبارك ربّنا وتعالى..

وهو يكرّرها ليلقن بها نفسه، ولتصبح وعيه وضميره، ووجدانه، وتمازج مشاعره وأحاسيسه، ولتكون هي الباعث والمحرّك له في كل إقدام وإحجام.

وقوله: الله أكبر، وتكراره ذلك على النحو الذي أشرنا إليه سوف يؤكِّد في أعماق نفسه الشعور، بأن كل شيء سوى الله لا يصح الخضوع له، ولا الطلب منه ولا الالتجاء إليه، أو الاعتماد عليه، بل الذي يليق به ذلك هو الله الجامع لصفات الجلال والجمال. والذي هو أكبر من كلِّ شيء في هذا الوجود.

إنَّ المناسبة بين طلب الزهراء عليها السلام، وهذا التسبيح تصبح ظاهرة، إذ إنَّ الموضوع موضوع حاجة، وضعف، ولجوء إلى الغني، القوي، الرازق، الرحيم، إلى من يعين، ويسدّ النقص، ويرفع الحاجة، فما أشدّ تناسب ما طلبته الزهراء عليها السلام مع ما أُعْطيتْه.

ولا بد لنا من التذكير هنا بأنَّنا لا يمكن أن نتصوّر الزهراء عليها السلام إلَّا مدركة لذلك كلّه قبل طلبها وبعده، ولكنَّها عليها السلام قد أرادت للناس أن يعوا ما وعته، وأن يدركوا ما أدركته، فكان لا بدّ لها من أن تعلن بالطلب من

الله سبحانه .. ثم أن يجيب الله طلبها، ويخلّد ذلك إلى يوم القيامة؛ ليكون ذلك هو البيان الشافي والكافي من الله سبحانه، ورسوله ﷺ وتكون الزهراء ﷺ، معلّمة وهادية للبشرية، وسبيلاً إلى الله سبحانه.

ونستطيع أن نفهم طلب الزَّهراء ﷺ التعليمي هذا بالنظر في السّؤال الذي سأله الله سبحانه، لعيسى بن مريم.. وهو السؤال الذي يراد به إقامة الحجّة على الجاحدين والمعاندين، حيث قال تعالى لعيسى بن مريم:

(وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ...)[1]. [2].

وقد أجيب عن هذه الشبهة بجواب آخر وهو:

إنَّ رسول الله ﷺ لّما كان عارفًا بفاطمة وبقدرها وبفقهها عرف الغرض من طلبها للخادم، وأنَّ الغرض منه التفرّغ للعبادة، فلمّا كان هذا هو الغرض من طلب الخادم، فَتَحَ لها بابًا للعبادة يكون أفضل من ذلك الخادم، وبالنتيجة تكون تلك العبادة أفضل من العبادات التي تتيسّر لها صلوات الله عليها إذا وجد عندها الخادم.

وللتوضيح فلنفرض مثلاً أنَّها لو وُجدت عندها امرأة تخدم، ستتفرّغ صلوات الله عليها لصلاة جعفر مثلاً، وهي صلاة بكيفيّة خاصّة، فعلّمها رسول الله ﷺ عبادةً إذا أتت بها نالت من الثواب أكثر من صلاة جعفر، ولولا ذلك لما صحّ أن يقول: «فإنَّها» - أي التسبيحات- «خيرٌ لكما من خادم!»[3]؛ لأنَّه لا يصح أن يُقارن بين المادّي الدّنيوي وبين العبادي الأخروي الذي له ثواب لا عين رأته ولا خطر على قلب بشر، فلا بُدَّ أن يكون الذي طلبته فاطمة شيئًا مرتبطًا بالآخرة، وحيث إنَّه كذلك، فقد أعطاهما رسول الله ﷺ شيئاً يرتبط بالآخرة وهو التسبيحات التي تعرف بتسبيحات الزهراء ﷺ.

إنَّ الزهراء ﷺ وأمير المؤمنين ﷺ على جلالة قدرهما وعظيم منزلتهما وتمام علمهما يعطيان من خلال هذه القصة درسًا للأمّة في الرجوع لرسول الله ﷺ في كلِّ شأن من شؤون حياتنا بما في ذلك شأن الأسرة، ففي شريعته الغرّاء صلوات الله وسلامه عليه وآله كلّ الحلول.

من خلال هذا الموقف بين أمير المؤمنين والزهراء ﷺ للأمة أنَّ طلب الخدم مباح نعم ولكن هناك ما هو خير منه للمرأة المؤمنة وهو هذا التَّسبيح الذي ذكره رسول الله ﷺ للبتول.

---

(١) القرآن الكريم: سورة المائدة (٥)، الآية: ١١٦.

(٢) مختصر مفيد .. (أسئلة وأجوبة في الدين والعقيدة)، للسيد جعفر مرتضى العاملي، «المجموعة الثانية»، المركز الإسلامي للدراسات، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ ٢٠٠٢.

(٣) الصدوق، من لا يحضره الفقيه ج ١ ص ٣٢٠، البخاري، الجامع الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب [الإمام]علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن ﷺ.

الزّهراء ابنة الحاكم المطلق على الدّولة الإسلامية فأراد الله تعالى من خلال هذا الموقف أن يُبيّن لكلِّ امرأة تتباهى بالخدم والحشم أنَّ الزهراء هي ﷺ يتهيّأ لها الحصول ليس على خادم فحسب بل على عشرات الخدم والحشم ولكنَّها زهدت في كلِّ ذلك ورغبت في بركة ذلك التّسبيح ولذلك هي الزّهراء البتول سيّدة نساء العالمين.

التسبيح لغة واصطلاحًا:

التسبيح -لغة- هو: التنزيه، وسبحان الله معناه: التنزيه لله، وهو: نصب على المصدر كأنَّه، قال: أبرّئ الله من السوء براءة، سبحات وجه الله تعالى جلالته، وسبوح من صفات الله.

والسُبحة: خَرَزات يُسبح بها، وهي أيضًا التّطوّع من الذكر، والصلاة، تقول: منه قضيتُ سبحتي[1].

والتسبيح اصطلاحًا أنَّ المؤمن بقوله: سبحان الله فإنَّه ينزّه الله ويقدِّسهُ عن كل ما لا يليق به سبحانه وتعالى من الشرك، والصاحبة، والولد، والظلم وكلّ ما لا يتوافق مع جلالته وعظمته وكمال المطلق.

والتسبيح لله تعالى يمثّل ظاهرة كونيّة تشمل كلّ الكائنات حسب ما أكّده القرآن تُسبح له السماوات السبع والأرض، وقال تعالى: **(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ)** [2].

وقد افتخر الملائكة عندما أرادوا لأنفسهم أن يكونوا خلفاء الله في الأرض: **(قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)**[3] .

وتسبيح كلّ شيء بحسبه، فالعقل يسبح بلسان المقال، وغير العاقل يُسبّح بلسان الحال، وكأنَّه يقول: أو من بمن أوجدني وأنزهه عن العجز والنقص، ولكن لا تفهمون تسبيحي إلا من كان له عقل يفهم عن الله سبحانه ما أقام من البيّنات على وجوده وعظيم قدرته.

وعن الإمام جعفر الصادق ﷺ: «كان داود ﷺ إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل، ولا حجر، ولا طائرًا إلا جاوبه»، وعن الإمام محمد الباقر ﷺ: «أما سمعت خشب البيت تنقض وذلك تسبيحه»، وعن الصادق ﷺ: «نقض الجدر تسبيحها»[4].

والسبحان: اسم مصدر للتسبيح بمعنى التّنزيه، وسبّحتُ الله تسبيحًا نزّهته عن كلّ ما لا يليق بساحة

---

(١) مختار الصحاح: ٢٨٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(٤) بحار الأنوار: ٦٠ / ١٧٧.

قدسه، وعن طلحة ابن عبد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله؟.

قال: «هو تنزيه الله عن كلّ سوء» [١].

وسُئل أمير المؤمنين علي ﷺ: ما تفسير سبحان الله؟ قال: «هو تعظيم جلال الله عزّ وجلّ وتنزيهه عمّا قال فيه كل مشرك فإذا قاله العبد صلى عليك كل ملك» [٢].

كيفية التسبيح وصيغته:

هو كما علّمه رسول الله ﷺ لبضعته فاطمة:

١ ـ أربع وثلاثون تكبيرة.

٢ ـ وثلاث وثلاثون تحميدة.

٣ ـ وثلاث وثلاثون تسبيحه.

ومن المسنون أن يهلّل بعد التسبيحات، قائلاً: (لا إله إلا الله).

فضل هذا التَّسبيح:

اهتمّ أهل البيت ﷺ في هذا التسبيح كثيرًا وأوصوا به شيعتهم، وأن يعلّموه لأولادهم كما نجد ذلك في كثير من الأحاديث ومنها:

١ ـ قال الإمام محمد الباقر ﷺ: «من سبَّح تسبيح الزهراء ﷺ ثم استغفر غفر له، وهي مائة باللسان وألف في الميزان، وتطرد الشيطان وترضي الرّحمن، ويدفع الثقل الذي في الآذان»[٣].

٢ ـ وقال أيضاً ﷺ: «ما عُبد الله بشيء أفضل من تسبيح فاطمة كلّ يوم بعد كلّ صلاة»[٤].

٣ ـ قال الإمام جعفر الصادق ﷺ: «من سبَّح بعد كلِّ فريضة بتسبيح فاطمة ﷺ، وعقبه بلا إله إلا الله غفر الله له»[٥].

٤ ـ قال أيضاً: «تسبيح فاطمة كلّ يوم دبر كلّ صلاة أحبُّ إليّ من صلاة ألف ركعة في كلّ يوم، وإنا لنأمر صبياننا به كما نأمرهم بالصّلاة»[٦].

٥ ـ وقال أيضاً: «من سبّح تسبيح فاطمة قبل أن يثني رجليه من صلاة الفريضة غفر الله له، ويبدأ بالتكبير»[٧].

---

(١) كشف الغمة: ٢ / ٢٩٠.

(٢) التوحيد، الشيخ الصدوق، ص ٣١٢.

(٣) وسائل الشيعة، ٤، ١٠٢٣.

(٤) المصدر نفسه، ٤، ١٠٢٤.

(٥) وسائل الشيعة ٤، ١٠٢٣.

(٦) الكافي، ٣، ص ٣٤٣

(٧) التهذيب للشيخ الطوسي ٢ – ١٠٥.

٦ ـ وقال الإمام الصادق عليه السلام لأبي هارون المكفوف:

«يا أبا هارون إنّا نأمر صبياننا بتسبيح فاطمة عليها السلام كما نأمرهم بالصّلاة فالزمه فإنَّه لم يلزمه عبد فشقي»[١] .

تسبيح فاطمة عليها السلام في القرآن

ورد تسبيح فاطمة عليها السلام في كتاب الله تعالى حسبما أفادت به الأحاديث الشريفة الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

فقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى:(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**)[٢] ما حد الذِّكر؟، فقال عليه السلام: «من سبَّح في عقب كلّ فريضة تسبيح فاطمة عليها السلام فقد ذكر الله ذكرًا كثيرًا»[٣].

وقال الشيخ المفيد –رحمه الله–: «تسبيح الزهراء عليها السلام في أعقاب الصلوات المفترضات سُنَّة مؤكَّدة، وفي أعقاب النّوافل مستحب»[٤].

وعن زرارة وحمران بن أعين، عن الصادق عليه السلام، قال: «من سبَّح تسبيح فاطمة عليها السلام فقد ذكر الله ذكرًا كثيرًا»[٥].

وروى الشيخ الصدوق –رحمه الله– في المعاني عن محمد مسلم عن الصادق عليه السلام في حديث يقول في آخره:

« تسبيح فاطمة عليها السلام من ذكر الله الكثير الذي قال الله عز وجل: **(فاذكروني أذكركم)**[٦].

وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام، أنَّه قال: «من بات على تسبيح فاطمة عليها السلام كان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات)[٧]»[٨].

سرّ هذا الثَّواب

لعل سائل يسأل عن ماهيّة السّر فيما يترتب من أثر على من أتى بتسبيح الزهراء عليها السلام مع سهولته؟.

وللجواب عن السّؤال:

أوَّلاً: إنَّه مع أنَّ الذّكر هو ذكر لله تعالى، ولا يعني أنَّه مجرّد لقلقة لسان، بل إنَّها كلمات عظيمة تحمل معانٍ عظيمة إلّا أنَّ المكان بالمكين –كما يقولون– وإنَّ السّر هنا هو العلاقة التي تربط بين من نسب إليها الذّكر والفيوضات الرّحمانية غير المحدودة التي تترتّب على الذاكر، فكلّ ذلك كاشف عن أنَّ تعظيم التسبيح يكمن في تعظيم قدر

---

(١) فتح الباري: ١١ / ١١٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤١.

(٣) الينابيع الفقيه لعلي أصغر مروارید: ج ٣، ص ١٢١.

(٤) المقنعة للشيخ المفيد: ص ١٤٠، ط مؤسسة النشر الإسلامي.

(٥) وسائل الشيعة: ج ٦، ص ٤٤٣، ط مؤسسة آل البيت عليهم السلام.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

(٧) سورة الأحزاب، الآية: ٣٥.

(٨) وسائل الشيعة: ج ٦، ص ٤٤٧، ط مؤسسة آل البيت عليهم السلام.

الزّهراء عليها السلام وأنَّها هي المعنيّة في الذكر قبل الذّكر ذاته، وما الذّكر إلا وسيلة لإدراك كنه سيّدة النساء عليها السلام.

ثانيًا: ألفاظ الذّكر نفسها فيها ثواب عظيم إذا قالها بشرطها وشروطها، التّهليل والتّحميد والتّكبير:

مثلاً الحمد هو أحبّ الأعمال لله تعالى، فقد روى الكليني في الكافي عن محمد بن مروان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام أيّ الأعمال أحبّ إلى الله عزّ وجل؟

قال: «أن تحمده، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يُكثر من الحمد في الصباح والمساء» [1].

والتكبير شعار المسلمين أيضًا لأنَّه ورد في الأذان عدّة مرّات، وكذلك في الإقامة للصلاة، وبدء الصلاة والإحرام بها يكون بالتكبير، وكذلك الانتقال من فعل إلى آخر في الصلاة يكون بالتكبير، وقد ورد في فضله أنَّه قُرن بالتهليل في الفضل في بعض الروايات، حيث: «ليس شيء أحب إلى الله تعالى من التهليل والتكبير، وأنّ ثمنه الجنة، وأنَّه يُكفّر الذّنوب»[2] .

ثالثًا: إنَّ الثَّواب عند الله سبحانه وتعالى لا حدود له، ومشكلة الإنسان أنَّه يقيس المعادلات الإلهية بمقاييسه هو وهي مقاييس صغيرة وحقيرة للغاية. وهناك مشكلة أخرى وهي أنَّنا لا نعرف كيفية الارتباط بين الفعل الإنساني والجزاء الإلهي، نعم نعرف أنَّ هناك ارتباطًا بينهما وأنَّ ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾[3] لكن أيّ عمل هو الأفضل جزاء عند الله، هل هو الأطول زمانًا؟ أو الأكثر تكلفة؟ أو الأصدق نيَّة أو غير ذلك؟ فقد نرى في بعض المواقع أنَّ عملاً لا يستغرق سوى وقت قصير ومع ذلك يترتّب عليه ذلك الثواب العظيم، وقد نرى عملاً من أعمال الجوانح والقلوب، وهي لا تحتاج إلى بذل جهد ظاهري كبير، أفضل من حيث الثواب [من عمل من أعمال الجوارح والأعضاء مما يُبذل لأجله جهدٌ كبيرٌ.. وهكذا. فنحن لا نعرف ذلك إلا من خلال الإخبار الإلهي بواسطة الوحي .

ولذلك يتعجّب الإنسان من مثل هذه الرّوايات لأنَّها تأتي في سياق خارج مقاييسه، فهو محدود وهي لا حدود لها، وهو بخيل وهي في نهاية الكرم.. ومن جهة أخرى هو لا يستطيع إدراك قيمة هذه الأمور عند الله.

رابعًا: إنَّ هذه الآثار المذكورة هي عادة على نحو الاقتضاء في التَّأثير وليست بنحو العلّيّة التّامّة، وإنَّما تقول أنَّ هذه الآثار تترتّب على تلك المقدِّمات ما لم يمنع مانع من تأثيرها، أو يلغي فاعليتها . وهذا أمر يمكن ملاحظته في الحياة العامّة للإنسان فهو يذهب إلى الطبيب ويصف له دواءً رافعًا للمرض المعيّن، ولكن ذلك ليس على نحو الحتم والعلّيّة التّامّة وإنَّما ذلك الدّواء يقتضي أن يرفع المرض وآثاره ما لم يكن هناك مانع عن تأثيره كتناول

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ١ / ٣٨٠.

(٢) المصدر نفسه: ١٥ / ٤٣١.

(٣) سورة الزلزلة (٩٩)، الآية: ٧ و ٨

أدوية مضادّة لتأثير الأولى.

خامسًا: إنَّه لا يمكن التّمسّك بإطلاق هذه الرّوايات، بل لا بُدّ من حملها على المقيّدات، والنّظر إلى سائر القرائن.

وإنَّما ينبغي النظر إلى سائر الرّوايات والنّصوص الإسلامية الأخر التي تكون بمثابة القرينة على المقصود من هذه الرّوايات التي بين أيدينا، ويستفاد من سائر الرّوايات مثلاً: أنَّ القائل لهذا الذّكر لا بُدَّ أن يكون معتقدًا به ولو على نحو الإجمال.

سادسًا: إنَّه قد ينطبق عنوان ما على فعل من الأفعال، فيكون ذلك الفعل علامة الإيمان ومظهر الدّين، وحينئذ فلا ينبغي التعامل مع الفعل بذاته وإنَّما بما يرمز إليه ويدل عليه، فإنَّ (شق سنام النّاقة في قران الحج أو تعليق نعل في رقبتها) أمر لو نظر إليه في حدود الفعل نفسه لم يكن شيئًا مهمًّا، ولكن حين يكون عنوانًا لشعائر الله، لا يجوز لأحد حينئذ إحلاله كما قال القرآن (**لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ**)[1] وحين يكون فعل من الأفعال عنوانًا لشخصيّة الإنسان، أو كاشفًا عن عمق الإيمان فإنَّه يثاب بمقدار أهمّيّة المنكشف لا بمقدار قلّة الكاشف . إنَّ دمعة ندم واستغفار من مذنب في جوف الليل قد تستوجب من الثواب أضعاف ما يستوجبه مقدار كبير من النّوافل والصلوات المستحبة التي تتجاوز تلك الدمعة من حيث وقتها وزمانها. وإنَّ قول (لا إله إلا الله ومحمد رسول الله) بما هو إعلان للإيمان وكفر بالطواغيت يمهّد الطريق للمرء للوصول إلى الجنان. ويحقن بواسطته دم القائل ويصون ماله وعرضه، وينقله من الظّلمات إلى النور، مع أنَّه لا يستغرق من حيث الزمان إلا شيئًا يسيرًا، ولكنه يعني الانتقال من عبادة غير الله إلى عبادة الله. فيعطي للقائل جميع حقوق الإنسان المسلم ويساويه بذلك الذي عبد الله منذ صغره وقام بالنّوافل.

شروط التّسبيح

١ - **التّوجّه في التّسبيح:** التّوجّه هو شرط مهم في جميع العبادات حتى المستحبّة منها وفي تسبيح الزهراء ﷺ بالطبع مؤكّد، وبدون الخشوع لعلّه يصبح التّسبيح لقلقة لسان ولعلّه لا يستفيد الشخص من بركاته.

٢ - **المباشرة بالتسبيح بعد الصّلاة:** أي بعد التسليم مباشرة ولهذا أسرارٌ وفوائد أيضاً.

يقول الشيخ البهائي في هذا الشأن: «... وليكن جلوسك في التعقيب متّصلاً بجلوسك في التشهد وعلى تلك الهيئة من الاستقبال، والتورُّك، واترك في أثنائه الكلام والتلفت ونحوهما، فقد روي «أنَّ ما يضرّ بالصلاة

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢

يضرّ بالتعقيب»[1].

٣- الموالاة في التسبيح: أي عدم الفصل والقطع بين الأذكار وهذا سرٌّ من أسرار هذا التسبيح المبارك، يروي الشيخ الكليني في كتابه فروع الكافي، عن محمد بن جعفر أنَّه قال:

« عن أبي عبد الله عليه السلام أنه كان يسبح تسبيح فاطمة عليها السلام فيصله ولا يقطعه»[2].

٤-إذا شك في عدد التكبيرات أو التسبيحات أو التحميدات بنى على الاقل إن لم يتجاوز المحل، وإلا بنى على الإتيان به، وإن زاد على الأعداد بنى عليها ورفع اليد عن الزائد[3].

٥- يستحب التّسبيح بالسّبحة المتّخذة من تربة الحسين عليه السلام.

قال الإمام الصادق عليه السلام: « من أدار سبحة من تربة الحسين عليه السلام مرّة واحدة بالاستغفار أو غيره كتب الله له سبعين مرّة»[4].

أوقاته

يستحب أن يُسبِّحَ الإنسان بتسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام في الأوقات التالية:

١. بعد كلّ صلاة فريضة مباشرةً وقبل أن يثني المصلّي رجله أو يبسطها، أي يبدأ بتسبيح فاطمة عليها السلام وهو على هيأة المصلّي وعلى جلسته بعد التسليم، فقد رُوِيَ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ سِنَانٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: «مَنْ سَبَّحَ تَسْبِيحَ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ عليها السلام قَبْلَ أَنْ يَثْنِيَ رِجْلَيْهِ مِنْ صَلَاةِ الْفَرِيضَةِ غَفَرَ اللهُ لَهُ، وَلْيَبْدَأْ بِالتَّكْبِيرِ»[5].

وفي رواية أخرى عن عَبْدِ الله بْنِ سِنَانٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام، قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَنْ سَبَّحَ تَسْبِيحَ فَاطِمَةَ فِي دُبُرِ الْمَكْتُوبَةِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْسُطَ رِجْلَيْهِ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ الْجَنَّةَ»[6] .

٢. قبل النوم، فعَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «تَسْبِيحُ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ عليها السلام، إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ فَكَبِّرِ اللهَ أَرْبَعاً وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدْهُ ثَلَاثاً وَثَلَاثِينَ، وَسَبِّحْهُ ثَلَاثاً وَثَلَاثِينَ، وَتَقْرَأُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَعَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ الصَّافَّاتِ، وَعَشْراً مِنْ آخِرِهَا»[7] .

---

(١) مفتاح الفلاح ١٧٨. وسائل الشيعة: ٦٤٥٨.

(٢) فروع الكافي، ص٣٤٢.

(٣) منهاج الصالحين/ السيد السيستاني/ باب التعقيبات/ المسألة ٢٠.

(٤) وسائل الشيعة: ٤، ١٠٣٣.

(٥) الكافي: ٣/ ٣٤٢، للشيخ أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكُليني، المُلَقَّب بثقة الإسلام، المتوفى سنة: ٣٢٩ هجرية، طبعة دار الكتب الإسلامية، سنة: ١٣٦٥ هجرية/ شمسية، طهران/ إيران.

(٦) بحار الأنوار (الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام): ٨٢ / ٣٣٢، للعلامة الشيخ محمد باقر المجلسي، المولود بإصفهان سنة: ١٠٣٧، و المتوفى بها سنة: ١١١٠ هجرية، طبعة مؤسسة الوفاء، بيروت/ لبنان، سنة: ١٤١٤ هجرية.

(٧) الكافي: ٢ / ٥٣٦.

٣. للشفاء من الأمراض، فقد رُوِيَ أَنَّهُ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام وَكَلَّمَهُ فَلَمْ يَسْمَعْ كَلَامَ أَبِي عَبْدِ اللهِ، وَشَكَا إِلَيْهِ ثِقْلًا فِي أُذُنَيْهِ.

فَقَالَ لَهُ: «مَا يَمْنَعُكَ، أَوْ أَيْنَ أَنْتَ مِنْ تَسْبِيحِ فَاطِمَةَ عليها السلام»؟!

فَقَالَ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، وَمَا تَسْبِيحُ فَاطِمَةَ؟

فَقَالَ: «تُكَبِّرُ اللهَ أَرْبَعاً وَثَلَاثِينَ، وَتُحَمِّدُ اللهَ ثَلَاثاً وَثَلَاثِينَ، وَتُسَبِّحُ اللهَ ثَلَاثاً وَثَلَاثِينَ، تَمَامَ الْمِائَةِ».

قَالَ: فَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ إِلَّا يَسِيراً حَتَّى ذَهَبَ عَنِّي مَا كُنْتُ أَجِدُهُ[1].

٤. لطرد الشيطان، ولطلب الغفران من الله والحصول على رضوانه، فقد رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: «مَنْ سَبَّحَ تَسْبِيحَ فَاطِمَةَ عليها السلام ثُمَّ اسْتَغْفَرَ غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ، وَتَطْرُدُ الشَّيْطَانَ وَتُرْضِي الرَّحْمَنَ» [2].

سبحة فاطمة عليها السلام:

روي أنَّ فاطمة عليها السلام كانت سبحتها من خيط صوف مُفتل معقود عليه فكانت تديرها بيدها تُكبر وتُسبح إلى أن استشهد حمزة بن عبد المطلب -رضي الله عنه- فاستعملت تربته وعملت التسابيح فاستعملها الناس.

وقيل: كانت سبحتها من خيط معقود عليه بعدد التَّكبير وبعد أن استشهد حمزة استعلمت حبّات من تربته، وجرا الناس على ذلك[3].

وكانت فاطمة بعد شهادة حمزة تزور قبره، وترش عليه الماء وتصلحه وتُرمِّمه وذلك في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله.

أقوال العلماء فيه:

١ ـ قال الشيخ: محمد حسن النجفي -قدس سره- ما نصه:

[ما عُبد اللهُ بشيء من التحميد أفضل منه، ولو كان شيء أفضل منه لَنَحَلهُ رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة، وبه يندرج العبد في الذاكرين الله كثيرًا، ويستحق ذكر الله له تعالى كما وعد بقوله: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)] [4].

٢ ـ قال السيد: محسن الحكيم -قدس سره- وهو يتحدَّث عن التعقيب بعد الصلاة:

[وأفضله تسبيح الزهراء عليها السلام وهو التكبير أربعًا وثلاثين، ثم الحمد ثلاثًا وثلاثين، ثم التسبيح ثلاثًا

---

(١) مشكاة الأنوار في غرر الأخبار: ٢٧٨، لعلي بن الحسن الطبرسي، المتوفى سنة: ٦٠٠ هجرية، الطبعة الثانية سنة: ١٣٨٥ هجرية، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف/ العراق.

(٢) وسائل الشيعة (تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة): ٦ / ٤٤٢، للشيخ محمد بن الحسن بن علي، المعروف بالحُر العاملي، المولود سنة: ١٠٣٣ هجرية بجبل عامل لبنان، والمتوفى سنة: ١١٠٤ هجرية بمشهد الإمام الرضا عليه السلام والمدفون بها، طبعة: مؤسسة آل البيت، سنة: ١٤٠٩ هجرية، قم/ إيران.

(٣) مفاتيح الجنان: ٧٠٣.

(٤) جواهر الكلام: ١٠ / ٣٩٦.

وثلاثين][1] .

٣ ـ قال السيد: أبو القاسم الخوئي -قدس سره-:

[وأفضل التعقيب تسبيح الزهراء ﷺ بعد الفراغ من الصلاة][2] .

٤ ـ قال السيد: عبد الأعلى السبزواري -قدس سره-:

[وأفضل التعقيبات تسبيح الزهراء ﷺ الذي ما عُبد الله بشيء من التحميد أفضل منه، وأنَّه في كلّ يوم في دبر كلِّ صلاة أفضل من صلاة ألف ركعة، كما ورد عن -الإمام- الصادقﷺ، بل هو مستحب في نفسه وأن لم يكن في التعقيب][3] .

٥ ـ قال السيد علي الحسيني السيستاني -دام ظلّه-: [التعقيب هو الاشتغال بعد الفراغ من الصلاة بالذكر والدعاء وأفضله تسبيح الزهراء ﷺ وهو التكبير أربع وثلاثين، ثم الحمد ثلاثًا وثلاثين، ثم التسبيح ثلاثًا وثلاثين] [4].

٧ ـ قال السيد محمد سعيد الحكيم -دام ظله-:

[من التعقيب تسبيح الزهراء ﷺ وهو: الله أكبر أربعًا وثلاثين، ثم الحمد ثلاثًا وثلاثين، ثم سبحان الله ثلاثًا وثلاثين، وأن يختمه بقول: لا إله إلا الله] [5].

التسبيح بتربة الإمام الحسين ﷺ:

كانت سيدة النساء فاطمة الزهراء ﷺ بعد شهادة حمزة بن عبد المطلب في معركة أحد استعملت حبّات من تربته وجرى الناس على ذلك إلى أن استشهد أبو عبد الله الحسين ﷺ بكربلاء سنة: (٦١ هـ) فعدل الناس إلى تربته لما فيها من المزايا، وقد أشارت روايات أهل البيت ﷺ إلى ذلك وهي:

١ ـ قال الإمام جعفر الصادق ﷺ: «من أدار الحجر من تربة الحسين فاستغفر به مرة واحدة كتب له الله أجر سبعين مرّة، وأن السّجود على تربة الحسين يخرق الحجب السبع»[6].

٢ ـ وقال أيضًا ﷺ: « من سبّح بسبحة من طين قبر الحسين ﷺتسبيحة، كتب الله له اربعمائة حسنة، ومحا عنه

---

(١) منهاج الصالحين: ١ / ١٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٨٢.

(٣) جامع الأحكام الشرعية: ٩٢.

(٤) منهاج الصالحين: ١ / ٢٣٠.

(٥) الأحكام الفقهية: ١٠٤.

(٦) وسائل الشيعة: ٤ - ١٠٣٣.

أربعمائة سيّئة، وقضيت له أربعمائة حاجة، ورفع له أربعمائة درجة»[1].

٣ـ قال الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «لا يخلو المؤمن من خمسة: سواك، ومشط، وسجادة، وسبحة فيها أربع وثلاثون حبة، وخاتم عقيق»[2].

٤ ـ وعن الإمام المهدي المنتظر عليه السلام قال: «من نسي الذكر وفي يده سبحة من تربة الحسين كتب له أجر»[3].

إنَّ تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام من المستحبّات المؤكّدة، وهو ذو أهمية خاصّة لدى الأئمة عليهم السلام وفقهاء الشيعة، وقد ورد في القرآن الكريم، وروايات المعصومين -صلوات الله عليهم-، ومع أنَّ هذا التسبيح يُعد من العبادات السهلة والبسيطة، إلّا أنَّ له آثارًا وبركات وفضائل عديدة..

---

(١) الباقيات الصالحات: ١٧.

(٢) مفاتيح الجنان: ٧٠٤.

(٣) الباقيات الصالحات: ١٧.

أسباب ظاهرة العنف في العالم العربي

الشيخ محمد محفوظ

من البديهي القول: إنَّنا معاً نقف ضد الإرهاب، ونستنكر أيّة ممارسة إرهابية وعنف، بصرف النَّظر عن موجباتها وغاياتها. فالعنف مرفوض مهما كانت دوافعه، والإرهاب آفة لا سبيل لتسويغها، وينبغي محاربتها في جذورها وأشكالها.

ولكن السّؤال: هل الاستنكار بوحده كافٍ لإنهاء هذه الآفة؟ إنَّنا نعتقد أن الاستنكار بوحده لا يُنهي الآفة، وإنَّ المطلوب هو فهم هذه الظاهرة فهمًا دقيقًا وعميقًا وصولاً لبلورة استراتيجية ومشروع وطني متكامل، يستهدف إنهاء هذه الظاهرة من جذورها.

وهذه الدراسة، محاولة لفهم وتفسير هذه الظاهرة. وهنا ينبغي أن نفرّق بين محاولة الفهم ومحاولة التبرير. فإنَّنا نعمل على فهم هذه الظاهرة ولا نبرّرها. ونرفض العنف والإرهاب مهما كانت دوافعه وغاياته.

ولكن المطلوب في هذه اللحظة فهم وتفسير الظاهرة. وما سنقوله محاولة في الفهم والتفسير، ونرفض رفضًا قاطعًا تبرير الإرهاب أو تسويغ العنف. فنحن دينيّاً وأخلاقيّاً وإنسانيّاً ووطنيّاً، نقف ضدّ كلّ أشكال العنف والإرهاب، ولا نرتضيه، ونعمل معًا من أجل إنهائه من فضائنا ووطننا.

*** في معنى العنف**

العنف كأيّ ظاهرة مجتمعية، هو بحاجة إلى تعريف دقيق، وتحديد علمي ومعرفي لمسبّباته وعوامله وموجباته، وذلك لأنَّنا لا يمكن أن نحدّد طبيعة الجذور والعوامل التي أفرزت هذه الظاهرة دون تفسيرها تفسيرًا علميًّا دقيقًا.

المعنى اللغوي

العنف في معناه اللغوي ضد الرفق، وعنفوان الشيء: أوّله، وهو في عنفوان شبابه: أي قوّته، وعنَّفه تعنيفًا: لامه وعتب عليه[1]. مما يعني أنَّ العنف ضدّ الرّأفة متمثّلًا في استخدام القوة القولية أو الفعلية ضدّ شخص آخر.

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للرافعي، مادة عنف ص ٥١٦، الجزء الثاني، المطبعة الكبرى الأميرية، ١٩٠٦م.

وقد جاءت بعض الأحاديث النَّبويّة الشريفة لتجعل الرّفق مقابل العنف؛ فقال ﷺ: « إنَّ الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه»[١].

وقال ﷺ: « من يحرم الرفق يُحرم الخير»[٢].

فالعنف في اللغة: هو كلّ قول أو فعل ضدّ الرّأفة والرّفق واللين.

المعنى القانوني

وفي إطار التشريعات الجنائيّة، تصدّى فقهاء القانون الجنائي لتعريف العنف[٣] في إطار نظريتين تتنازعان مفهوم العنف: النظرية التقليدية، حيث تأخذ بالقوى المادّيّة بالتركيز على ممارسة القوة الجسديّة. أمَّا النّظرية الحديثة -والتي لها السيادة في الفقه الجنائي المعاصر- فتأخذ بالضّغط والإكراه الإرادي، دون تركيز على الوسيلة، وإنَّما على نتيجة متمثّلة في إجبار إرادة الغير بوسائل معيّنة على إتيان تصرّف معيّن.

وعلى ضوء ما سبق عرَّف بعضهم العنف بأنَّه الماسُّ بسلامة الجسم ولو لم يكن جسيمًا بل كان صورة تعدٍّ وإيذاء[٤].

كما يعرّفه آخر بأنَّه: تجسيد الطاقة أو القوى المادّيّة في الإضرار المادّي بشخص آخر[٥]. بينما يعرّفه آخر بأنَّه الجرائم التي تستخدم فيها أيّة وسيلة تتّسم بالشّدّة للاعتداء على شخص الإنسان أو عِرضه، ولا يتحقق العنف في جرائم الاعتداء على الأموال إلا باستخدام الوسائل المادية[٦].

وعليه، فإنَّ تعريف العنف في التشريعات الجنائية: هو كلّ مساس بسلامة جسم المجني عليه، من شأنه إلحاق الإيذاء به والتّعدّي عليه.

العنف من منظور إسلاميّ

عند تتبع أقوال العلماء والفقهاء لتحديد معنى العنف فقهيًّا نجد أن الفقهاء -بكلِّ طبقاتهم وأطوارهم التاريخية- لم يميّزوا بين مقولة الإكراه ومقولة العنف؛ فهما تستعملان بوصفهما من المترادفات.

---

(١) رواه مسلم في صحيحة برقم (٢٥٩٣).

(٢) رواه مسلم عن جرير، برقم (٢٥٩٢).

(٣) الدكتور أبو الوفا محمد أبو الوفا إبراهيم، البعد الجنائي للعنف في الجرائم الإرهابية في القانون المقارن والفقه الإسلامي، ص ١١. ورقة مقدمة إلى ندوة ظاهرة العنف في مواجهة الآثار إلى معالجة الأسباب ١٧ - ١٨ مايو ٢٠٠٤م، جامعة قطر.

(٤) محمود نجيب حسني، شرح قانون العقوبات، القسم الخاص، برقم ٧٠٧، ص ٥٩٩، القاهرة، دار النهضة العربية ١٩٨٦م.

(٥) محمد سلامة، إجرام العنف، مجلة القانون والاقتصاد، ص ٢٧٠، السنة الرابعة والأربعون، العدد الثاني، ١٩٧٤م.

(٦) محمد فتحي عيد، الإجرام المعاصر، ص ٥٨، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض ١٩٩٩م.

فقد عرّف السرخسي الإكراه بأنَّه: فعل يفعله المرء بغيره، فينفي به رضاه أو يفسد به اختياره[1].

وفي هذا الاتجاه نفسه، عرَّف الإمام الشَّافعي الإكراه: أن يصير الرجل في يدي من لا يقدر على الامتناع منه من سلطان أو لصّ أو متغلِّب على واحد من هؤلاء، ويكون المكرَه يخاف خوفًا عليه أنَّه إن امتنع من قبول ما أُمِرَ به يبلغ به الضّرب المؤلم أكثرَ منه أو إتلاف نفسه[2].

والرَّأي الغالب لدى الفقهاء: أنَّ الإكراه قد يكون مادّيًّا عندما يكون الوعيد والتّهديد منتظر الوقوع[3].

وعليه فإنَّ التهديد يعدّ عنفًا إذا سبّب ضررًا جسمانيًّا للمجني عليه، بخلاف ما يقف عند حدّ الضغط على إرادة المجني عليه، فإنّه يكون إكراهًا فحسب.

«تطبيقاً لذلك، يُعدّ من قبيل العنف المستوجب للعقاب متمثّلاً في القصاص: من منع الطّعام أو الشّراب، ولو قصد بذلك التعذيب، ومن منع فضل مائه مسافر، عالماً بأنه لا يحل منعه، أو أنّه يموت إن لم يسقه، فيقتل به وإن لم يقتله بيده، فظاهره أنَّه يقتل به سواء قصد بمنعه قتله أو تعذيبه، كما أنَّ من منع شخصاً فضل طعام أو شراب حتى مات، فإنَّه يلزمه الدّيّة، ومن قبيل منع الطعام والشراب: الأم تمنع ولدها الرضاع حتى مات، فإن قصدت موته قتلت، وإلا فالدية»[4].

وهكذا نجد أنَّ معنى العنف في الفقه الإسلامي يتحقّق باستعمال وسائل مادّيّة تؤثّر في جسم المجني عليه مباشرة، وتلحق به الأذى، كما يتحقّق بالقول وبالتّهديد وبالترك وبالمنع متى انتهى إلى إلحاق الأذى بجسم المجني عليه.

العنف من منظور اجتماعيّ

يعرّف العنف بأنّه: الإيذاء باليد أو باللسان، أو بالفعل أو بالكلمة، في الحقل التّصادمي مع الآخر، ولا فرق في ذلك بين أن يكون فعل العنف والإيذاء على المستوى الفرديّ أو المستوى الجماعي. فلا يخرج في كلتا الحالتين من ممارسة الإيذاء؛ سواء باللسان أو اليد.

«فالعنف سلوك إيذائي، قوامه إنكار الآخر كقيمة متماثلة للأنا أو للنّحن، كقيمة تستحق الحياة والاحترام، ومن مرتكزه استبعاد الآخر عن حلبة التغالب، إما بخفضه إلى تابع، وإما بنفيه خارج الساحة (إخراجه من اللعبة) وإما بتصفيته معنويًّا أو جسديًّا.

---

(١) المبسوط، ج٢٤، ص٣٨، دار المعرفة، بيروت.

(٢) الأم، ج ٣ ص ٢٣٦ دار المعرفة، بيروت.

(٣) راجع الأشباه والنظائر لابن نجيم الحنفي، ص٢٨٢ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٣م.

(٤) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، ج٤ ص ٢٤٢ مطبعة عيسى البابي الحلبي.

إذن معنى العنف الأساسي في المنظور الاجتماعيّ والسوسيولوجي هو عدم الاعتراف بالآخر، رفضه وتحويله إلى الشيء (المناسب) للحاجة العنفية، إذا جاز الكلام. عدم الاعتراف لا يعني عدم المعرفة، بل يعني معرفة معيّنة (مقولبة) هنا الفاعل العنفي يراقب القابل، يصوّر ويتصوّره بالطَّريقة المناسبة لرسم صورته (الضّحية) وللتحكم بصيرورته»[1].

وعليه، فإنَّ العنف هو واقعة اجتماعية تاريخية، ينتجها الفاعل الفردي (المتسلّط الأَنَوي) مثلما ينتجها الفاعل الجمعي (المتسلط الجمعي) في سباق التّصارع على الامتلاك الأَنَوي أو الجمعي للآخرين، وفي غياب أي انتظام علائقي من النوع الديموقراطي أو المساواتي العضوي.

لذلك تعرف موسوعة الجريمة والعدالة العنف بأنَّه: يشير إلى كلّ صور السلوك؛ سواء كانت فعلية أو تهديدية التي ينتج عنها -أو قد ينتج عنها- تدمير وتحطيم للممتلكات أو إلحاق الأذى أو الموت بالفرد أو الجماعة والمجتمع.

ويعرف (لوكا) في مؤلّفه آليات منطق العنف، العنف بأنَّه «مفهوم يدل على انفجار القوّة التي تعتدي بطريقة مباشرة على الأشخاص وأمتعتهم، سواء كانوا أفرادًا أو جماعات، من أجل السيطرة عليهم عن طريق القتل أو التحطيم أو الإخضاع أو الهزيمة»[2].

فالعنف في المنظور الاجتماعي: هو كل إيذاء بالقول أو بالفعل للآخر، سواء كان هذا الآخر فرداً أو جماعة.

وعملية الإيذاء تارة تكون فرديّة، حيث يقوم شخص ما باستخدام اليد أو اللسان بشكلٍ عنيف تجاه شخص آخر، ويصطلح على هذه العملية بـ(المتسلط الأَنَوي).

وتارة يكون العنف جماعيًّا (المتسلط الجمعي)؛ إذا تقوم مجموعة بشرية، ذات خصائص مشتركة، باستخدام العنف والقوة، وسيلةً من وسائل تحقيق تطلّعاتها الخاصّة، أو تطبيق سياقها الخاص على الواقع الخارجي.

وفي كلتا الحالتين لا تكون ظاهرة العنف والتّعصّب بمعزل عن الموجبات الاجتماعية والمسارات التاريخية، التي خلقت هذه الظاهرة في الوجود الاجتماعي.

لهذا فهي ظاهرة لا تقبل التّبسيط والتّسطيح، لأنَّها وليدة مجموعة عوامل وأدوات مركّبة.

وعلى المستوى النظري والفكري، نجد أنَّ أغلب حالات العنف هي «وليدة معرفيّة تجريدية، على موروث ذهني جاهز، قوالب مصمّمة عن الآخرين: الوثن الذّهني، بكلّ أوّليّاته ومفاعلات ارتباطه، يحلّ أو يقترن

---

(١) مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ٢٧- ٢٨ ص ١٩، خريف ١٩٨٣م مركز الإنماء القومي - بيروت.

(٢) جون لوكا، آليات العنف، في ظاهرة العنف السياسي من منظور مقارن، تحرير وتقديم نيفين عبد المنعم مسعد، ص ٣٣، أعمال الندوة المصرية الفرنسية الخامسة، القاهرة، ١٩-١٢ نوفمبر ١٩٩٣م، مركز البحوث السياسة - القاهرة.

بالوثن المادّي. الآخر يوضع في القالب المجهّز، على منوال قاطع الطّرق الأسطوري، بروكست، الذي كان يخطف (الآخر) من قارعة الطريق، ويضعه فوق سرير (رمز للقالب الجاهز)، فإذا كان المخطوف أطول من سريره ضغطه حتى يتناسب مع طوله، وإذا كان أقصر منه مطّه ليناسبه، وفي الحالين، المخطوف ضحيّة مزدوجة: ضحيّة خيار الفاعل العنفي (الخيار الواعي أو اللاواعي)، وضحيّة أدواته الجاهزة»[1].

والعنف بوصفه ظاهرة فردية أو مجتمعية، هو تعبير عن خلل ما في سياق صانعها، إنْ على المستوى النفسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي. دفعه هذا السياق الذي يعانيه نحو استخدام العنف، متوهّمًا أنَّ خيار العنف والقوة سيوفّر له كلّ متطلّباته، أو سيحقّق له كلّ أهدافه. وفي حقيقة الأمر إنَّ استخدام العنف والقوّة في العلاقات الاجتماعية، تحت أيّ مسوّغ كان، يُعدّ انتهاكاً صريحاً للنواميس الاجتماعية، التي حدّدت نمط التعاطي والتعامل في العلاقات الاجتماعية؛ لأنَّ العنف على المستوى المجتمعي يعني -على حدِّ تعبير خليل أحمد خليل- أن يغتصب (صانع العنف) أدوات صراعية وصدامية، من أجل أن يتمكّن (كما يرى) من البوح برأيه، والتعبير عن مكنون خاطره وفكره... لهذا فإنَّنا نرى العنف من الأسلحة الخطيرة، التي تقوّض كثيرًا من مكاسب المجتمع، وإنجازات الأمّة والوطن؛ لأنَّ العنف بتداعياته المختلفة، وموجباته العميقة والجوهرية، سيصنع جوًّا وظروفاً استثنائية وغير مستقرّة، مما تعرقل الحياة الاجتماعية والسياسية والتّنمويّة.

ونظرة واحدة إلى كثير من البلدان التي تحوّل العنف المضاد إلى ثابتة من ثوابت الفضاء السياسي والمجتمعي فيها، نجد أنَّ العنف بتداعياته ومتوالياته الكثيرة هو أحد الأسباب الرئيسة لإخفاق مشاريع التّنمية الاجتماعية والسياسية؛ لأنَّ عسكرة الحياة المدنية يفرض واقعًا عامًّا ووحيدًا، هو واقع العنف والعنف المضاد؛ لأنَّه حينما تنعدم الحقوق الطّبيعية للحياة الإنسانية المدنية تتحوّل هذه الحقوق إلى سياسة مكبوتة؛ إذ تنزل من ساحة العلن، ومن مجال التفاعل الحر بين الإرادات والمصالح والمثل العامة إلى أقبية الكبت، وتهرب من النّور، وتدخل دهاليز الحرمان. هناك تتابع نموّها غير الطبيعي، دون أيَّة مراقبة مشروعة، ومن هنا كانت صيغة قيام الدولة المتغربة المستعارة كعصبية جديدة تضاف إلى العصبيّات التقليدية، يشل في الواقع نمو المشاركة الجماهيرية الأوسع؛ إذ يبني في النّهاية الدولة - الفئة ضد مشروع الدولة - الأمّة، الذي وحده يناط به إلغاء السلطات التقليدية، وصهرها في بوتقة المشاركة الأشمل. فإنَّ الدولة - الفئة تحرض ضدّها مختلف القوى الفئوية الأخرى التي تجد نفسها مهدّدة في مصالحها الحيوية، وبالتالي فهي مضطرّة للكفاح من أجل بلوغ العنف بطرق العنف المتاحة. هكذا يتعسكر المجتمع بكامل فئاته وطوائفه؛ إذ يأخذ الصراع بينهما شكل الإعدام المتبادل، الذي يحول

(١) مجلة الفكر العربي المعاصر مصدر سابق ص ١٩.

التناقضات الرَّأسية فيه إلى مستوى التناقضات الأفقية، فيقيم الحواجز النّفسية والإيديولوجية الحادّة الحاسمة حتى فوق الأرض الواحدة المشتركة، وبين أبناء المجتمع الواحد، وتفرز هذه الحواجز النفسية والإيديولوجية حدودًا ماديّة واستراتيجية، تحول فئاتها إلى ما يشبه الجيوش المعبّأة بالقوّة أو بالفعل.

وهنا تتحوّل الحياة الاجتماعية في نظر صانع العنف إلى حياة مريضة، تكثر فيها الميكروبات، وتتفشّى فيها الأمراض والأزمات، ويضطرب فيها السّلوك الاجتماعي، وتتشكّل كلّ الظّروف وعوامل الخصب لنمو ظاهرة العنف في العلاقات الاجتماعية.

العنف والثقافة

لعلنا لا نأتي بجديد حين القول: إنَّ هناك ترابطاً عميقاً بين مظاهر العنف وأدواته المستخدمة، والثقافة التي توجّه الإنسان وتتحكّم في سلوكه الخاص والعام.

فالعنف من حيث هو أذى باليد أو باللسان، إنَّما يرتكز على مسوِّغات وطاقات ودوافع يمكن تعيينها في تداؤب الطاقة العنفية وثقافة العنف. فهذا التداؤب أو العلاقة العضوية هي التي تساعدنا على اكتشاف المساحة المشتركة والعلاقة المباشرة بين الثقافة والعنف.

فالإنسان القادر على فعل العنف قادر أيضاً على عدم فعله. وسلوكه هذا مشروط ليس فقط بالقدرة على الفعل، بل متوجّه ومحدود أيضاً بالظروف التي تسمح بالفعل العنفي أو لا تسمح به.

فالفعل العنفي هو نتاج جملة من الحالات والعوامل المتداخلة والمركبة مع بعضها والتي تتّسع للعوامل والشروط الذّاتية، كما تتّسع للعوامل والظروف الموضوعية. فطبيعة الثقافة هي التي تُحدّد -إلى حدّ بعيد- طبيعة فعل اليد أو اللسان؛ فإذا كانت الثقافة عنفيه يتحوّل اللسان إلى أداة للأذى بكلّ صنوفه وأشكاله، واليد إلى ممارسة القتل والتدمير وكل أشكال العنف المادي. أما إذا كانت الثقافة تحتضن مفاهيم الرّفق والعفو والتسامح؛ فإنَّ اللسان يتحوّل إلى مبشّر بهذه القيم والمضامين، وتكون اليد مِعطاءة ومبادرة لفعل الخير.

«فالفعل العنفي هو نتاج لحالات من التّوتر الفارد أو الجامع، وفي كلّ فعل يتلازم الخير والشر، اللاعنف والعنف، إذا أخذنا بالحسبان وضع الفاعل والقابل، ونسبة الفعل وتفسيره. وحتى لانخفض السلوك العنفي إلى مجرّد مقولة أو مصادرة فلسفية، نقول: إنَّه ظاهرة اجتماعية واقعة، تجد تفسيرها في التاريخ الإنساني ذاته، وفي تواجه الطاقات النفسانية والاجتماعية والاقتصادية، أي طاقات القوة نحو تنازع الوجود وتغالب الإرادات ومما لا ريب فيه أنَّ الفرد أو الجماعة يكتسبان السلوك العنفي/ اللاعنفي من خلال الثقافة التي توجّه المجتمع،

وتحكمه أو لا تحكمه من خلال أدوات الضّبط العنفي ومعايير السلوك وقيم السياسة»[1].

فالمحبط أو العاجز أو المخفق، بصرف النظر عن دوافع وأسباب ومستويات الإحباط أو العجز أو الإخفاق، فإنَّه سيجد نفسه بحاجة إلى اكتشاف أو تصوّر مسوّغ للحالة التي يعيشها. ومثل هذا المسوّغ يجده في التاريخ، وفي التراث في السياسة، وفي الراهن لدى آخرين، لكنه يعبّر عنه، في كلّ الحالات، من خلال ثقافته.

من هنا تبرز أمامنا مظاهر العنف، في الخطاب والرّؤية الثقافية، كاغتيال الشيء بواسطة الكلمة (اغتيال الشخص انطلاقًا من اغتيال سمعته، صفاته، معاييره، قيمه.. الخ).

فالعنف بوصفه ظاهرة مجتمعية، له جذوره الثّقافية، وموجباته المعرفية، ولا يمكن معرفة هذه الظاهرة حقّ المعرفة إلا من خلال معرفة الجذور والحواضن الثقافية للعنف.

العنف والعدوان

على المستوى الواقعي يتداخل مفهوم العنف مع مفهوم العدوان؛ بحيث من الصعوبة بمكان تحديد المتمايزات الدقيقة بين العنف والعدوان.

فالعدوان يُعرف بأنَّه مجموعة متنوّعة من مظاهر السلوك تراوح بين مجرد إغاظة الآخرين، أو إبداء العداوة نحوهم إلى الاعتداء الفيزيقي.

ويشير (زيلمان) في مؤلّفة العداوة والعدوان إلى تعريف العدوان بأنَّه «نشاط يسعى من خلاله شخص أن يحدث أذى جسمانيًّا أو ألمًا فيزيقيًّا لشخص آخر، يكون مدفوعًا إلى تجنّب هذا السلوك، أو أنَّه سلوك يحاول أن يحقق هدفاً معيّنًا يتحدّد في إيذاء شخصٍ آخر»[2].

ومن خلال التعريفات المذكورة آنفًا للعنف، نستطيع القول: إنَّ بعض تعريفات العدوان، هي بعض مضامين العنف.

من هنا نستطيع القول: إنَّ العدوان من المفاهيم العامَّة التي تستوعب غيره من أنواع السلوك الإنساني. وبتعبير أدق؛ فإنَّ العنف هو السلوك البارز والظّاهر لميل الإنسان الفرد أو الجماعة الكامن للعدوان.

العنف والإرهاب

من الصّعوبة بمكان أيضًا تحديد الفروقات الدّقيقة بين مفهومي العنف والإرهاب؛ إذ إنَّ مضمونها واحد. لعل الفرق الدقيق بينهما يعود إلى الدّوافع والأهداف المرجوّة من فعل العنف، أو فعل الإرهاب.

---

(١) مجلة الفكر العربي المعاصر ص ٢٥.

(٢) راجع دراسة علي أحمد الطراح، العنف والتطرف والإرهاب بمجتمعات الخليج بين الواقع المأزوم والمشروع الوطني لنزع فتيل الأزمة، ورقة مقدمة لندوة ظاهرة العنف في مواجهة الآثار إلى معالجة الأسباب ١٧ - ١٨ مايو ٢٠٠٤ - جامعة قطر.

فالإرهاب سلوك تنظر إليه معظم النظم السياسية على أنَّه صورة من صور الجريمة المنظّمة، وهو يرتبط بعملية تخويف أو ترويع للعامة.

وغالباً ما يعرف الإرهاب[1] على أنَّه أفعال الجماعات المنشقّة عن النّظم السّياسية أو التيار العام في المجتمع الذي يوجّه أفعاله ضدّ نظم سياسيّة معيّنة، أو رموز هذه النّظم، من أجل إحداث تغيير يتّفق وأهداف هذه الجماعات. ويختلط مفهوم الإرهاب بهذا المعنى مع مفهوم العنف السّياسي الذي يرتبط بالأفعال المنظّمة التي تهدّد النّظم السياسيّة، وقد يختلط الإرهاب بالعنف السياسي عندما يصبح التّعبير عن الرّأي السّياسي إرهابًا، ومع ذلك فإنَّ هناك ميلاً إلى وضع خطوط تميّز الإرهاب عن العنف السياسي. على أنَّ الإرهاب يرتبط بفكرة بثّ الرّعب والخوف في نفوس الأفراد والجماعات؛ فالعنف السياسي إذا تحوّل إلى فعل يهدّد الجماهير، ويعرّض حياتهم للخطر، فإنَّه يتحوّل إلى إرهاب تصبح الضّحية معمّمة، وتصبح حياة أيّ فرد في المجتمع مهدَّدة بالخطر.

وجماع القول: إنَّنا نصل ومن خلال هذه التعريفات الموجزة لظاهرة العنف وعلاقاتها المختلفة، على أنَّها من الظواهر المجتمعية السّيّئة والخطيرة، والتي تتطلّب العمل من مختلف المواقع لإنهاء أسبابها والقضاء على موجباتها، وتفكيك بيئاتها المخصبة والمولدة.

*** أسباب العنف في الوطن العربي**

إنَّ العنف، بكلِّ مستوياته وأشكاله، ليس وليد الصّدفة أو الفضاء المجرد، وإنَّما هو نتاج عوامل وأسباب عديدة. من أهم العوامل والأسباب التي تؤدِّي إلى نشوء ظاهرة العنف وبروزها في الفضاء الاجتماعي والسياسي العربي هي:

١ - الأسباب الدِّينية - الثَّقافية

إنَّ مشهد العنف المعاصر في الفضاء العربي تقوده جماعات وتنظيمات تنتسب إلى الإسلام، وترفعه شعارًا ومشروعًا لأجندتها وأهدافها. وحين التّأمّل العميق في هذه الظاهرة، نكتشف أنَّ القراءة الدينية أو الفهم الديني لهذه الجماعات، هو عامل من عوامل جنوح هؤلاء إلى الأخذ بأسلوب العنف. و"ليس معنى هذا -ولا ينبغي أن يفهم منه- أنَّ العنف يجد جذوره أو مرجعه في العقيدة الإسلامية على نحو ما يذهب إلى ذلك كثيرون! بل معناه أنَّ نسق القيم المتشبّع بالدين -لدى المجتمعات العربية- يجد نفسه أحيانًا في صراعٍ مع منظومات جديدة من القيم، ويجد عسرًا في التّكيّف معها، فيرجمها قسم من المجتمع بالبدعة والانحراف عن محجة النّظام الديني والأخلاقي، فيما يجنح بعض منهم إلى انتداب النفس لدور رسولي، فتراه يكفّر المجتمع

(١) راجع دراسة علي أحمد الطراح، العنف والتطرف والإرهاب بمجتمعات الخليج بين الواقع المأزوم والمشروع الوطني لنزع فتيل الأزمة، ورقة مقدمة لندوة ظاهرة العنف في مواجهة الآثار إلى معالجة الأسباب ١٧ - ١٨ مايو ٢٠٠٤ - جامعة قطر.

الجاهلي الجديد، بعد تكفيره الدولة، ينصرف إلى إنفاذ الأمر الإلهي بوجوب إقامة الحدّ على الضَّلال، وتحديدًا من عتبته القصية: الجهاد. ومع أنَّه لم يحصل أن وقع -أو انعقد- إجماع بين سائر الإسلاميين العرب على وجوب النّهوض بـ(الفريضة الغائبة) أي الجهاد ضدّ الدّولة والمجتمع. بل على الرغم من تصدي مثقفين إسلاميين وعلماء دين كبار لمهمة دحض دعوى الجهاد ضدّ المسلمين تحت أي ظرف، وعدّها شططًا وغلواء في النظر إلى الدين واستقراء أحكامه، إلا أنَّ ذلك لم يغير من الحقيقة شيئاً.. والحقيقة هي أنَّ دم الناس يسفك يوميًّا بفتاوى رجال يشك في مدى حجيتهم الدّينية، وفي أنَّ الذي أرادوه جهادًا بات ينذر بالصيرورة فتنة"[1].

وليس من شكّ أنَّ هذه الرؤية المتطرّفة تتغذى من طبيعة الاختيارات السِّياسيّة والاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة في الاجتماع العربي المعاصر.

هذه الاختيارات التي تركت تأثيراتها العميقة في الفضاء العربي على المستويات النفسية والاجتماعية والثقافية، مما دفع بعض الناس إلى الانكفاء والعزلة وبناء جزر اجتماعية معزولة عن الفضاء العام. وكانت هذه الجزر وهذه العزلة تتغذى باستمرار من رؤية دينية ضيّقة تسوِّغ هذا الخيار، وهذه الممارسة، وتشرّع لعملية الرفض بكلِّ صوره للواقع القائم بكلّ خياراته ووقائعه.

من هنا لا علاقة للدين بالأمر إلّا من حيث هو نصوص ووقائع قابلة للتأويل، أمَّا إذا كان ثمّة خلل، فالبحث فيه ينبغي أن ينصرف إلى صاحب التّأويل، وإلى ظروف هذا التأويل.

والذي يزيد من تعميق هذا الخلل في الفضاء العربي بكلِّ مستوياته، هو طبيعة الثقافة السائدة وخياراتها العامة؛ حيث إنَّها ثقافة ترفض التّعدّديّة وحقّ الاختلاف، وتكتفي من التّقدّم الإنساني والحداثة بالقشور، فيما تنغمس في إقامة أمر المجتمعات العربية على مقتضى قواعد الاختزال والاستبداد.

والمجتمعات العربية والمسلمة ليست فريدة من نوعها من حيث تركيبتها الاجتماعية والثقافية ومن حيث التّنوّع والتّعدّد، ولكن ما يميز هذه المجتمعات عن سواها هو أنَّ هذه التراكيب الاجتماعية المتنوّعة حافظت من الداخل على انغلاقها وانكفائها، فحدَّت بذلك من إمكانات التفاعل والتعايش.

والثقافة التي تغذِّي هذه الخيارات التي تُمارس المفاصلة، وتشرع للانكفاء، هي من البيئات الخصبة لتبلور خيار الإقصاء والعنف.

وعليه؛ فإنَّ من الأسباب الأساسيّة لبروز ظاهرة العنف في المجال العربي - الإسلامي، هو طبيعة الرّؤية الدينية التي تنظر إلى الواقع والرَّاهن برؤية تشاؤميّة، سوداوية، وترفض التّنوّع، وتحارب الانفتاح والتّقدّم،

(١) عبدالإله بلقزيز، العنف والديموقراطية، ص ٤٨، سلسة تصدر عن جريدة الزمن المغربية، مايو ١٩٩٩م.

ترى نفسها هي القابضة وحدها على الحق والحقيقة.

إنَّ هذه الرؤية التي لا ترى إلا نفسها قابضة على الحقيقة تختزن إمكانية هائلة لممارسة النبذ والإقصاء والعنف تجاه المختلف والمغاير، سواء كان هذا فردًا أو جماعة.

فالجماعات الدِّينيّة التي كفّرت الدولة والمجتمع، وحاربت الجميع بحجّة أنَّهم جميعًا خرجوا عن مقتضيات الصّراط المستقيم، هي جماعات تحمل رؤية أحادية وضيّقة للمجتمع والحياة بكلِّ حقائقها ووقائعها. هذه الرؤية هي التي تقود هذه الجماعات عبر متواليات نفسيّة وعقدية لممارسة العنف والنبذ تجاه الآخرين.

كما أنَّ الثقافة السياسية والاجتماعية، التي تنبذ حقّ الاختلاف، وتحارب التّنوّع، وتؤلِّه القوّة بعيدًا عن مقتضيات الحق، هي أيضًا بيئة خصبة لإنتاج ظاهرة العنف في المجتمعات العربية.

من هنا، فإنَّنا نصل إلى حقيقة أساسيّة، وهي: أنَّ الرؤية الدينية المتعصّبة لذاتها وقناعاتها والتي تلغي ما عداها، هي رؤية حاضنة بالضّرورة لخيار النّبذ والعنف.

كما أنَّ الثقافة التي تنتج الإقصاء الاجتماعي، والنّبذ الثقافي، والمفاصلة الشعورية بين المختلفين والمغايرين، هي ثقافة مولِّدة لظاهرة العنف.

وعليه، فإنَّ السَّبب الأوَّل لبروز ظاهرة العنف في المجال العربي - الإسلامي، هو السبب الدِّيني - الثقافي، حيث يتداخل التّعصّب الدِّيني الأعمى مع الجمود الثقافي والجفاف الفكري، بمقولات الجهاد، وتوظيف النّصوص الدّينية لنوازع سياسية وسلطوية وعنفية.

وهذا التداخل والتوظيف يستمد باستمرار ديناميته من حالة ثقافية ونفسية تحارب التنوع والتعدد، ولا تعترف بالآخر وجودًا ورأيًا وحقوقًا، ولا ترى إلّا طريق القوّة وممارسة العسف لنيل أهدافها وتحقيق طموحاتها وتطلّعاتها.

٢- الأسباب السّياسيّة

عديدة هي المؤشّرات والحقائق التي تؤكِّد أنَّ المشهد السّياسي العربي يعيش كثيرًا من المشكلات البنيوية والهيكلية، التي لا تؤثّر على راهن العرب فحسب، بل على مستقبلهم ومكاسبهم الحضاريّة.

وبسبب هذه الأزمات والمشكلات البنيوية التي يعانيها المشهد السياسي العربي، تعمل كثير من النظم والمؤسسات على ممارسة أنواع العنف كلّها لتجاوز نقاط الضعف البنيوية. وبدل أن تبحث هذه المؤسّسات عن حلول حقيقية وواقعية لهذه الأزمات، فإنَّ استخدامها للعنف يفاقم من المشكلة، ويوفّر لها المزيد من أسباب وعوامل الحياة.

«ومن الطبيعي -تماماً- أن ينتهي إقفال الحقل السياسي أمام المجتمع، بإعمال القمع وتقييد الحرّيّات وهضمها، إلى دفع هذا المجتمع إلى سلوك مسارب أخر للتعبير عن مصالحه وحقوقه، وإلى ممارسة الاحتجاج على التّسلّط الدولتي المتغوِّل، أي على العنف الرسمي بعنف مضاد، قد يستعيد فيه المجتمع مخزونه الرمزي وتقاليد المقاومة لديه -وقد جرّبها حديثاً مع الاحتلال- لتحصيل حقوقه. وينبغي أن ندرك تمامًا معنى أن يشعر قسم من المجتمع بالغبن والاضطهاد، ويفقد الثّقة في العمليّة السياسية برمّتها، وفي مدوّنة النزاعا ت والمنافسات السلمية، وخصوصًا حينما يكون مرجعه الثقافي عسير الانفتاح على منظومة السياسة الحديثة»[1].

فرؤية متّزنة وواعية ورشيدة للكثير من نماذج العنف في الفضاء العربي تجعلنا نعتقد أنَّ هناك أسباباً سياسية مباشرة لبروز هذه الظاهرة.

وهذا بطبيعة الحال لا يسوِّغ ممارسة العنف، ولكنَّنا بحاجة إلى تحديد دقيق لأسباب هذه الظاهرة.

ولا شك أنَّ انعدام الحياة السياسية الوطنية السليمة، وغياب أطر ومؤسسات المشاركة الشعبية في الشّأن العام، ولَّد مناخًا اجتماعيًّا وثقافيًّا وسياسيًّا يزيد من فرص الانفجار الاجتماعي، ويساهم في إقناع العديد من أفراد القطاعات الاجتماعية المختلفة بخيار العنف.

وهذا يقود إلى حقيقة أساسية من المهم التّنبّه لها دائمًا؛ وهي: أنَّ العنف أداة يستعين بها القاهرون والمقهورون، وإنْ كان ذلك بمقادير مختلفة ولغايات متباينة.

ولا ريب أنَّ وجود توتّرات ظاهرة أو كامنة بين الدولة والمجتمع في الفضاء العربي، يُساهم عبر تأثيراته ومولداته في بروز ظاهرة العنف. وتجارب الحروب الأهليّة المؤلمة التي جرت في بعض البلدان العربية تؤكِّد بشكلٍ لا لبس فيه أنّ تناقض الخيارات الكبرى بين السلطة والمجتمع يقود في المحصّلة النهائيّة لنشوء ظاهرة العنف وبروزها.

وقد عبَّر هذا التناقض والتّدهور عن أعلى تجلّياته المادّيّة، في انفلات غرائز العدوان المتبادل بين مكوّنات الحقل السياسي في مشاهد متلاحقة من العنف والإقصاء المتبادل، إلى درجة باتت فيها العلميّة السياسية عاجزة -أو تكاد- عن أن تُعبِّر عن نفسها في صورة طبيعية، أي كفعالية تنافسية سلمية، وإلى الحد الذي كاد فيه العنف -المادي والرمزي- أن يتحوّل إلى اللغة الوحيدة التي يترجم بها الجميع مطالبه ضدّ الجميع. «وعلم الاجتماع السياسي المعاصر يفرّق اليوم بين الدولة القويّة والدولة القمعية، ويرى أنَّ الدولة التي تلتحم في خياراتها ومشروعاتها مع مجتمعها وشعبها هي الدولة القويّة، حتى لو لم تمتلك موارد طبيعيّة هائلة.. فالدولة القويّة

(١) عبدالإله بلقزيز، العنف والديموقراطية، ص ٤٠، سلسة تصدر عن جريدة الزمن المغربية، مايو ١٩٩٩م.

حقًّا هي التي تكون مؤسّسة للإجماع الوطني وأداة تنفيذه، وتنبثق خياراتها وإرادتها السياسية من إرادة الشعب وخياراته العليا.

ولا ريب أنَّ الدولة القمعية -بتداعياتها ومتوالياتها النفسية والسياسية والاجتماعية- هي من الأسباب الرّئيسة في إخفاق المجتمعات العربية والإسلامية في مشروعات نهضتها وتقدّمها؛ لأنَّها تحوّلت إلى وعاء كبير لاستهلاك مقدّرات الأمّة وإمكاناتها في قضايا غير مهمّة، ومارست العسف والقهر لمنع بناء ذاتيّة وطنية مستقلّة»[1].

فالإخفاق السياسي -سواء على صعيد مؤسسة الدولة أو مؤسسات المجتمع- دفع باتجاه النزوع إلى التعبير عن الأهداف والغايات والمصالح بالعنف المادي والرّمزي؛ بحيث إنَّ غياب العلاقة السّويّة والعميقة بين السلطة والمجتمع دفع الأولى في المجال العربي إلى تبنِّي خيارات ومشروعات فوقيّة - قسرية، وبفعل ذلك لجأت السلطة في مناطق عديدة من العالم العربي إلى أدوات العنف لتسيير مشروعاتها وإنجاح خططها الاجتماعية والاقتصادية. وفي المقابل فإنَّ المجتمع في ظلّ هذه الظّروف يُعبِّر عن نفسه وخياراته بامتلاك أدوات العنف واستخدامها.

فيتحوّل الفضاء السياسي والاجتماعي العربي، من جراء هذا التّوتّر والتباين، إلى وعاء للعديد من النزاعات المجرّدة من القيم الإنسانية والأخلاقية، واللاهثة صوب مصالح آنية وضيّقة.

وفي أحشاء هذا التوتر تترعرع مشاريع العنف والإقصاء، وتتّسع دائرة التّناقض والتَّصادم، وتزيد فرص الانتقام وممارسة العسف بحق الآخر.

وهكذا نصل إلى مسألة أساسيّة؛ وهي: أنَّ أحد الأسباب الرّئيسة لبروز ظاهرة العنف، هو غياب حياة سياسية سليمة ومدنيّة في بلدان عديدة من العالم العربي.

لذلك من الأهمّيّة بمكان أن نرفض الاستئثار والتّوحّش في السياسة مهما كانت الإيديولوجية التي تسوّغ له ذلك، ونقف ضدَّ التنابذ والإقصاء مهما كان الفكر الذي يقف وراءه.

وإنَّ النَّهج السياسي المعتدل، الذي يتعاطى مع الأمور والقضايا والحقائق السياسية والاجتماعية بعقليّة منفتحة ومتسامحة، هو القادر على ضبط نزعات العنف، وهو المؤهّل لمراكمة الفعل السياسي الرّاشد في المجتمع.

٣- الأسباب الاقتصادية - الاجتماعية

لو تأمَّلنا في وقائع العنف في المجال العربي لاكتشفنا، ودون عناء وصعوبة، أنَّ إخفاقات التَّنمية والتّفاوت

(١) محمد محفوظ، الأمة والدولة - من القطيعة إلى المصالحة لبناء المستقبل، ص١٢٧، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٠م.

الصارخ في مستويات المعيشة والبطالة وتدنّي مستويات الحياة والعيش الكريم، من الحقائق التي تُساهم في بروز ظاهرة العنف في المجال العربي.

لذلك نلحظ بوضوح وفي دول عديدة، أنَّ القاعدة الاجتماعية التي تعتمد عليها جماعات العنف، وتوفر لها الملاك البشري والحماية، هي مدن الصّفيح وأحزمة البؤس التي تضرب طوقًا رمزيًّا وماديًّا على كبرى المدن العربية.

فلا يمكن أن نغفل الأسباب الاقتصادية والعوامل الاجتماعية في بروز ظاهرة العنف؛ وذلك لأنَّ «آليّات العنف تتحرّك صعودًا وتصعيدًا بالتناسب مع هبوط مؤشّرات التّنمية وتدهور معدّلات التّوازن في توزيع الثّروة! ورُبَّ قائل: إنَّ هذا اللون من النّظر إلى الموضوع: موضوع العنف السياسي، يجنح نحو الأخذ بقراءة اقتصاديّة، بدليل أنَّ ظاهرة العنف هذه ليست عامّة في مجموع البلاد العربية، على الرغم من أنَّها تعيش جميعها -ومن دون استثناء- الوضع ذاته: حيث عمّ الخراب عمرانها الاقتصادي، وأودى بتوازنها المالي. وعلى هذا الاعتراض نكتفي بالرّدّ التّالي: إنَّ البنية التّحتيّة للعنف قائمة في معظم البلاد العربية -على ما فيها من تفاوت درجي- على صيرورته ظاهرة ماديّة يومية رهن بتوافر بنية فوقيّة هي إيديولوجيا العنف، ونعني بها -على وجه التحديد- الإيديولوجيا السياسية التي تسوِّغ لجماعة من الناس أهدافًا لحراكهم الاجتماعي، وتنتج لهم أطرًا لتعبئة الطاقة الاجتماعية، والتّعبير عنها. وهو ما ينطبق أمره على أيّ مشروعٍ سياسيٍّ آخر يحتاج كي ينتقل من القوة إلى الفعل، بلغة أرسطو، أو من الفكرة إلى الواقع، بلغة ماركس، إلى توافر درجة ما من التناسب والتوافق بين الشروط الموضوعية والشروط الذّاتية. وعلى ذلك فإنَّ في جوف كلّ مجتمع عربي عنفًا أو شكلاً من العنف: أما جاريًا أو مؤجّلاً، طالما كان ثمّة، في القاع الاجتماعي - الاقتصادي، ما يهيّئ له المناخ والأسباب»[1].

فالتدهور الاقتصادي يقود إلى تصدّعات اجتماعية خطيرة، وبدورها (التصدعات الاجتماعية)، توفِّر كلّ مستلزمات بروز ظاهرة العنف في الفضاء الاجتماعي. فليس مستغربًا أن تتحوّل حالات التهميش الاقتصادي إلى قنبلة قابلة للانفجار. فماذا ننتظر من ذلك الإنسان الذي لا يملك أدنى ضرورات حياته، ويفتقد إلى نظام الرعاية والحماية الاجتماعية، ودولاب الحياة المتسارع يزيد من ضنكه وصعوباته.

فالمجتمعات المهمّشة، التي تعيش الضنك في كلّ مراحل حياتها، هي مجتمعات مريضة؛ لأنَّها ببساطة لا تحيا حياة طبيعية. والمجتمع الذي تعيشه سلوكه العام مضطرب، تغشاه الأزمات الفجائية في كلِّ مجال، تتفجر أحداثه العامة بشكل هبَّات وانحرافات جماعية، ولا يبقى له وسيلة للتعبير عن معاناته إلا باستعارة

(١) محمد محفوظ، الأمة والدولة - من القطيعة إلى المصالحة لبناء المستقبل، ص٤٣، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٠م.

أساليب القمع الممارسة ضده ذاتها. إنَّه المجتمع المرشح للعنف بكافّة أشكاله وأدواته، والمتقبل لكلّ الأفكار والإيديولوجيات التي تخاطب جمهور المحرومين والمقموعين. فالفقر لا يقود إلى الاستقرار، والبطالة والعطالة لا تؤدّي إلى الأمن، بل إنَّهما الأرضية الاقتصادية – الاجتماعية لبروز حالات التمرّد والعنف.

إنَّ ظاهرة العنف في المجال العربي هي ظاهرة مركّبة، نشأت عن اجتماع جملة من العناصر والأسباب وتضافرها على النحو الذي لا يمكن معها إرجاع هذه الظاهرة إلى سبب أو عنصر واحد دون سواه. ولا يمكن فهم هذه الظاهرة إلا ضمن شبكة العوامل والأسباب التي أفضت إلى بروزها وأدّت إلى ظهورها.

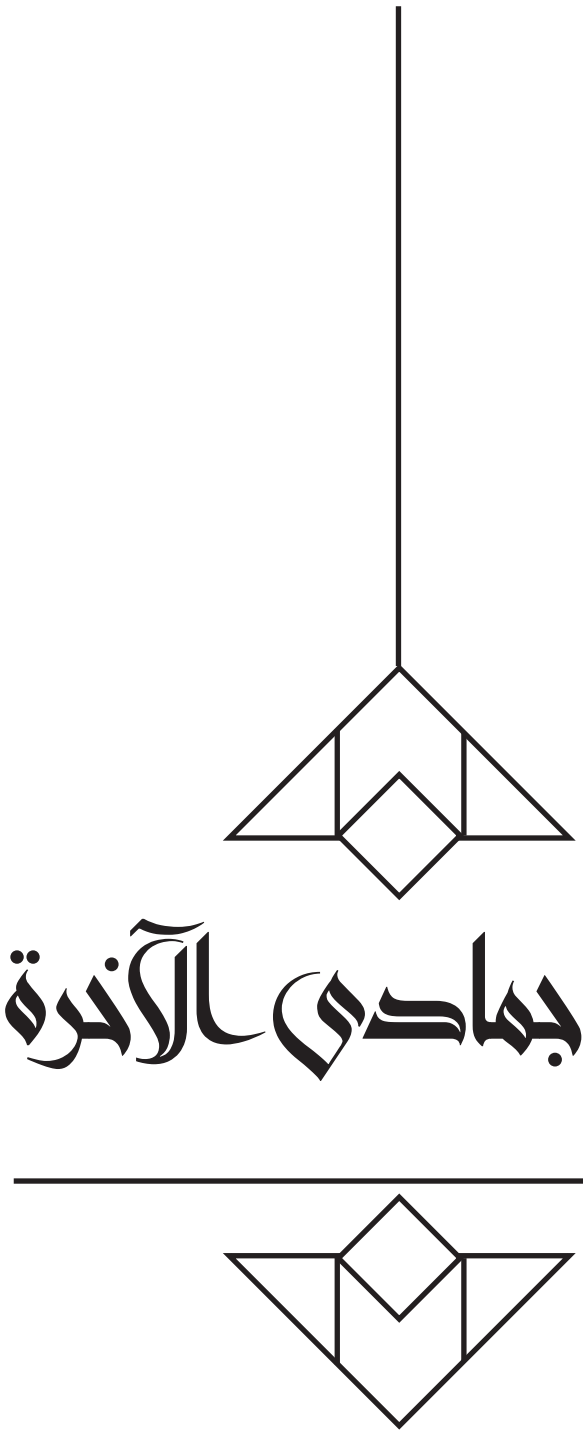

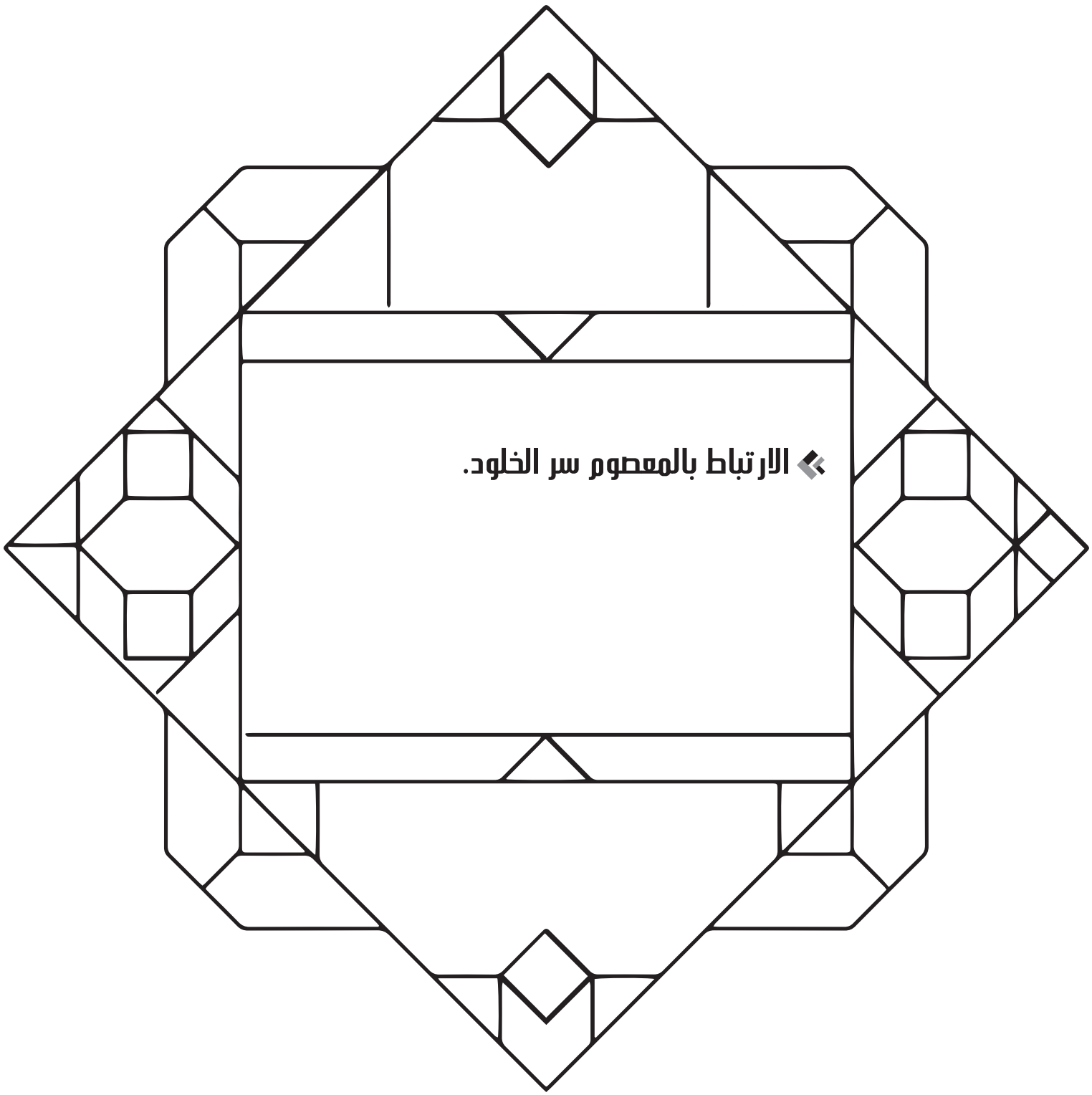
الارتباط بالمعصوم سر الخلود.

الارتباط بالمعصوم سرُّ الخلود

وسام الخالدي

لقد وصلت سيدتنا أم البنين -صلوات الله عليها- مكانًا عليًّا عند الله -عز وجل- حتَّى أصبحت بابًا للحوائج، فما قصدها قاصد ورجع خائبًا وتسمع بكراماتها تترا فلربّما نجد أُمًّا من أمهاتنا إلَّا ولها قصّة توسّل بها -صلوات الله عليها- بل لا تجد عالِـمًا إلَّا وتسمع له موقفًا معها.

تُعدّ مولاتنا أم البنين من الرّائدات الرّساليّات في المواقف، فهي صاحبة العقيدة والمبدأ الثابت مع الله- تعالى- ورسوله ﷺ وآل بيته الكرام عليهم السلام، وإصرارها على الحقّ لا يلين، ولا يتغيّر بالظروف والمواقف الصّعبة.

ومن سنن الله الجارية في أوليائه إكرامهم بإظهار ما لهم من الكرامة عليه والزّلفى منه، وذلك غير ما ادّخره لهم من المثوبات الجزيلة في الآجلة، تقديرًا لعملهم وإصحاراً بحقيقة أمرهم ومبلغ نفوسهم من القوَّة، وحثًا للملأ على اقتفاء آثارهم في الطاعة، ومن هذا الباب ما نجده على مشاهد المقرّبين وقباب المستشهدين في سبيل الله من آثار العظمة وآيات الجلال من إنجاح المتوسّل بهم إليه -تعالى شأنه- وإجابة الدعوات تحت قبابهم المقدَّسة، وتتأكَّد الحالة إذا كان المشهد لأحد المنتسبين للبيت النّبويّ؛ لأنَّه جلّت حكمته ذرأ العالمين لأجلهم؛ ولأن يعرفوا مكانتهم فيحتذوا أمثالهم في الأحكام والأخلاق.

ومن المنتسبين إلى ذلك البيت الطاهر الذي أذن الله أن يرفع فيه اسمه أمّ البنين عليها السلام، فإنَّها في الطليعة من أولئك الذين بذلوا في الله ما عزّ لديهم وهان حتى اتصلت النّوبة إلى أولادها وفلذة كبدها، بل أذهبت نفسها في زفراتها الحارة على الحسين وآله عليهم السلام، فكان ذلك كلّه نصب عينه -تعالى ذكره- فأجرى الله سنته الجارية في الصّدّيقين فيها بأجلى مظاهرها؛ ولذلك تجد المؤمنين في أصقاع الأرض يتوسّلون بها إلى الله، ويستشفعون بها في حاجاتهم في آناء الليل وأطراف النهار، ويجعلونها بابًا من أبواب رحمة الله، فيطرقه أرباب الحوائج من عاف يستمنحه بره، إلى علن يتطلب عافيته، إلى مضطهد يتحرى كشف ما به من غم، إلى خائف ينضوي إلى حمى أمنه، إلى أنواع من أهل المقاصد المتنوّعة، فينكفئ فلج الفؤاد بنجح طلبته، قرير العين بكفاية أمره.

ومن يطّلع على تاريخ حياتها عبر الحقب التاريخية، يكتشف بوضوح القيم النّبيلة التي سمت بأبنائها وارتفعت بإنسانيتهم، فجعلتهم أعلامًا بارزة شامخة في مدارج العزّ ومراتب الكرامة، وحقّقت بذلك نجاحًا منقطع النّظير.

فكانت هذه المرأة المبجّلة قد أضاءت طريق الصّلاح والإصلاح لما لها من دورٍ مهمّ في أحداث التاريخ العربي والإسلامي المشرق، وتبرز أهمّيّة دورها في الحياة اليومية للأمة كونها تتسابق للوصول لاقتطاف المنزلة الرفيعة عند الله -سبحانه وتعالى-، فقدَّمت أولادها الأربعة شهداء في سبيل الحق والدين.

لقد كان لسعة اطلاعها في الأمور، وإخلاصها الكريم، وماضيها المجيد أثر حاسم في تعلق الناس بها، وثقتهم وحبهم الذي لا حدود له بشخصها.

أم البنين -سلام الله عليها- صاحبة الكرامات الكثيرة التي نقلت عنها متواتراً وشوهدت كذلك، وذلك بالنذر أو التوسل بها لتشفع عند الله.. بإهداء ختمة أو قراءة القرآن الكريم لها أو ما أشبه.

فهي محطّ أنظار العالم الإسلامي كافة، وتروى لها في هذا الجانب كرامات عديدة، مما جعل الاعتقاد السائد أنَّها بغية كلّ طالب حاجة، فترى الناس ينذرون لأمّ البنين ﷺ ويطعم الفقراء باسم أبي الفضل العباس ﷺ، وهو من المجرّبات في قضاء الحوائج.

أو يقوم بقراءة سورة «يس» عشر مرّات في أربع أسابيع أو يجهِّز من يزور كربلاء نيابة عن أم البنين ﷺ، أو بإهداء الصلوات للمعصومين ﷺ وقراءة دعاء التّوسّل، ومما اشتهر بين الناس ولاسيما من يعرف منهم مقام أم البنين ﷺ ومنزلتها أنَّه إذا فقد حاجة وضاعت منه وأراد أن يبحث عنها فإنَّه يقرأ سورة الفاتحة ويصلي على محمد وآل محمد ويهديها لأمّ البنين ﷺ، فإنَّه يجد ضالّته بإذن الله -تعالى-، وقد جرب ذلك مراراً، أو إهداء ختمة قرآن لأمّ البنين ﷺ، أو إهداء زيارة عاشوراء.

ولا عجب أبدًا إن وصلت الى ذلك المقام الشامخ، بعد أن امتلكت أمرين مهمّين:

الأمر الأوّل: الارتباط بالمعصوم -صلوات الله عليه-

وهذا ينقسم على ثلاثة أقسام:

- الارتباط بأمير المؤمنين ﷺ
- الارتباط بالإمام الحسين ﷺ
- الارتباط بالزهراء -صلوات الله عليها-

أمَّا ارتباطها بأمير المؤمنين ﷺ فهو أمر واضح فأمّ البنين استضاءت بنور علم الإمام علي ﷺ، وأخذت

منه الأدب والوفاء...، هذا بالإضافة إلى أصالتها وعمق إيمانها وأخلاقها، وناهيك بمن تكون زوجة لبطل الإسلام الخالد كيف لا تتأثر به، وتلتصق بروحه وأخلاقه ومبادئه.

إنَّ غاية العلاقة وثمرة الارتباط مع الإمام أنَّ العبد الذي يستشعر رقابة مولاه ويعلم أنَّه مطّلع على أعماله وجميع تصرّفاته فإنَّه سيعمل على تجنّب عصيانه ومخالفته، ويتحرَّى ما يرضيه في جميع سلوكياته، ومولاتنا أمّ البنين ﷺ ارتبطت بالمعصوم-صلوات الله عليه- ارتباطًا لا مثيل له.

أما الارتباط بالإمام الحسين ﷺ

فقد علمت لإيمانها وقربها من الله -عزَّ وجل- بأنَّ الطّريق الى الله -عزَّ وجل- هو طريق المعصوم، أهل البيت -صلوات الله عليهم- هم الواسطة في الفيض وهم السبب في الهداية ما يصل إليهم سالك الى الله عزّ وجلّ، ولا يمكن أن يسلك الطَّريق الصَّحيح إلَّا عن طريقهم.

لقد عاهدت أمّ البنين ﷺ أنَّها ستكون كالأم الرّؤوم للحسنين ﷺ، فدخلت إلى بيت العصمة تحمل معها عالمًا من المحبّة والمودّة والحنان.

وفي أوّل زواجها أظهرت طاعتها ومحبَّتها لحجج الله -سبحانه وتعالى- من أهل بيت محمد ﷺ وهي ترى ذلك واجباً دينيًّا؛ لأنَّ الله-سبحانه- أمر بمودّتهم في كتابه الكريم فقال -تعالى-: **(قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ)**[1].

وهذا الذي دعا تلك السيدة الجليلة أن تنازلت وطالبت عدم ندائها باسمها (فاطمة) مخافة أن يتذكر أبناء السيدة الزهراء ﷺ أمّهما، فيتجدّد لهما حزنهما، ويعود عليهم مصابهم، فكان أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ يناديها بكنيتها (أم البنين).

والأصل في هذه الكنية أنَّ العرب تُكنّي بها المرأة التي تلد ثلاثة أولاد فما فوق، وقد يُكنّى بعضهم ابنته، وهي في الطفولة، بهذه الكنية مجازًا على سبيل التفاؤل لهنَّ بالبنين، كما كانوا يكنّونهنَّ بأمثال ذلك «كأمّ الخير» و «أمّ الكرام»

وقد تَغْلب الكنية حتى ينسى الاسم تمامًا، كما حدث «لأمّ أيمن» و «أمّ سلمة» وكذلك حدث «لأمّ البنين»، علمًا أنَّها طلبت ذلك في بداية زواجها أي أنَّها بعد لم تنجب.

تسمع في الخبر إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا قذف في قلبه حبّ الحسين وحبّ زيارة الحسين ﷺ؛ أي إذا أراد الله بعبد الخير، خير الدنيا والآخرة ويصل الى أعلى مستوى من القرب من الله -عزّ وجلّ- ازداد حبًّا ومعرفة بأبي

(١) سورة الشورى: آية٢٣.

عبد الله الحسين﵇، ناهيك عندها أربعة من الأبناء بدور ومن بين البدور قمر العشيرة أبو الفضل ٣٤ سنة، وأصغرهم جعفر عمره ١٩ سنة، قمر العشيرة أبو الفضل العباس الذي وصل في مقامات الكمال (وإنَّ لعمّي العبّاس منزلة يغبطه عليها جميع الشهداء يوم القيامة)[١] وأمَّا من الجمال الجسدي فهو قمر بني هاشم إذا ركب المطهَّم خطَّت قدماه، أمّ البنين فقدت أربعة من بينهم أبا الفضل العباس، ولما أخبرها بشر ابن حذلم قالت ما سألتك عن ولدي أو عن واحد منهم سألتك عن عزيز الزّهراء.

ارتباطها بالزّهراء -صلوات الله عليها-

إنَّ السّيّدة أمّ البنين كانت تقدّم أبناء الصديقة فاطمة الزهراء ﵄ على أبنائها وهي التي علّمتهم أن لا سواء بينكم وبين الحسن والحسين وزينب، فموتوا دونهم، ولا تقولوا إنَّ أبانا أمير المؤمنين ﵇، وقدَّمتهم بكلّ سخاء؛ لتنال بذلك رضا الله ورضا نبيّه، وتكون مبيضّة الوجه غدًا يوم القيامة بين يدي فاطمة الزهراء ﵄.

ثانياً: امتلاكها جواهر الأخلاق

١: الإخلاص

إخلاص أم البنين لا يضاهيه أيّ إخلاص، لعليٍّ وذرّيّته، وإنَّ القلم ليعجز عن إدراك هذه الشّخصية المحبوبة.

قيل إنَّ أم البنين أتت ذات يومٍ إلى أمير المؤمنين وقالت له: لي إليك حاجة.

قال لها: قولي ما عندك.

قالت: أنا أطلب منك أن تغيّر اسمي، قالت عندما تناديني فاطمة، أرى الانكسار باديًا على وجوه الحسن والحسين وزينب، فإنَّهم يذكرون أمّهم فاطمة الزّهراء ويتألّمون. فما كان من الإمام إلّا أن غيّر اسمها وسمّاها أم البنين[٢].

أرأيت إلى هذه المواقف المثيرة من أمّ البنين، وقد ملئ قلبها بالإيمان والمحبّة والإخلاص؟

٢: المودّة

قوله تعالى: **(قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ)**[٣].

هذه هي آية المودة التي أكّدت أغلب كتب التفسير وكثير من مصادر الحديث والسيرة والتاريخ نزولها في

---

(١) الأمالي للشيخ الصدوق: ٥٤٨، الخصال: ٦٨، بحار الأنوار ٢٢: ٢٧٤،

(٢) ينظر: منتهى الآمال، للشيخ عباس القمي: ٦٨٩، وأم البنين، السيد سلمان هادي آل طعمة: ٤٦.

(٣) سورة الشورى: آية:٢٣.

قربى النبي ﷺ: علي والزهراء والحسن والحسين وذرّيّتهم الطاهرين عليهم السلام.

روى السيوطي وغيره في تفسير هذه الآية بالإسناد إلى ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية **(قُل لا أسألُكُم عَليه أجراً إلاّ المودَّةَ في القُربى)** قالوا: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجّبت علينا مودّتهم؟

قال ﷺ: «علي وفاطمة وولداهما»[1].

وهنالك فرق دقيق بين المودّة وبين الحب:

الآية المباركة استعملت كلمة المودّة وليس المحبّة، فهل هما لفظتان مترادفتان أم أنَّ ثمَّة فارقاً بين الودّ والحبّ؟

والجواب: أنَّه يمكن أن يذكر في المقام فارقان:

الفارق الأوّل: ما ذكره بعض اللغويين من أنَّ "الفرق بين الحبّ والودّ: أنَّ الحبّ يكون فيما يوجبه ميل الطباع والحكمة جميعًا، والوداد من جهة ميل الطباع فقط، ألا ترى أنَّك تقول: أحبّ فلاناً وأودّه، وتقول أحبّ الصلاة، ولا تقول أودّ الصلاة، وتقول أودّ أنَّ ذاك كان لي، إذا تمنَّيت وداده، وأودّ الرجل وِدًّا ومودَّة" [2].

ولو أنَّنا أخذنا التّفرقة اللغويّة المشار إليها باهتمام، فإنّ ذلك قد يؤشّر على أمرٍ مهمّ، وهو أنَّ مودّة آل البيت عليهم السلام بناءً على أنَّهم المقصودون بالقربى في الآية كما مرّ - هي ممّا تقتضيه الفطرة والطبيعة البشريّة لو خلّيت ونفسها، ولم تتلوّث بالأجواء والتيّارات الفكرية المضادة. ولا تحتاج مودّتهم إلى مزيد تكلّف أو جهد تثقيفي مضاعف؛ لأنَّ لأهل البيت عليهم السلام جاذبيّة خاصّة تجعلهم مهوى القلوب والأفئدة، بسبب ما امتازوا به من مكارم الأخلاق ومحامد الصّفات، وما بلغوه من كمالٍ روحيٍّ وقرب معنويٍّ من الله تعالى. ومن المؤكّد، أنّ من أحبَّ الله وتقرَّب إليه فإنَّ الله تعالى سيكسبه محبَّة عباده.

الفارق الثاني: أن يُقال: إنَّ المودّة ليست مجرّد الميل القلبي، كما هو الحال في المحبَّة، بل إنَّ المودّة تختزن شيئاً من الموالاة العمليّة، وتستبطن نوعًا من الحافزيّة المضاعفة للانقياد العملي على طبق الودّ.

وربّما تشهد لهذا الفارق العديد من الاستخدامات القرآنية لكلمة المودّة، من قبيل قوله تعالى: **(وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ**

(١) الدر المنثور | السيوطي ٦: ٧، وروي الحديث أيضاً في: فضائل الصحابة | أحمد بن حنبل ٢: ٦٦٩ | ١١٤١ . والمستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٢ . وشواهد التنزيل | الحسكاني ٢: ١٣٠ من عدّة طرق . والصواعق المحرقة | ابن حجر: ١٧٠ . وتفسير الرازي ٢٧: ١٦٦ . ومجمع الزوائد | الهيثمي ٩: ١٦٨ . والكشاف | الزمخشري ٤: ٢١٩ . وذخائر العقبى | المحب الطبري: ٢٥ . وإسعاف الراغبين | الصبان: ١١٣ . وسائر كتب المناقب والتفاسير . وراجع كتاب التشيع | السيد الغريفي: ٢١٥ ـ ٢١٦ .

(٢) الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - الصفحة ١٧٤.

وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)[1]، فإنَّ مودّة الكفار وتمنيهم أن يغفل المسلمون عن أسلحتهم ليميلوا عليهم ميلة واحدة، لم تكن مجرّد أمنيات باطنية، بل كانت مترافقة مع جاهزيّة عسكريّة، وتحفّز لديهم - أعني الكفار- للانقضاض على المسلمين لدى أدنى غفلة لهم أو تراخٍ في صفوفهم.

وهكذا قوله تعالى: **(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**[2]، فإنّ المرجّح أن لا تكون مودّتهم ورغبتهم هذه مجرّد أمنيات مختزنة داخل النفس، وإنَّما هي مودّة تستتبع سعياً تحريضيّاً وتشويهيّاً للدين.

وهذا المعنى لكلمة المودّة الذي يجعلها تستبطن شيئاً من الاندفاع العملي لو تمّ استظهاره وترجيحه، فهو يعني أنَّ المودّة المطلوبة تجاه ذوي القربى من آل بيت النبي ﷺ ليست هي نبضة قلب مجرّدة بعيدة عن خطّ الاتباع لهم، ولا انفعالات عاطفية عابرة تقف عند حدود المشاعر، بل هي الحبّ الحركيّ الذي يدفع الإنسان ليجسّد مشاعره على أرض الواقع ويحوّلها إلى موالاة حقيقية تستلهم خطاهم وتقتدي بهديهم.

الله -سبحانه وتعالى- لم يطلب الحب وإنَّما الباري عزّ وجلّ طلب من الأمّة المودة؛ ذلك لأنَّ قضية الحب هي أمر فطري، وأي إنسان تتجسّد فيه صفة من صفات الجمال والكمال تتجه له وتحبّه، وهذا أمر طبيعيّ.

كلُّ انسان مفطور على حب صفات الكمال والجمال المعنوي، فإذا تجسّدت هذه الصّفة بأيّ إنسان بغض النظر عن دينه واعتقاده ولونه وقوميته أنت تحبه؛ لأنَّه أمر فطريّ، فكيف بمن تجسّدت فيهم كلّ صفات الكمال والجمال المعنوي؟

يُعدّ الشاعر اللبناني بولس سلامة من أشهر الشعراء الذين كرّسوا جزءًا مهمًّا من شعرهم لذكر أهل البيت ﷺ وهو الذي قال في مقدّمة كتابه "عيد الغدير" إنَّه المسيحي الذي انحنى أمام عظمة رجل يهتف باسمه مئات الملايين من الناس في مشارق الأرض ومغاربها خمسًا كلَّ يوم، رجل ليس من مواليد حواء أعظم منه شأنًا وأبعد أثرًا وأخلد ذكرًا، رجل أطلّ من غياهب الجاهلية فأطلّت معه دنيا أظلّها بلواء مجيد كتب عليه بأحرف من نور: لا إله إلا الله ! الله أكبر!

يقول في حقِّ أمير المؤمنين ﷺ

لا تَقُـــــل شيعةٌ هواةُ عليٍّ إنَّ كـــــلَّ منصفٍ شيعيّا

---

(١) النساء، ١٠٢.

(٢) البقرة، ١٠٩.

هُوَ فخرُ التاريخِ لا فخرَ شعبٍ ... يَصطَفِيـــــهِ ويَدعِيهِ وَلِيًّا
جَلجَلَ الحقُ في المسيحي حتى ... صـــارَ مِن فَرطِ حُبِهِ عَلَويّا
أنا مَن يَعشقُ البطولةَ والإلهامَ ... والعـــدلَ و الخلقَ الرَّضِيّا
فإذا لم يكن عَـــــــــليٌّ نَبيًّا ... فَلَقَـــــد كانَ خُلُقَهُ نَبويّا
أنتَ ربٌ للعالمينَ إلـــــهي ... فـــــأَنِلهُم حَنَانَكَ الأَبَويّا
وأَنِلني ثوابَ ما سَطَرَت كَفِّي ... فهـــــاجَ الدموع في مقلتيّا
سِفرُ خير الأنامِ مِن بعدِ طَـــهَ ... مَـــا رَأَى الكونُ مِثلَهُ آدميّا
يا سماءُ اشهَدِي و يَا أرضُ قَرِّي ... واخشَعِي إنَّني ذَكَرتُ عَلِيّا

إنَّ الحبَّ مكانه في القلب (مساحته القلب)، أمَّا المودّة فمساحتها الجوارح، والمودّة هي الجانب المتحرِّك من الحب.

لا يكفي أن يحب الإنسان أهل البيت عليهم السلام ويتّبع غيرهم سواء كان بالتفسير أو بالرواية أو كان أيّ شيء يتبع غيرهم.

أمّ البنين عليها السلام وتجسيد قدسيّة محبَّة أهل البيت عليهم السلام

أمّ البنين لا يتوقّف فضلها في أنَّها زوجة أمير المؤمنين أو أنجبت أبطالاً لكربلاء وإنَّما هي عالمة وخادمة لأهل البيت، ومعنى ذلك أنَّ تجسيد قدسيّة المحبّة لأهل البيت عليهم السلام يكون بخدمتهم في كلِّ المجالات العملية والفنية، فكتابة الشعر والخطابة والمشاركة في المجالس كلُّها تدخل ضمن خدمة أهل البيت عليهم السلام. فإذا كان الإنسان يريد اختبار نفسه في تقديس المحبّة فلينظر إلى ماذا قدَّم من خدمة لهم عليهم السلام.

لقد أعطت الصّورة الرَّائعة لمحبّة أهل البيت عليهم السلام من خلال تدينها والتزامها وعلمها وخدمتها، وتربية الأبناء بحب أهل البيت-صلوات الله عليهم-.

لقد جسّدت أمّ البنين حديث النبي الأعظم صلى الله عليه وآله الذي يقول: « أدّبوا أولادكم على حبِّ نبيّكم وحبِّ آل بيته وقراءة القرآن الكريم» [1] وقدَّمت أربعة من أبنائها مدافعين عن إمام زمانهم حبًّا لله وحبًّا للرسول وآل بيته إلى أن استشهدوا في كربلاء وذلك بزرع قداسة الحب فيهم تجاه أهل البيت عليهم السلام، ونحن اليوم أمام إمام زماننا الإمام المهدي -عجل الله فرجه الشريف- الذي ينتظره العالم، يجب أن يكون لنا دور كبير في تربية أبنائنا على الاستعداد لاستجابة النداء المهدوي لتجسد قدسية المحبة والولاء لأهل البيت عليهم السلام.

(١) ميزان الحكمة - ج ٤ - ص ٣٦٨٠

٣: الصبر

إنَّ أعظم ما كانت تتحلَّى به أمّ البنين علمًا وعملاً صالحًا وأخلاقًا وجهادًا متواصلاً في نصرة الحقّ والهدى، حتى بلغت المراتب السَّامية والإجلال العظيم، بمفاخرها التي لا تغيب عن بال كلِّ إنسان.

إنَّ سير العظماء في تاريخ الإسلام أعلام إنسانية باذخة، يكبرها المسلم وغير المسلم. وإنَّ أمّ البنين كانت أقوى جرأة وشجاعة، وأصبر المؤمنات على تحمّل الصّعاب.. تطلب المجد والكرامة، والمجد لا ينال إلا بالمصاعب، وركوب المخاطر، والتّضحية والاستبسال.

لقد كانت أُمُّ البنين القدوة الحسنة والمثل الأعلى الذي يُحتذى به، وكانت عنوانًا للثبات والخلاص والبسالة والتّضحية والفداء والشّرف والعزّة والكرامة في سبيل الحقّ والعدالة.

هذه السيدة المصون ما إن بلغها مقتل الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء إلا وخنقتها العبرة، فكانت تبكي بكاء الثكالى صباح مساء تعبيرًا عن مشاعرها وأحزانها، وكانت تقول:

لا تَدْعُوَنِّي وَيْكِ أُمَّ البَنِينِ ... تُـــذَكِّرِينِي بِلُيُوثِ العَرِين

كَـانَتْ بَنُونُ لِي أُدْعَى بِهِم ... وَاليَوْمَ أَصْبَحْتُ وَلا مِنْ بَنِين

أَرْبَعَـــةٌ مِثْلُ نُسورِ الرُّبَى ... قَدْ وَاصَلُوا المَوْتَ بِقَطْعِ الوَتِين

تَنازَعَ الخُرْصانُ أَشْلاءَهُم ... فَـكُلُّهُم أَمْسَى صَرِيعاً طَعِين

يا لَيْتَ شِعْرِي أَكَما أَخْبَرُوا ... بَـــأَنَّ عَبَّاساً قَطِيعُ اليَمِين[1]

---

(١) ثمرات الأعواد، ج ٢، ص ٨٦.

يا سيد الماء

الشاعر حسام لطيف طعمة البطاط

كلُّ الجـراحِ إلى عينـيكَ تـرتـفعُ ... يا سـيدَ الماء هل في القـلبِ مُتّسعُ؟
يا سـيدَ الـوجع الممـتدّ أشرعة ... ما زال ينبـضُ فيهِ حزنُـكَ الورِعُ
سكبتَ روحَكَ فوق المـاء فانبجستْ ... دماؤهُ وتلاشـى الخـوفُ والهـلعُ
صنـعتَ كونًا من اللاخوف منبعُهُ ... قلـبٌ بكلِّ شموخ الأرض يلتـمعُ
وصغتَ نهراً من الأحـزانِ لا سُحبٌ ... تغفو على ضفّـتيهِ حين تنقـشعُ
لا ماءَ في النـهر كانَ الدمـعُ يُخجلهُ ... لتستـحيلَ رمـادًا تلكم الجُـرَعُ
مددتَ للجـودِ كفاً لو لمسـتَ بها ... جرحَ السماء تـوارى دونـهُ الوجعُ
وكنـتَ تدنو وكان النـهرُ من خجلٍ ... ينـأى وحيدًا ومن خـذلانهِ يقـعُ!
غدوتَ تـرسمُ فوق الماء ملـحمة ... أبطالُها من جلالِ العرش قد صُنعوا
فعانقوا الشمـسَ كان القتلُ عادتهم ... هم علموا المـجد مجدا حينما فُـجعوا
وصبـية كرفيـفِ الفجر شتّـتَهم ... شملُ الفراتِ ومن حرمانه رضعوا!
عذرًا (أبا مخنفٍ) ما زلتُ أنـكرها ... وربما قالَ بعـضُ الناس : مبتدعُ!
هبني أصـدِّقُ أنَّ الرايـة انكسرتْ ... أو أنَّ نـهراً هوى فاستـيقظ الجزعُ!
فكيف أؤمنُ أنَّ الكـفَّ قد قُطِـعتْ ... وأنَّ عيناً بسهم الحـقدِ تنصدعُ؟
عباسُ يُمـسكُ روحَ الكون في يدهِ ... فكيفَ تُمـسكهُ كفٌّ ستـنقطعُ؟!
ما زالَ عباسُ حياً كنـتُ أرمقهُ ... يحنو عليـنا بحبٍّ حين نجتمـعُ
لو كان للمـوتِ شيء من شجاعتهِ ... لما تـريّثَ حتى يوغـلَ الوجعُ

عبـرتُ ألفًا من الأعـوام مشرعة ... علِّي إلى ذكريـاتِ الطفِّ أرتـفعُ
عبرتُـها كان عمـرُ الأرض ملحمة ... للثائـرين بوجهِ الخوفِ تنـزرعُ
رأيـتُ نهـراً عظيماً كان منشـتلا ... بقلبِ زيـنب يسـقي ماءَهُ الورَعُ
ومذ هوى كان وجهُ المـاء يرمـقهُ ... بنظرةٍ لا يعيـها غير من صُرعوا
وأنجماً كانت الصحـراءُ تحرسـهمْ ... يغزو السماءَ ضيـاءٌ كلما سطـعوا
يا سيـدَ الماء صوتُ الله أيقـظني ... فعانقَ الأمـسَ قلـبٌ نصفهُ فزعُ
قلبٌ يطأطئ هـامَ الغـيم من ولعٍ ... بوحي جودِك يسـمو ذلـك الولـعُ
كلُّ القصـائد إنشـاءٌ وقافـية ... ومذ مدحتُـكَ صار الشعرُ يندلعُ!
علمتَني كيـف يغدو الشعرُ بسملة ... وكيف تخجلُ من آيـاتهِ البـدعُ
ما كان ذلك شعـراً كان محضَ دمٍ ... وأحرفـاً من بقـايا الروح تُنتزعُ
حقيقة أنـتَ لا طيـفٌ فيُبعدني ... عنكَ السـهادُ ولا قـولٌ فيُختَـرعُ
سمعتَ صوتاً فكان الردُّ منـك دماً ... وما استجابوا له لكنـهمْ سمعـوا